

البيت المشيقي
كنز العمارة



جمع واعداد
حَسَنُ زَكِي الصَّوَّافُ

الْبَيْتُ الدِّمَشْقِيُّ
كَنْزُ الْعِمَارَةِ

دَارُ الْمَكْتَبِ

الطبعة الأولى

2017 - 1438

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إفراج هذا الكتاب أو أي جزء منه
بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير
أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان
بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن
مكترب من دار المكتب.



دمشق - الشارقة - القاهرة

دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426

الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309

Email: almaktabi@gmail.com

www.almaktabi.com

دار المكتب والنشر
للطباعة والنشر والتوزيع

المقدمة

لقد كانت دمشق ولم تزل أم المدائن ، ومصنعاً لحضارات الأمم الغابرة واللاحقة على السواء ، قامت بتوليد حضارات تلو حضارات ، لا تزال شامخة ، وستظل كذلك مرفوعة الجبين بأبنائها وشعبها ، تعطي وتعطي دون حساب ، ولا تزال ملامح حضارتها عمائر خالدة ، وكانت مساكنها عربناً شامخاً لساكنيها يصعب على الغزاة الطامعين اقتحامها ولقد خَرَجَتْ قادة عظاماً عرفوا طريقهم فساروا عليه بثقة مطلقة لا تعرف الهزيمة إليهم سبيلاً ، لذلك فقد غدت مساكنهم صورة طبق الأصل لشخصية أصحابها ، رغم بساطة هذه المساكن ، ولعل هذه البساطة المتناهية هي التي تعطيها هذه العظمة في التكوين المعماري وفي فلسفتها المعمارية من الناحيتين الوظيفية والشكلية .

هذا وقد أثَّرت البيئة المحيطة بالمدينة كثيراً في شكل هذه المنشآت التي قاموا ببنائها ، فغدت تحفة فنية في جوهر العمارة العربية والإسلامية ، ولعل أحد أركان البيت الدمشقي هو فراغ الليوان .



فن عمارة البيت السكني الدمشقي التقليدي

العوامل الطبيعية - المناخية والجغرافية - التي أثّرت على تشكيل البيت الدمشقي السكني التقليدي .

بموجب المؤشرات المناخية يمكن تقسيم سوريا إلى مناطق مختلفة سهلية وجبلية وساحلية : في المنطقة الأولى (وخاصة منطقة مدينة دمشق ، التي تقع على ارتفاع (٦٧٥م) حتى (٩٠٠م) فوق سطح البحر . وتقع على خط عرض (٣٣،٣٣) وعلى خط طول (٣٦،١٧) نجد متوسط درجة الحرارة شتاءً (+٦ -٨) درجة مئوية وصيفاً (+٣٥ - ٤٠) درجة مئوية ، لذلك فإن المناخ جاف ودافئ (٣٣٠ يوماً في السنة) . واحة الغوطة التي تقع فيها دمشق محمية بالجبال عن الرياح فالمناخ رطب ودافئ ، ومتوسط الضغط الجوي في دمشق : في كانون الأول (٩٣٤مم) ، وفي تموز (٩٢٥مم) . أما الرطوبة في فترة الأمطار فلا تزيد عن (٧٠٪) وصيفاً لا تزيد عن (٣٣٪) . والرياح شمالية غربية في أغلب أوقات السنة ، أما في كانون الأول وتشيرين الثاني فالرياح شرقية .

جميع البيوت السكنية الدمشقية مندمجة مع بعضها البعض ، لذلك كانت أقل الواجهات مفتوحة للتسخين الشمسي ، اعتمدت مبادئ في تكوين شكل البيت الدمشقي : الزيادة القصوى في الظل على سطوحه ، واستخدام مواد على أساس كلسي ، والسطوح البيضاء تعكس أشعة الشمس . ارتفاع كامل المبنى على مستوى واحد كي لا تدخل التيارات الحارة ولا الباردة إلى داخل المبنى ، فيما عدا اللوان ثنائي الطابق الواقع دائماً في الجزء الجنوبي من الفناء ، حيث يوجد فيه الظل دائماً .



الأروقة المقنطرة الواقعة إلى يمين أو يسار اللوان أحياناً وعلى العكس تقدم أيضاً الظل لغرف الضيوف والغرف السكنية. في البيوت الدمشقية السكنية التقليدية زينت النوافير الفناءات الداخلية مقابل اللوان ، إضافة إلى الغرف المعدة لاستقبال الضيوف ، فالقاعة (غرفة الضيوف الكبيرة) التي يتم الوصول إليها بالصعود على درج صغير أو مباشرة من الفناء الداخلي وقد زُينت دائماً بالنافورة. في الأماكن التي لا تسمح أبعادها ببناء نافورة أقيمت نافورة جدارية تسمى (سلسيل). في بعض القاعات الكبيرة المكونة من ثلاثة أماكن للضيوف يمكن أن نجد نافورة عند المدخل ، وسلسيلاً في منطقة الضيوف المركزية داعماً لرطوبة المكان. بُنيت في القصور الدمشقية الحمامات العربية ، وهذا يدل على ثراء صاحب البيت. مكان المرجل المعد لتسخين المياه قرب غرف الضيوف مباشرة - قاعة الحرملك وقاعة السلملك ، ومن المطبخ وأماكن الخدمة - مسخناً بدوره إحدى الجدران ، أما الحمام فكان على مستوى أدنى من

الغرف السكنية ، آخذين بالحسبان دوران المياه الدقيق . من المطبخ والحمام تنتقل المياه إلى المراحيض وتخرج من البيت إلى أفنية الصرف الصحي .



البيت الدمشقي ملزم تجاه الشروط المناخية بتشكيل الفناء الداخلي أو الباحة السماوية (أرض الديار) ، حيث إن وجود الفناء الداخلي أثر على النظام الحراري داخل المنزل ، الهواء الساخن للحجارة المسخنة نهاراً سيدخل مساءً إلى الغرف السكنية ، وهذا ماشكل نظاماً فريداً في نوعه لتكييف الهواء نهاراً وآلية تدفئته ليلاً . طليت الجدران بلون أبيض وفي طياتها استخدم الطوب واللبن إضافة إلى الحجر .



الوظيفة المناخية للمشربية منفذة من الشجر ، الذي يمتص الرطوبة من الهواء البارد ليلاً ويقي في النهار من أشعة الشمس المباشرة ويعطي ظلاً .

العامل الاجتماعي له تأثير على تشكيل البيت الدمشقي التقليدي ، المتمثل بتوزيع العائلة الكبيرة حول مركز قوي لصاحب هذا المبنى ، كما أثر تعاقب الأجيال وتحول النسب من الأب للابن على إنشاء البيت الدمشقي التقليدي ، فالثروات المادية حسب التقاليد العربية يجب ألا تغادر جدران البيت الأم ، لذلك كان متبعاً زواج الأقارب المقربين (الزواج بين ابن العم أو بنت العم أو الخال).

المشربية: هي إحدى عناصر العمارة السكنية الدمشقية ذات الوظيفة الاجتماعية: حماية سكان البيت ، وخاصة نصفه النسائي من العيون الخارجية . وهذا ما ساعد على ملاحظة ما يجري على الشارع والشخص موجود في الشرفة الناتئة ذات الشبكة الخشبية المغلقة ، خلافاً للأشخاص الموجودين على الشارع الذين لا يمكنهم رؤية ما يجري في الداخل .



مشربية مكعبة في حي العمارة البرآنية وتشاهد في أسفلها
فتحتان لوضع جرار الماء بهدف التبريد .

الدھليز: هو أيضاً أحد العناصر المعمارية التي أثرت على تشكيل البيت الدمشقي . حيث لا يستعجل الزائر عند دخوله وصولاً لعمق الفناء ؛ حتى تتمكن النسوة من الخروج إلى نصف المنزل المخصص لهن (وهو عبارة عن كوريدور صغير مقوس) .

المنسوب العلوي يشمل اللوان (منطقة الاستجمام) أو القاعة - مكان غرف الضيوف أو الغرف السكنية - ويفرش بالسجاد ، أما المنسوب السفلي - العتبة - فقد استخدم لأولئك الزوار الذين بإمكانهم الجلوس دون خلع أحذيتهم .

التوزيع الوظيفي للغرف إلى القسم الرجالي والقسم النسائي ، إضافة إلى وجود المشربية كمخبأ للنساء من نوع فريد ، حيث تستطيع المرأة أن تسمع وترى وهي مخفية وراء الشبكات الخشبية .

البيت الدمشقي متجه نحو الداخل ، لكن واجهاته كافة تطل على الفناء الداخلي ، أما على الشارع أو الحارة فيطل بجدرانه المصمتة . والمجالات

الحجمية التخطيطية للبيت الدمشقي : وجود رطوبة النوافير والعناصر المعمارية المؤثرة على التخطيط للبيت الدمشقي التقليدي .

١ - الحرملك .

٢ - السلملك .

٣ - الخدملك .

٤ - الليوان .

٥ - غرف الضيوف المطلة على الليوان - القاعة .

٦ - مكان للضيوف (القاعة) مكون من ثلاثة طوزور .

٧ - مكان للضيوف (قاعة) مكون من طزين .

٨ - مكان للضيوف (قاعة) مكون من طزر واحد .

٩ - المطبخ .

١٠ - أماكن إضافية (خدمات) .

١١ - غرف نوم .

١٢ - حمامات .

١٣ - نافورة مركزية .

١٤ - العتبة - جزء مدخل الضيوف إلى الغرفة .

١٥ - غرف الغسيل .

١٦ - المدخل إلى البيت .

يكون مدخل البيت الدمشقي من باب الدخول وفرع مدخل صغير أو دهليز يكون مقوساً أحياناً ، وبعد عبور المدخل يصل الزائر إلى فناء أو عدة فناءات داخلية ، يمكن أن توجد فيه منطقة استجمام تدعى «الليوان» تطل عليه غرف الضيوف . في الطابق الأول لهذه الفناءات توجد غرف الاستقبال القاعة والغرف السكنية والغرف الملحقة التي تطل على الفناءات الداخلية ، يحتوي الطابق الثاني على غرف المعيشة وغرف النوم ويضم الطابق الأرضي غرف المراحيض والحمامات .



زقاق المكلائي في حي القيصرية

اكتملت الحجومية - التخطيطية للبيت بعناصر بارزة للمبنى وهي: المشربية والصيياط والرواشان ، التشديد الرئيسي في تنظيم الفراغ يقع على غرفة الضيوف أو منطقة الاستحمام المتمثلة في الليوان أو الإيوان ذات القيمة الوظيفية والفنية . حيث تذكر تسمية هذا المكان بشكل متباين في مراجع مختلفة

والتسميتان صحيحتان. يمكن من الليوآن الكائن في الجزء الجنوبي من المبنى الوصول إلى مكانين آخرين للضيوف.

كافة الأماكن المغلقة مرتبطة عضوياً عبر الأروقة المقنطرة واللوحات مع الفناء الداخلي للجزء المعيشي الذي يمثل في جزئه المعروف امتداداً مباشراً لأماكن المعيشة ، المساحة المعيشية غير المسقوفة من نوع خاص .

الفناء مع البركة كان علامة مميزة في تكوين البيت الدمشقي السكني العربي حيث يؤدي وظائف كثيرة :

مكان تواصل يجتمع فيه جميع أفراد الأسرة .

كما أنه مكان استجمام (حيث من خلال الفناء تتم تهوية الأماكن الأخرى) .

واجهات الفناء الداخلي لم تُبن بارتفاع واحد ، حيث إن زيادة مساحة المباني السكنية تم على حساب حيازة المالك للمباني المجاورة ذات التعداد الطائقي المختلف ، أقيمت في الجزء الشمالي للفناء الغرف الشتوية المتجهة جنوباً . وتشغل الجانبين الغربي والشرقي الغرف الأخرى ؛ السكنية والمعيشية وغرف الخدم . من حيث الوظيفة هنالك توزيع دقيق جداً للفئات الداخلية : قسم الرجال وقسم النساء وقسم الخدمة (السلملك) هو عبارة عن فناء داخلي وغرف استقبال وغرف سكنية تعود للقسم الرجالي من البيت ، أما (الحرملك) عبارة عن فناء داخلي وغرف ضيوف وغرف سكنية تعود للقسم النسائي من البيت .

ومن حيث المساحة فإن (الحرملك) يكون دائماً أكبر في أبعاده من القسمين الآخرين وأكثر غنى وأناقة وتزييناً .

(الخدملك) وهو فناء داخلي صغير الأبعاد للخدمة وجميع غرف الخدمة المطلة عليها ، ومثال على ذلك التوزيع الوظيفي يمكن تعقب المباني التالية التي بنيت في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي : قصر العظم (الذي بناه حاكم دمشق) ومكتب عنبر (الذي بناه أحد وجهاء المدينة) وبيت السباعي وغيره من مباني تلك الفترة .



بيت آل الباهي في حي منطقة الشام ، زقاق السلمى

غرفة الضيوف (القاعة) - مكان لاستقبال الضيوف وللسكن وللأعياد المختلفة - أيضاً غرفة الضيوف الجنوبية التي تتجه شمالاً ، أما القاعة الجنوبية فتتجه جنوباً).

الطزر: هو مكان مرتفع للراحة يقع على مكان يعلو عن سطح العتبة بمقدار (٣٠) سم حتى (٥٠) سم.

العتبة: منطقة تقع على مستوى الفناء الداخلي استخدمت لمرور الضيف إلى الطزر، حيث يخلع الحذاء ، مبلطة بالحجر والرخام، وأحياناً توجد في هذا المكان نافورة لترطيب الهواء. إنشاء الفراغ على مناسيب مختلفة يهدف إلى دوران الهواء في المكان.

العتبة: تسمية فصحي صحيحة ، تسمى باللهجة الشعبية (العتبي) وقد فصلت بقنطرة مزينة.

زُينت سقوف القاعة بمقرنصات منقوشة وعوارض وألواح تزيينية بأسلوب العجمي ، وهو ذو قيمة هامة وتزيين معقد ، والجدران سُكِلت بالعناصر التالية: (الخرستينات) وهي خزائن للمنتجات الغذائية والأواني . (المكتبات) و(اليوك) - خزائن للملابس والفرشات والنقوش التزيينية للجدران ، يمكن الوصول إلى هذه الغرف عن طريق درج مخفي عبر باب سري يقود من غرفة النوم أو المطبخ أو الحمام ، هذا الباب مزين كخزانة سقف العتبة ، وهو منطقة الدخول إلى القاعة وذو ارتفاع كبير ، كانت فيه نوافذ على منسوب واحد مع الفناء الداخلي وأعلى من منسوبه بمقدار (٥، ١) م ، يمكن الوصول إليها عبر أدراج متناظرة.

الفسقية: نافورة صغيرة ، في منتصف العتبة لترطيب الهواء.

غطيت النوافذ السفلية عن الشمس وتوضعت في القاعة باتجاه الجنوب ، أما النوافذ العلوية فلم تُغط واستخدمت للإنارة.

المشكاة: كوة في الحائط للمصباح الكيروسي (الكاز) أو الشموع تقع على جدران الفناء الداخلي لإنارته.

وتوجد نماذج متعددة لغرف الضيوف (القاعات) في البيت الدمشقي يمكن تقسيمها إلى خمسة أنواع.

١ - القاعة: مستطيلة الشكل مكونة من فراغ واحد مع نافورة في المركز ، تقع على منسوب واحد مع الفناء الداخلي والمدخل ، وأحياناً على علو درجة واحدة ، مثال على هذا النوع بيت البارودي وبيت سعيد القوتلي.

٢ - القاعة المكونة من فراغ بمستويين . المدخل إلى القاعة مقابل العتبة دائماً أدنى مستوى من الفراغ السكني للطزر الموجودة دائماً على علو ، مثال قاعة بيت العظم وبيت شيرازي .

٣ - القاعة التي لها شكل (L) تكون فيها العتبة أدنى من التوزورين اللذين يقع أحدهما مقابل المدخل ، أما الثاني فهو على يمين المدخل ، مثال قاعة الحرم لك في بيت السباعي .

٤ - القاعة المكونة من منطقتين للراحة واقعيتين على يمين ويسار العتبة بشكل متناظر ، مثال بيت مجلد وبيت نيا دو .

٥ - القاعة المكونة من العتبة وثلاث مناطق للراحة على شكل حرف (T) ، مثال قاعة بيت جبيري وقصر العظم .

غرف النوم موزعة أساساً على الطابق الثاني بشكل متواز متجهة نحو الجنوب ، وهي منارة بنوافذ مطلة أحياناً على الرواق المقنطر . وفي الفترة الشتوية ينام الناس في الأعلى ، أما صيفاً فينامون في الأسفل حيث تكون الغرف باردة أكثر .

المطبخ: يقع في الطابق الأول على اتصال مباشر مع الفناء الداخلي بجوار البئر . يتكون المطبخ من العناصر التالية :

(الكانون) - مكان لإعداد الطعام مصنوع من الفخار .

(الأوجاء) - فراغ فوق الموقد يجمع الأشياء المحروقة .

(الشحوار) - (فتحة أمل) قنطرة تتركب فيها المدخنة .

يصل الماء إلى المطبخ من القاعة عبر خط أنابيب ، وعلى الأخص من نافورة الفستقية . بالقرب من المطبخ توجد غرفة (المونة) (بيت المونة) لتخزين المواد الغذائية والاحتياطية . كان هناك نوعان من المطابخ حسب شكلهما وموقعهما بالنسبة للضوء أو بالنسبة لمنسوب الفناء الداخلي كما في بيت مجلد والقوتلي .

النوع الأول: مستطيل الشكل ، متجه نحو الشمال الغربي وعلى منسوب
الفناء الداخلي ، كما في بيت الأسطواني

النوع الثاني: مربع الشكل ، يقع في جهة الجنوب ، وفي جهة الغرب ،
أدنى من منسوب الفناء الداخلي .

موقد المطبخ (الكانون) وقد يتكون من الأجزاء الأربعة الأساسية .

١ - الوجهة - واجهة أو مكان يوضع فيه الفحم .

٢ - فتحة الأمل - مكان عمل ، قنطرة حجرية على عرض الكانون .

٣ - الوجهة - مكان لجمع البخار والدخان .

٤ - المدخنة .

الحمامات:

عملياً لم تبين ؛ لأنها كانت بكميات كبيرة مبنية في المدينة ، ويمكن أن
نجدها فقط في أكثر القصور فخامة ، مثل الحمامات الموجودة في بيت شامية
ومردم بك وخالد العظم والبارودي . يتم تسخين المياه عن طريق الكانون
الموجود في المطبخ أو بالقرب من المطبخ .

يتكون الحمام من أربعة أجزاء :

١ - القسم الخارجي (طرز) مع قنطرة كبيرة :- (العتبة) مكسوة بالرخام وقبة
عالية ذات فتحات زجاجية . درجة الحرارة في هذا القسم طبيعية .

٢ - القسم الأوسط :- مكان معبر صغير يقع فيه المحراب وهو مكان
للصلاة .

٣ - القسم الداخلي :- يتكون من جزأين مفصولين بقنطرة ، توجد على
جدرانها أحواض للمياه الحارة والباردة ومكان للغطس .

٤ - القسم الأخير - الأمين - (الأميم) :- وهو مكان لتسخين المياه .

غرف المراحيض (دورة المياه):

طبقاً لموقع البيت واتجاه الرياح: شمالية غربية وغربية. كافة المراحيض متعامدة في جهة الجنوب، ذات قياس معماري واحد (١م - حتى ١,٢٠م) الماء المتدفق إلى غرف المراحيض يصل تحت الضغط، بلطت آلية الصرف الصحي بالحجر. السقف مغطى بجسر حديدي أو خشبي يسمى (درايزين) وعريشة مشبكة ذات زخرفة تشجيرية. أحياناً كانت توضع على السقف ما تسمى (طيارة) وهي من الخشب والزجاج. بُنيت إحدى جدران السقف بحيث تكون أعلى من مستوى الجدران الأخرى، واعتبرت طريقة للحماية من أعين الغرباء وخاصة الجيران. - أطلق على هذا الجدار تسمية (جدار مشارك).

احتوت الفناءات على الكثير من الخضرة والمزروعات التي كانت ضرورية ومخصصة لخلق مناخ مصغر، ولتزويد الغرف المطلة على الفناء الداخلي بالأكسجين، ونظراً للكثافة السكانية وكثافة المباني فإن الشوارع الشرقية وخاصة دمشق القديمة ضيقة وليست مخصصة لغرس المزروعات لذلك انتقلت المزروعات إلى داخل البيت؛ إلى فناءه الداخلي مشكلة (زاوية من الفردوس). حيث توجد هنا جميع أنواع أشجار الحمضيات والورود والياسمين والأكيديا وأنواع أخرى كثيرة.

ولقد ألهمت النباتات المهندسين المعماريين والفنانين عند تكوين الزخارف والنقوش في المباني.

الواجهات المطلة على الفناء الداخلي لقيت حلولاً مختلفة حسب جهتها. في الواجهة الأمامية وجد الليوان دائماً، مع قوس مقنطرة كبيرة من طابقين، وأحياناً يكون الليوان على مستوى أعلى من الفناء الداخلي (أرض الديار)، مع مدخل إلى قاعتين متناظرتين بالنسبة إليه. القوس المقنطر المتوج له مستند على عمودين بتاجين مزخرفين. وعلى الواجهتين الشرقية والغربية وجدت القاعة وغرف لسكان البيت.



اعتبرت نوافذ واجهات الفناءات الداخلية عنصراً معمارياً ذا أسلوب خاص وشكل خاص ووظائف متعددة مثل :

- ١ - الإنارة .
- ٢ - الوقاية من حر الصيف .
- ٣ - تجديد الهواء والمحافظة على الرطوبة .
- ٤ - دخول أشعة الشمس شتاءً - رفع درجة الحرارة داخل الغرف .
- ٥ - عزل البرودة الشتوية .

أثرت النوافذ على النظام الحراري للغرف ، واستخدمت المشربيات ودرف النوافذ التي خففت من تأثير الأشعة الشمسية ، حيث كانت عالية في الطابق الأول ومطلّة على الفناء الداخلي . وعملت بصرياً على زيادة ارتفاع المبنى وهي مزودة غالباً بمشربيات مخرّمة ونوافذ زجاجية ملونة . كانت نوافذ الطابق الثاني أصغر قياساً في العهد العثماني ، وفي فترات لاحقة زادت أبعادها . عملياً لم تطل النوافذ على الشارع . إنما أحياناً جعلوا نوافذ صغيرة فوق فتحة الباب بقصد الإنارة .

ثلاثة أنواع من النوافذ :

نافذة وظيفية (مستطيلة الشكل) . و نافذة وظيفية تزيينية (مقوسة) أو نافذة تزيينية فقط (ذات أشكال متعددة) .

يمكن تقسيم النوافذ إلى أربع مجموعات :

١ - النوافذ الخارجية المطلّة على الشارع (الحارة) - كانت ذات أبعاد صغيرة واستخدمت إنارة الغرف الثانوية . غُطيت بشبكة من القضبان الخشبية . وداخل الشبكة زجاج وقضبان معدنية للسلامة .

٢ - النوافذ الداخلية (عالية ومنخفضة) .

- نوافذ عالية استخدمت للإنارة والتهوية .

- نوافذ منخفضة استخدمت للإنارة والتهوية والمراقبة ، مطلّة على الفناء الداخلي ، تُغلق بقضبان متصّالة معدنية أو خشبية مزينة بنقوش متعددة .

٣ - نوافذ القبو التي تقع قرب أرضية الفناء الداخلي ، واستخدمت للإنارة الحمامات والغرف الثانوية مثل غرف المونة .

٤ - غرف القمرية وهي نوافذ صغيرة في الجدار تقع فوق الباب أو النوافذ تعمل على إنارة غرفة الليوان ، وهي على شكل القمر أو بيضوية الشكل ، تغطى أحياناً بزجاج ملون ، وجدت بجانبها نوافذ أخرى (مرمايا) وهي نوافذ صغيرة من الجص في إطار خشبي فوق باب المدخل ؛ لاستخدامها من قبل أصحاب البيت لأغراض مختلفة .



نموذج لشربية شحرية في سوق الصاغة
(بعدسة المؤلف عام ١٩٩٦م)



شربية بلا شحريات في حي الكلاسة
(بعدسة المؤلف عام ١٩٩٦م)

كما نرى فإن النوافذ كانت عنصراً معمارياً جوهرياً تُغلق بشباك منقوشة من المرمر الأبيض أو الخشب. وكونت النوافذ الشبكية أثراً ضوئياً رائعاً في الغرف. فتحات النوافذ بحد ذاتها سواء الأحادية أو المزدوجة غُطيت بأقواس متعددة الأنواع. زُينت درف النوافذ بنقوش على الخشب بزخارف هندسية باللون الأحمر والبني والأصفر والبرتقالي، ومثل هذا الأسلوب التزييني استخدم في تشكيل الخزائن المبنية في الجدران.

النوافير: وجد الماء في البيوت الدمشقية كافة ونجد أحياناً عدة نوافير في فناء واحد. سطح الماء الهادئ للنافورة لم يرطب الهواء فحسب بل عكس كالمراة واجهات البيت المحيطة. توجد النوافير بالقرب من اللوان. الوظيفة الرئيسية للنافورة تتجلى في ترطيب الهواء.

كانت النوافير ذات أشكال هندسية متعددة : بدأً من الأشكال الهندسية حتى الدائرية . النوافير مثمثة الزوايا نجدها في بعض البيوت أما النوافير بيضوية الشكل فنجدها في البعض الآخر . بيت البارودي وبيت مجلد وبيت القوتلي .

الفسقية (بركة ماء) - نافورة صغيرة داخل القاعة ، صغيرة الأبعاد بقطر (١م) . يمكن رفعها أو تكون على منسوب أدنى من منسوب العتبة ، تكسى الفسقية بالرخام والفسيفساء الرخامية أو الفخار المرشوش . مكان وجودها في القاعة هو وسط العتبة . هذه النوافير والفسقيات أعطت الرطوبة والصوت العذب لخير المياه مما أضفى على البيت سحراً خاصاً .



الأعمدة: أعمدة شاقولية داعمة للسقوف والجدران والأروقة المقنطرة والشرفات ، يمكن أن يكون لها أشكال مختلفة: المربعة والدائرية والمستطيلة ونصف الدائرية . يتكون العמוד من الساق وتاج العמוד والقاعدة .



تعدد أشكال الأعمدة:

- عامود مثنى الزوايا ، التاج (ناقوسي) والقاعدة مشطوفة .
- عامود مثنى الزوايا، تاج ذو مقرنصات من طوق واحد .
- عامود مثنى الزوايا ، تاج العامود من مقرنصات ذات حوضين وقاعدة مثنى الزوايا .
- عامود مثنى الزوايا ، تاج العامود (ناقوسياً) القاعدة مزاحة من الناقوسية ومن مثنى الزوايا .
- عامود دائري ، تاج العامود ، (ناقوسياً) أما القاعدة ناقوسية ودائرية .
- العامود دائري ، تاج العامود - أندلسي .
- عامود دائري ، تاج العامود - ناقوسياً مع مقرنصات كبيرة ، القاعدة - ناقوسية مبسطة .

الأقواس:

وهي عنصر معماري يقوم أساساً على نصف دائرة ويستند إلى نقطتين . صممت الأقواس اعتماداً على الأعمدة الحجرية لسبيين : توزيع ثقل السقف أو قمة السقف . وبالتالي إضفاء جمالية على الصرح المعماري . القوس كلمة من أصل لاتيني يمكن أن يكون على شكل خط مُنْحَن أو نصف دائري أو رمحي . جسر للفتحات في الجدار أو مد جسور ما بين الدعائم ، على سبيل المثال الأعمدة . . . إن تعدد أشكال الأقواس في تطور فن العمارة اكتسب أهمية إنشائية إضافة إلى الأهمية التزيينية ، فأصبحت عنصراً زخرفياً ودلائل مميزة لهذا الأسلوب الفني . هنالك حوالي عشرة أنواع من الأقواس التي استخدمت في البيوت الدمشقية .

- قوس على شكل حذوة ، مع مركز واحد أعلى من نقاط الاستناد إلى شكل بيضوي أكثر منه إلى شكل نصف دائري .

- قوس مزدوج (مع نقطتين) لكن له نهاية رمحية .

- القوس (فصص) مع أنصاف دوائر صغيرة في الداخل ، نصف دائري .

- قوس من خمسة أجزاء (مكون من خمسة أجزاء متماثلة لعرض القوس وتشكل مركزاً للدائرة) .

- قوس من ثلاثة أجزاء (مكون من ثلاثة أنصاف دوائر ، بحيث نصف الدائرة المركزي رمحي الشكل) .

- قوس بصليبي الشكل .

- القوس المدبب - مكون من جزأين متوازيين ومنحنيين متصلين في نقطة واحدة .

- القوس البيضوي ذو الطرف الحاد ، كما في النموذج السابق يعتمد أساساً على دائرة مع مركزين .

- القوس المركب - مكون من قوس داخلي وقوس خارجي ، يوجد في القوس الخارجي مركز واحد ، أما في القوس الداخلي فهناك دائرة بثلاثة مراكز .

الأروقة المقنطرة كان لها قيمة وظيفية وتزيينية هامة في البيوت الدمشقية .
وسبق أن استخدمت في تخطيط البيت الدمشقي حتى في العهد الروماني -
البيزنطي ، عندما كان المبنى السكني موجهاً نحو الداخل ، لم تحل المشاكل
الإنشائية فقط عن طريق استخدام الأروقة المقنطرة ، بل حمت المباني السكنية
من سقوط الأشعة الشمسية فيها كما أن لها وظيفة تزيينية ، فكلمة القوس المقنطر
من الفرنسية (Arcade) وتعني صفّاً من الأقواس التي تستند إلى أعمدة في
العمارة الرومانية القديمة .



الأدراج: استخدمت في البيوت الدمشقية في أماكن مختلفة لربط العناصر
المعمارية .

- للصعود إلى الطابق الثاني .

- للصعود إلى السقف .

- للنزول إلى الطابق الأرضي .

- للصعود إلى القاعة التي يكون منسوبها أعلى من منسوب الفناء الداخلي .

في دمشق استخدم المكان الكائن تحت الدرج كمكان إضافي مساعد .

في البيوت السكنية المكونة من طابقين غالباً ما يبرز الطابق العلوي باتجاه الشارع بمقدار متر تقريباً ليأخذ شكل بروزات ناتئة (مستطيلة الشكل ونصف مثمثة الأضلاع) سميت (المشربية) شبكة خشبية تستخدم بمثابة نافذة خشبية شبكية للنساء في فترة العمارة العربية (الإسلامية) . النافذة هي عبارة عن شبكة من شرائح خشبية مرتبة بزاوية قائمة أو بزاوية (٤٥) درجة .

استخدم هذا الأسلوب في بداية الأمر في عهد الفاطميين (المصريين الذين وصلوا إلى الحكم بعد العباسيين) كي تتمكن المرأة من مراقبة ما يدور في الشارع أو في فناء البيت ، وفي الوقت ذاته ؛ كي لا يتمكن أحد من رؤيتها .

وهذا الأسلوب كان مستعملاً بشكل واسع في عهود لاحقة من العمارة الدمشقية في العهد العثماني ، فانتشرت في الطابق الثاني الشرفات الخشبية الشبكية ذات الشكل المتموج ، الكائنة في مكان قريب من المطبخ ، وتلعب دور البرادات الطبيعية أو وسيلة لحفظ المنتجات .

في هذه ظهر أسلوب ربط مبنيين يقع أحدهما مقابل الآخر بغرفة تلعب دور قوس شارعي - سمي هذا الأسلوب (سيباطاً) - هناك أسلوب آخر للأجزاء البارزة من الطابق الثاني للبيت الدمشقي ، وهو البلكون البارز مستطيل الشكل أو مثلثي الشكل ، الذي يستند إلى عوارض سقفية حاملة ويطلق عليه اسم (رواشان) . وقد لقي انتشاراً واسعاً . أحياناً كانت البلاكين مستندة إلى دعائم (كبوليات) ، ذات أشكال مختلفة وهي مادة البناء المحلية والوحدات الإنشائية للبيت الدمشقي .



إن موقع دمشق في منطقة الغوطة الغنية بالخضرة اقتضى استخدام مواد بناء معينة. فالإسمنت لم يكن معروفاً في تلك الفترة ، لذلك استخدم البناؤون الدمشقيون مواد بناء محلية وجدت في هذه المنطقة مثل (الصلصال الأرضي) و(حور الجدول). كانت التربة مادة البناء الأساسية مع إدخال الخشب للجسور السقفية ودعائم الجدران .

وكما ذكرنا كان الطين بمثابة المادة الأولية الأساسية للبيت الدمشقي ، حيث كانوا يحصلون عليه من مجرى نهر بردى ، ومن الطين يصنع طوب البناء . غالباً ما استخدمت الأحجار الرخامية متعددة الأنواع إلى جانب الطين كمادة

بناء ، حيث شيدت منه جدران الطابق الأول في العهد العثماني ، وبنتيجة الحاجة لتوفير الأمان من مبتزّي الأموال من الطبقة الحاكمة زادوا من علو المباني . فالإنسان سعى في هذا العهد إلى العزلة والاختفاء وحوّل المواطنون منازلهم إلى قلاع .

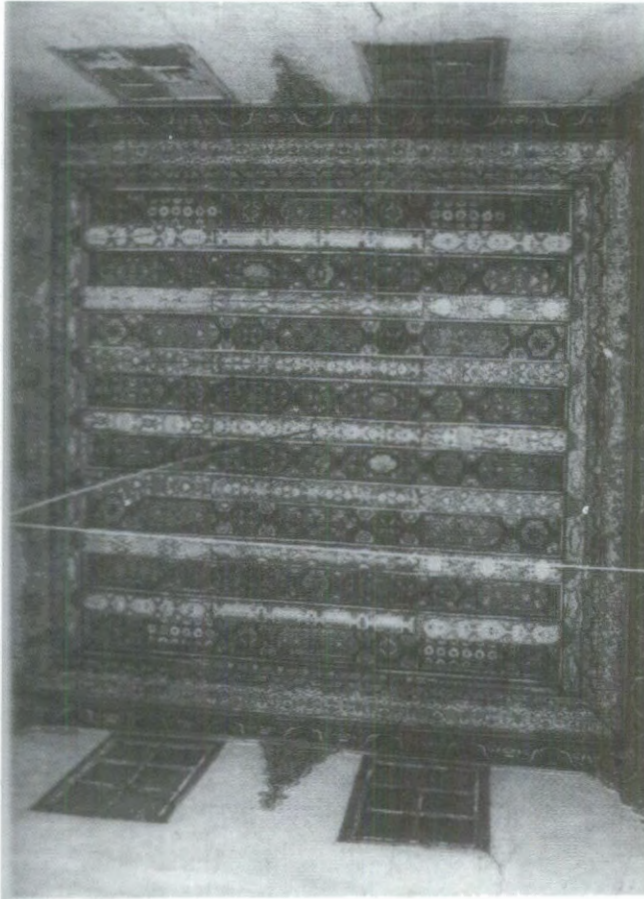
السقوف: غُطّيت سقوف البيوت ذات أساليب البناء المختلفة بالخشب . وهذا ما كان سمة بارزة للبلدان ذات المناخ الجاف . خشب الحور هو أكثر أنواع الخشب المستعمل فهو شائع ومتوافر بكثرة في منطقة الغوطة .

فالجدران بنيت على الأغلب من الحجر على مستوى الطابق الأول حيث المكان رطب ، وبلغت سماكة الجدار من (٦٠ إلى ١٠٠ سم) ، أما الطوابق العلوية فيمكن أن تكون مبنية من الطوب مع إضافة خشب التوت أو الحور المتوافرين بكثرة . وجدران الطابق الثاني عبارة عن هيكل خشبي يملؤه الطوب الذي يوضع بزاوية (٤٥) درجة ، أما سماكة هذه الجدران فهي أقل حيث تبلغ (٤٠ - ٦٠ سم) ، وتغطي الجدران بوسيط يدعى (زريقة) مكون من حجر الكلس والذرق (روث الحمام) والتبن المغطى بمواد مختلفة .

ويوجد نوعان من البناء الحجري عند إشادة الطابق الأول من المباني السكنية الدمشقية .

النوع الأول: البناء بالطوب (الأساسات من الحجر البازلتي يوضع فوقها الطوب المغطى بطبقة زخرفية جصية) .

أما النوع الثاني: التغطية بالواح الخشب مع التعبئة بالحجارة الممزوجة بالطين على أساس بازلتي . أطلت على الشارع جدران مصمتة مغطاة بالزخرفة الجصية على أساس حجري بازلتي (١٥x٢٥سم) ، وبغية الوقاية من الحر جعلت السقوف عالية ، وهذا في الوقت ذاته أثر على رطوبة الغرف ، لذلك استخدمت النوافير . سقوف مسطحة من العوارض الخشبية غطيت بطبقة طينية لدى الناس البسطاء . أما بيوت الأثرياء السكنية فقد كسيت بشكل فخم واستخدمت زخرفة العوارض الخشبية للسقوف .



ب- سقف القاعة الشتوية في بيت الدحاح (رقم ٤-٧١)

هناك أربع طرائق لبناء الجدران:

١ - طريقة اللبن:

إشادة المبنى من الطوب المكون من مزيج التبن مع الطين ، وهذا المزيج يصب في قوالب (٣٠ × ١٥ × ٨ سم / ٣٠ × ٣٠ × ٨ سم) ، ثم يجفف في الهواء تحت أشعة الشمس حتى درجة التصلب . ثم ترصف الحجارة التي تشكل الأساس وعليها يصف الطوب على محلول طيني ، وتُطَيَّن الجدران من الخارج بمزيج من التبن والطين والجص . هذه الطريقة في البناء استخدمتها الطبقات الفقيرة من السكان .

٢ - طريقة الهيكل الخشبي :

استخدمت هذه الطريقة عند بناء بيوت من طابقين .
جرى البناء بأسلوبيين : في البداية يتم تركيب الهيكل الخشبي المكون من عوارض خشبية مقصوصة ، بعدها يحشى الهيكل بالطوب . ويغطى الجدار بطبقة عازلة تقي من المطر .

٣ - طريقة الدك :

يقص لوحان بقياس (١٧٠x٩٠سم) على مسافة (٥٠سم) ، وعلى الجوانب تربط بألواح صغيرة تأخذ شكل قالب مفتوح من الأعلى ومركب على الأرض . في هذا القالب يصب مزيج من الطين والحجارة الممزوجة بالماء . بعدها يضغط هذا المزيج وبذلك يبنى الجدار تدريجياً .

٤ - طريقة الحجارة :

هذه الطريقة أقل شيوعاً من الطريقة الطينية ، حيث تصف الحجارة مع محلول رابط . تبلغ سماكة الجدار (٦٠ - ٩٠سم) وفي هذه الحالة يكون الجانب الخارجي من الجدار أكثر جمالية من الجانب الداخلي ، ويعزز الجدار من الأعلى بعارضة خشبية .

المباني التي شيدت بهذه الطريقة أكثر قدماً وهي محافظة بشكل جيد على وضعها . في بناء مثل هذا البيت استخدمت حجارة ذات مقاسات وأنواع مختلفة ، فهناك الحجارة البازلتية والبركانية والبيضاء الكلسية .

بعد بناء الجدران يركب السقف بالتسلسل التالي :

يوضع عامود ثخين يسمى الجسر ما بين الجدران ، ونضع عليه عوارض خشبية قياس (٢٠ حتى ٣٠سم) بزاوية قائمة تجاه الجدار المقابل ، وغالباً ما تكون هذه العوارض بقياس (٦ - ٨) م مع فسحة فيما بينها بمقدار (٧٠/٥٥سم) .

ترصف على العوارض ألواح خشبية تسمى (الطبق) ، يردم الطبق بالتراب الممزوج بالماء ، وفوق ذلك كله توضع الحصى الكبيرة والصغيرة ثم يدك

المزيج ، وبالنسبة نحصل على طبقة بسماكة (٢٠ - ٣٠ سم).

يطلى السقف من الأعلى بالطين للحماية من المطر والشمس .

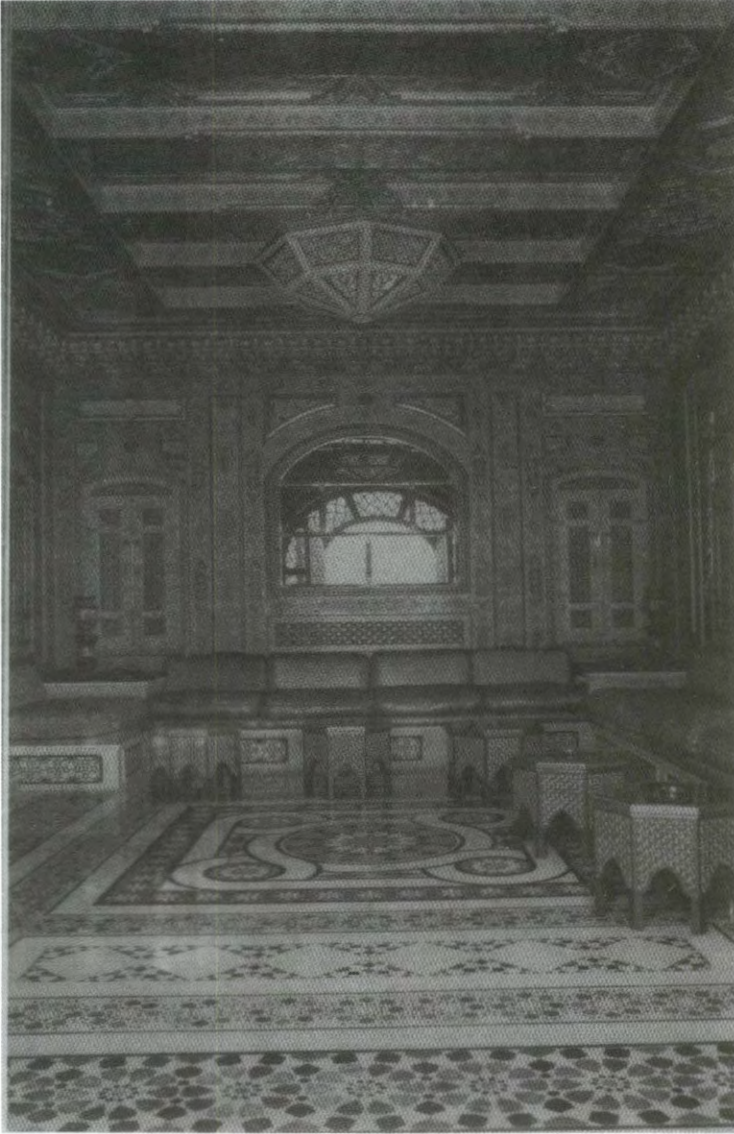
وهذه تشكل طبقة عازلة يطلق عليها (زريق) ، ويعتبر الميلان شرطاً ضرورياً للسقف للتخلص من الرطوبة ، ولهذا السبب تحديداً يبرز السقف خارج الجدران لمسافة (٤٠ - ٥٠ سم). في بيوت الأثرياء استخدمت الأروقة المقنطرة المستندة إلى الأعمدة .

الأرضيات:

تكونت من عدة طبقات: طبقة البلاطات الرخامية الفسيفسائية (٢٠x٢٠ سم) ، توجد تحتها مادة رابطة بسماكة (٣ سم) ، بعدها طبقة من الرمل والتربة والحصى بسماكة (٧ سم) وتراب أو طين بسماكة (٢٠ سم).

أما إذا كانت التغطية ما بين طابقين توضع تحت التربة قضبان تثبيت سماكة (١ سم) ، بعدها ألواح خشبية بسماكة (٢ سم) وعوارض طولانية ومستعرضة بسماكة (١٥ و ٢٠ سم). المبنى في هذه الفترة كان مداراً نحو الداخل . كانت جدران الطابق الثاني مكونة من عوارض خشبية بعرض (١٠ سم) تشكل هيكلًا من العوارض الواقفة والمائلة ، التي تحشى بالطوب وعازل للحرارة بسماكة (٥ ، ١ سم) وطبقة طلاء طيني بمقدار (١ سم).

جميع البروزات الممكنة للجدار الخارجي (المشربية أو الرواشان) أعطت الظل و حافظت على مناخ مصغر داخل الغرف .



المشربية مكونة من قسمين علوي وسفلي :

القسم السفلي ذو فتحات صغيرة؛ كي لا يتم رؤية أي شيء من الشارع ،
أما القسم العلوي فهو مخصص لعبور الهواء ، حيث الشبكة الخشبية ذات
فتحات كبيرة القياس .

يكون من عوارض طولانية ومستعرضة أبعادها (٢٠ / ١٥ سم) بعدها روابط شد خشبية قياس (٣ سم) ، وظهارة داعمة سماكة (١ سم) وردميات من الطين بسماكة (٢٠ سم). السقوف في العهدين العربي والعثماني كانت خشبية مغطاة بزخارف (العجمي). منشأ هذه الكلمة من (أجانب) وتعني: الغريب ومن دين آخر ، وهي عبارة عن عجينة من الجص مع مادة رابطة ، تنجز بها رسومات محدبة على سطوح خشبية ، ثم تلون ، فيما بعد غطيت السقوف بالقماش وأحياناً مع حواشٍ زجاجية .

في البداية كان الباب الخارجي في العهد العثماني والعهود السابقة له صغير الحجم لسببين ، أولهما توفير السلامة وهذا طقس من نوع خاص: حيث إنه على الزائر قبل الدخول حني رأسه مقدماً واجب الاحترام لصاحب البيت .

وهذا ما فسر عبر سلسلة من التأويلات الفلسفية . يفتح الباب نحو الداخل ، وهو مصنوع من خشب الزيتون ، مع تقطيعات بالمعدن والنحاس في بعض الأحيان (براغي ومسامير تقليدية) .

كما استخدمت أحياناً الأبواب المعدنية . ويفتح الباب يصل الزائر إلى فراغ توزيع كبير أو إلى ممر مقوس صغير يسمى الدهليز ، وبعدها إلى الفناء المركزي (أرض الديار) ، وخضعت أبواب البيت الدمشقي التقليدي إلى تحولات من حيث الشكل والمادة والارتفاع والتشكيل التزييني .

في أوج الحكم العثماني لزدادت أبعاد أبواب القصور والمباني السكنية من حيث الارتفاع والعرض . وتوجد أنماط متعددة من الأبواب . الأبواب الداخلية شبيهة بالأبواب الخارجية ، لكنها ليست عالية؛ كي تحمي الغرف من الحر والبرودة . والمواد التي بنيت منها النوافير - عبارة عن الطوب المشوي المكسو بالرخام والحجر البازلتي الأسود ، والفسيفساء الحجرية الملونة . يصل الماء إلى النافورة من كأس فخارية أو حجرية مزخرفة ، أو من مكعب رخامي مزخرف في منتصف النافورة يصل الماء عبر خط أنابيب ممدود تحت الأرض

بضغط معين . المواد المستخدمة لخط الأنابيب هي الصلصال الذي يتميز بعمره المديد وقدرته على التحمل في الاستخدام . وبعدها تملأ النافورة يمكن للماء الجريان عبر قناة خاصة إلى نافورة أخرى أو إلى أحواض الزهور ، أو لاستخدامه لاحقاً في المطبخ والمنفعات ، ثم يحول إلى أقنية الصرف الصحي . تراوحت أبعاد النوافير من (٣ حتى ٦ م) بعمق من (٥٠ حتى ٦٠ سم) .

الأدراج:

كانت عبارة عن أدراج خارجية وداخلية ، كما كانت مشتركة خارجية مع الداخلية .

- مواد بناء الأدراج :

الحجر : كما في بيت البارودي .

الحجر المعالج : كما في بيت حسن الخراط

الخشب : كما في بيت حسن الخراط .

الحجر - مديد الدرج الأول ، والخشب - مديد الدرج الثاني كما في بيت عقاد .

صنعت شبكات الدرج (الدرابزين) من

١ - المعدن - كما في بيت عقاد .

٢ - الخشب - كما في بيت حسن الخراط .

أبعاد درجات الدرج : الارتفاع (٢٤سم) الأفقي من الدرجة (٥ ، ٢٨) سم .

مواد الإكساء وعناصر الديكور وطرق الإكساء المستخدمة في البيت الدمشقي لمدينة دمشق .

في عهد الإمبراطورية العثمانية تعرضت العمارة والفن التزييني والحرف الفنية في سوريا لتغييرات جسيمة تحت تأثير الأسلوب التركي الذي روجت له الدولة . حيث تركز الديكور الداخلي للقصور والبيوت السكنية للمواطنين

الأثرياء من حيث مواد الإكساء والمستوى الرفيع للمعالجة الفنية للعناصر والتزيينات الفنية.

تشكيل جدران البيوت في العهد العثماني كان بأسلوب (الأبلق) مع تراكيب لونية متعددة: الأبيض والأسود والأحمر والأصفر. بحواشٍ فسيفسائية نصف دائرية فوق النوافذ والأبواب.

الوسائل التزيينية الأساسية مرتبطة بمعالجة وتزيين الجدران ، التي بالإجمال تحافظ على سطحها المستوي دون وجود تجعيدات بارزة. توجد فقط ريش شاقولية وأفقية ، وإفريزات وحواف قليلة البروز. ولمعالجة الجدار استخدمت فكرة القوس المستوي.

العلامة البارزة في العمارة الدمشقية في العهد العثماني تجلت في الجدران (المقلمة) ، وتتابع الحجر الملون (الأبلق) على واجهات المباني ، وفي الديكورات الداخلية. وتجلّى التركيب اللوني في تتالي الأبيض والأسود. (وأحياناً الأصفر الفاتح) والأحمر - كانت هذه الألوان السائدة في العهد العثماني.

سطح الجدار في جزئه السفلي كان عبارة عن لوح مغطى بزخارف دقيقة ، نظراً إلى أن الدين الإسلامي يحرم تمثيل أو تصوير الإنسان. الزخرفة المستخدمة من قبل العرب والتي يطلق عليها عادة (الأرابيسك). عُرِفَت دمشق عبر تاريخها الحضاري بأنها موئل لأنواع عديدة من الفنون الشرقية ، بل إن كثيراً من الفنون والأعمال اليدوية الإبداعية تعرف بالدمشقية؛ للتأكيد على أصالتها وعراقتها الفنية.

فن الأرابيسك فن معبر عن الأصالة والجمال ، وتجلت مهارة الفنان الدمشقي بابتكار الأشكال والزخارف والنقوش في أعماله ، واستخدمها ببراعة فائقة في العمارة والتزيينات الداخلية خاصة في البيوت الدمشقية ، التي زينها بالرسوم النباتية والأشكال الهندسية ، ولوحات الخط العربي ، إن فن (الأرابيسك) هو واحد من الفنون الإسلامية ، ذات الطابع المستقل ، الذي

يشكل منظومة رائعة يتألق فيها الحس . فهو جمال يدعو الإنسان إلى التأمل ويقوده إلى التفكير في تركيبه ، ويشعره بالقيمة الحياتية لعناصر هذا الفن المستمدة من الطبيعة ، استخرجها الصانعون وتفننوا في صياغة معالمها ونقوشها على الجدران والنوافذ والأبواب ، ليعبر هذا الفن عن روح الأصالة ، هذه الأصالة التي تدفع محبيه ومريديه للبحث عن أجمل نقوشه في أقدم الأحياء الشعبية في دمشق ، التي حملت الطابع الشرقي والإسلامي لهذا الفن في تزيين أثاثها وبيوتها وقصورها ، مكونة من مواضيع تزيينية متداخلة على شكل شبكة ذات طابع هندسي وتزييني نباتي ، مع إضافة عنصر الخط العربي كجزء لا يتجزأ إلى جمل من القرآن الكريم على الإفريزات والحواف والألواح والإطارات التزيينية .

أول من استخدم أسلوب (الأرابيسك) كان بتنفيذ خشبي لتزيين الأبواب ومصاريع النوافذ والسقوف . بعدها أصبحت التزيينات الهندسية بالأرابيسك تنفذ ليس فقط بالخشب بل بالرخام أو الجص .

زينت الواجهات الداخلية بزخرفة أكثر من الواجهات الخارجية . كانت أبعاد النوافذ كبيرة وأغلقت بدرف . نوافذ الطابق الثاني للواجهات الشمالية والغربية والشرقية كانت أصغر قياساً ، لكنها كثيرة العدد . فقد غطوا ثلثي الجدار بألواح خشبية مع خزن ومكتبات . وأحياناً زينت الجدران بالرخام الملون والفسيفساء .

تميزت طريقتان لتزيين الواجهات الداخلية : العلوية والسفلية . السفلية (مداميك) حتى مستوى الباب - بناء حجري «الأبلق» ، أما العلوية فنقوش وزخارف فوق النافذة والباب . الحزام العلوي للزخرفة التزيينية يبدأ من فوق الأبواب حتى السقف ويغطي بالجص الأبيض ، النوافذ على بعد واحد ولا تزيد عن (٩٠) سم يتم أحياناً تشكيل زوايا وكرانش .



الأعمدة:

استخدمت لتزيين البيوت عملياً في كافة العهود التاريخية ومما لا جدال فيه أهمية الأعمدة في العهود الهلنستية والرومانية البيزنطية .

في العهد الإسلامي استخدمت سلالة الأمويين أنواع الأعمدة الرومانية - البيزنطية لتزيين البيوت الدمشقية السكنية والمباني العامة ، فالمماليك قاموا بزخرفتها وتغطيتها برسوم ، أما أشكال الأعمدة فقد اكتسبت الملامح التالية :

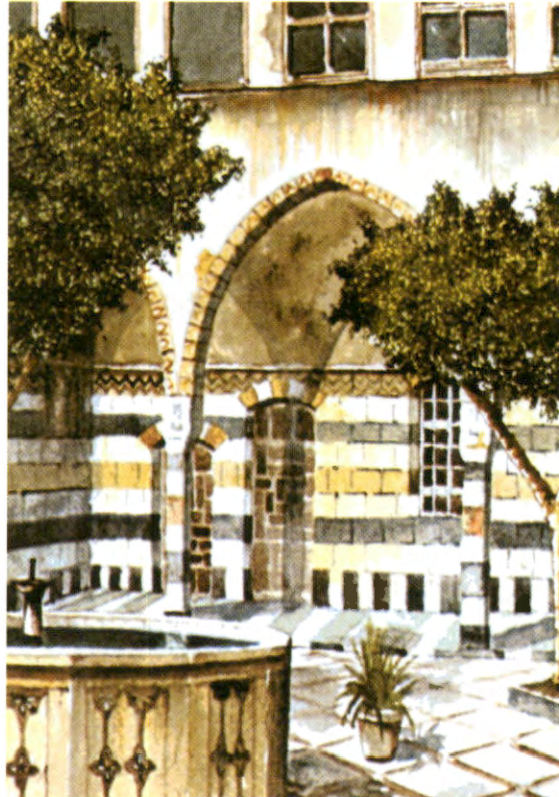
الأسطوانة والحلزون ومثلث الزوايا والمربع أو المستطيل ، بنيت الأعمدة من الرخام والحجر ولبست بالجص والترايع والذهب . تعرضت تيجان الأعمدة إلى تغييرات في الشكل بدءاً من العهود الإغريقية - الرومانية حتى العهد الإسلامي ، حيث استخدمت الكتابات العربية وآيات من القرآن الكريم وسطور من الشعر .

في عهد الأيوبيين ظهرت التيجان المقرنصة ، وفي العهود الإسلامية الأخرى استمرت تيجان الأعمدة بالتطور ، وظهرت التيجان البصلية والناقوسية المزينة بأوراق نباتية .

في العهد العثماني ظهرت تزيينات بزخارف هندسية : مثلثات ومتعددات الزوايا علاوة على السطوح الملساء . لكن يبقى جزء من العمود أملساً أيضاً . أضاف البنّاؤون الحشوات الخشبية ما بين التيجان والأقواس لتفادي الدمار عند حصول الزلازل .

قسمت الأقواس المقرنصة إلى ثلاثة أنواع :

- ١ - المقرنصات داخل القوس الرمحي .
- ٢ - المقرنصات داخل القوس المكون من خمسة أجزاء .
- ٣ - المقرنصات المعلقة .



المدافئ:

بنيت من الطوب ولُبست بألواح أو ترابيع رخامية تشكل التنفيذ المخروطي للمدفأة من حجر مقصوص كما هو الحال في قصر العظم.

المضياف:

وهو عبارة عن أسطوانة خشبية بارتفاع (٦٠سم) ، يقع المضياف ما بين الحرملك و السلمك ؛ كي لا يرى أحد من يخدم . مثال على هذا المضياف نجده في بيت خالد العظم الواقع في حي ساروجة .

الأرضيات:

زينت أرضيات البيوت الدمشقية في العهدين العربي والعثماني من خلال التبليط الرخامي والحجري مع شكل هندسي ، واستخدام متعدد لأشكال الحجارة التالية :

البازلت (١٢) ، السماق - الموزاييك الأحمر - الجيري الأبيض - أو الرخام الملون - كان من المهم المزج اللوني وكان لدرجات اللون الفاتحة والغامقة وظائف مختلفة لامتناع الضوء وعكسه . شكلت أرضيات البيوت التي جمعت من الرخام والحجر الأسود والأحمر - البني لوحة هندسية فريدة في إطار من الحجر (متوسط أبعاد البلاطات (٣٥ × ٣٠ م).

أرضيات البيوت الدمشقية شبيهة ببعضها البعض ، حيث وزعت الحرارة بشكل رائع في الفناء الداخلي ، مشكلة مناخاً مناسباً للإقامة فيه . البازلت كالشفة يمتص الأشعة الشمسية أما الرخام الأبيض فيعكسها ، وبالنسبة للحجر الأحمر - البني فإنه يوزع الحرارة بانتظام . وبذلك يحصل توازن حراري . يمكن بكل بساطة ربط المواد المستخدمة في تبليط الأرضيات بزمان التبليط وبوجود هذه أو تلك المادة ، وبذلك يمكن تحديد تاريخ التبليط ، على سبيل المثال ، ولو وجدنا حجر (السماق) و(المزي) ، فهذا يدل على أن البيت قديم ، أما إذا وجد البازلت والرخام الملون ، فهذا يدل على أن البيت قد بني في فترة لاحقة .

السقوف المستندة على الأعمدة - هذا أقدم طراز لتغطية المباني وأجملها ، ويعتبر أحد أهم العناصر المعمارية .

زينت السقوف في بيوت الأثرياء بألواح وعوارض خشبية رائعة جداً مزخرفة بأسلوب العجمي . وعند ذلك استخدمت الزخرفة الهندسية والنباتية ، وأحياناً مع كتابات بخط جميل مأخوذة من آيات من القرآن الكريم . تم تشكيل الزوايا الرابطة للسقف مع الجدار بمقرنصات أو زينت بما يسمى (السراويل) الذي يربط الجدار بالسقف .

أقدم بيت دمشقي زينت سقوفه بهذا الأسلوب هو بيت (أحمد) ، فالأبواب والنوافذ زينت بشكل مزخرف فاخر ، فمن حيث التشكيل الخارجي تحدد الأبواب إلى أين مكان يتوجه الزائر . زينت النوافذ بإطارات خشبية وشباك معدني ، المواد المستخدمة عند تزيين البيت السكني الدمشقي التقليدي هي كما يلي :

الجص التزييني ، المرمر ، الخشب المقصوص ، الخزف الفسيفساء الزجاجي ، موزاييك من الرخام ، التصوير الجصي على الجدران ، الورق (المعجن) ، التطعيم بأنواع ثمينة من الخشب والعاج ، والصدف والخشب المنضد ، منتجات أنيقة من النحاس ، والجدران السميكّة التي دعمت السقف في البيوت الدمشقية وفرت الإمكانية لفتح النوافذ والخزن والنوافذ المحصورة واليوك وغيره .

المكتبة - خزانة في جدار القاعة . هناك نوعان من المكتبات :

المكتبات : المستخدمة في الحرم ملك وهي مفتوحة من الجانبين ذات أبواب زجاجية للأواني وغيرها .

المشكاة - كوة في الجدار يوضع فيها المصباح الزيتي للإنارة المسائية ، لها شكل نصف دائري أو هندسي ، وأحياناً تزين بالمقرنصات .



المحراب:

يقع أحياناً في عمق اللوان وأحياناً في داخل القاعة ، يشير إلى اتجاه القبلة للصلاة - وهو أحد العناصر المعمارية الإسلامية .

عناصر الديكور المستخدمة في البيوت السكنية الدمشقية: الخزن والمكتبات واليوك والمصعب والعناصر الزينية والأثاث .

الكتيبة هي أصغر من اليوك من حيث العمق والعرض أبعادها (٨٠×٩٠ سم) للكتب والزجاج والأواني وغيرها .

السلسبيل: نافورة جدارية داخل القاعة وخارجها مزينة بالرخام تقع في منتصف الجدار؛ لتوفر الرطوبة في الغرف أو في الفناء . زين السلسبيل بالآقواس والأعمدة التي استندت عليها تزيينات نصف دائرية ، مع مقرصنات ومصباح معلق للإنارة . زينت فيما بعد بعناصر خشبية وقطع رخامية مقصوفة .

في السلسبيل يجري الماء ببطء من الأعلى نحو الأسفل ولا يعمل فقط على ترطيب الجو ، بل يشكل حالة سكون وهدوء لصاحب البيت وضيوفه ، وأدى السلسبيل الوظيفة نفسها في الفناء .

الزخرفة:

استخدمت في البيوت الدمشقية التزيينات المنقوشة والمرسومة والمسكوكة والنافرة التي تغطي الجدران والسقوف والأرضيات والمفروشات ومواد الحياة

اليومية. من حيث كمية ونوعية التزيينات يمكن الحديث عن تكريس البناء المعماري لهذا العهد أو غيره من فن العمارة.

استخدمت ثلاثة أنواع من الزخرفة: الزخرفة الهندسية والنباتية والكتابية. تصوير البشر والحيوانات كان سائداً في زخارف البيوت الدمشقية قبل العهد الإسلامي ، حيث تم تحريم هذه التماثيل في العهد الاسلامي .

المواد المستخدمة في الزخرفة :

* الحجر - بأنواعه المختلفة من حيث التسمية واللون: البازلت الأسود ، الحجر الكلسي ذو اللون الكهرماني والأحمر والأصفر والأسود.

* الرخام - بأطيافه اللونية المختلفة: الأسود ، والأحمر الوردي ، والرمادي ، والأبيض .

* الخشب - الأنواع الأساسية: الجوز والسويد .

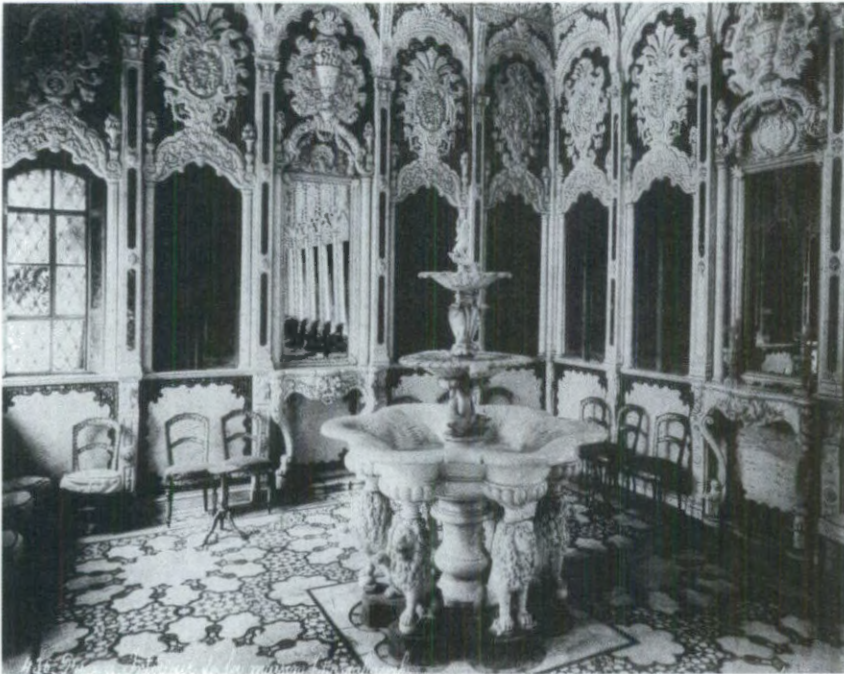
* الزجاج - الزجاج الملون المعشق للنوافذ .

* الفخار - هناك أنواع متعددة من الفخار المرشوش أو الطين المطلي بالأصبغة الصينية البراقة .



الزخرفة على الحجر والرخام:

- ١ - العناصر الهندسية الكبيرة (الدوائر ، المربعات ، المثلثات ، المستطيلات ، مسدسات الزوايا ومثلثات الزوايا وغيرها) والأشكال الهندسية النظامية وغير النظامية المتوضعة بترتيب معين .
- ٢ - زخرفة دقيقة هندسية سوية مع الخط العربي المستخدم في القصور الدمشقية ، اعتباراً من القرن السابع الميلادي حتى القرن الثامن عشر الميلادي .
- ٣ - عناصر الإكساء بالحجر الأبيض والأسود الذي لقي انتشاره الأول في عهد المماليك ، وقد أثر على أوروبا وخاصة إيطاليا أسلوب الأبلاك .
- ٤ - الأحزمة الزخرفية - وهي عبارة عن أقواس وألواح رخامية محيطة ، كما في القاعة المركزية لبيت السباعي ، التي نفذت بالزخرفة الهندسية التي تضم زخرفة نباتية في إيقاع هندسي أو في أحزمة متوازية ، وهذا الأسلوب قد انتشر في عهد الأيوبيين حتى العهد العثماني في القرن الثامن عشر الميلادي .



٥ - المقرنصات - وهي مزج معقد لمواضيع هندسية ، وهي واحدة من أجمل وأهم أنواع الزخرفة العربية التي استخدمت قبل القرن الثامن عشر الميلادي ، كما في القاعة المركزية لبيت السباعي وبيت نظام .

٦ - الزخرفة النباتية - وعلى الأغلب العناصر المعمارية المنقوشة والمطلية بمسحوق ذهبي ، ويمكن تقسيمها إلى جزأين :

* خيوط دقيقة مزينة بالورود ، وهي إحدى الأساليب الهامة ، كما في القاعة المركزية لبيت نظام .

* أوراق الأكتتا ، المجدولة على شكل لولب ، وبارزة تزين تيجان الأعمدة ، كما في القاعة المركزية لبيت نظام .

الزخرفة على الخشب :

* الحفر على الخشب (المحذب والمنقوش) ونجده بأنواع مختلفة وفي عناصر معمارية مختلفة .

* التركيب من أنواع خشب ثمينة .

* الإضافة وهي وصل الأجزاء الخشبية بعضها فوق بعضها الآخر ، وغالباً ما تكون مستطيلة الشكل كما في سقف بيت دحداح (بيت مردم بيك) .

* الإدهان - وهو عبارة عن زخرفة بالخشب أو بالمادة التي تثبت على الخشب ، والزخرفة بالجص المثبت على ألواح خشبية .



استخدام نماذج متعددة من الزخرفة :

- ١ - النقش .
- ٢ - الرسم .
- ٣ - التلوين .
- ٤ - الحفر .
- ٥ - التنزيل .
- ٦ - الرصف .
- ٧ - النحت .
- ٨ - الترسية .
- ٩ - التشبيك .

أنواع الزخرفة (التشكيل):

* الخط - وهو عبارة عن مزج العناصر الهندسية الخشبية المتوضعة بشكل متناظر ، والمتشظية واحدة من الأخرى من مسدس الأضلاع وثمانى الأضلاع مع الإضافة .

* المشقف - أجزاء صغيرة من مادة ما من ألواح رخامية صغيرة أو من الصدف والعاج ، تتوضع جنباً إلى جنب ، وتأخذ شكلاً مربعاً أو بيضوياً أو هندسياً ، وقد استخدمت في تشكيل نوافير الأرضيات والجدران .

* العجمى - زخرفة بالخشب المنقوش المغطى بعجينة جصية خاصة ، حيث استخدمت لتزيين الأبواب والسقوف والخزن ، صنعت عجينة العجمى من المواد التالية: مسحوق الزنك ، الجص ، السبيداج ، الغراء الأبيض ، وقد ظهر أسلوب العجمى لأول مرة في العهد العثمانى بدلاً من النقش على الخشب .

* الفسيفساء - عبارة عن قطع صغيرة من الحجر والرخام والخزف أو الزجاج تتوضع جنباً إلى جنب ، وقد استخدمت الفسيفساء للوحات الجدارية والأرضية ، وقد ظهرت في دمشق للمرة الأولى منذ العهد الرومانى - البيزنطى ، حيث استخدموا في العهد البيزنطى الخزف والزجاج ، وفي عهد الأمويين أضافوا قطعاً من الذهب ، وفي العهود الإسلامية اللاحقة نفذت الفسيفساء من الجص والخزف والصدف والزجاج .

* الأبلق - تتالى الحجر الملون(الأسود والأبيض والأحمر وكذلك الأسود والأصفر ، أو الأسود والأحمر - البنى). إيقاع أو توازن الحجر الملون قد قطع إيقاع النوافذ و الأبواب ، فاستخدام الحجر الملون المتتالى لم يتوقف على التطبيق الوظيفى ، حيث إن التتالى التزيينى للحجر الفاتح والغامق قد قلل بصرياً من سطح الجدار ، وشكلت الخطوط الأفقية المتوازية انطباعاً بأن الجدار ليس بعالٍ بل عريض .

* المقرنصات - أحد عناصر العمارة الإسلامية ، استخدم من عهد المماليك في المحراب وأمكنة الصلاة وفي تشكيل الزوايا ، وهي شبيهة بخلايا النحل ، تبدلت حسب المادة: الحجر أو الجص أو الرخام .

أنواع المقرنصات:

١ - المقرنصات ثنائية المركز .

٢ - المقرنصات ذات الزوايا الحادة .

٣ - المقرنصات المعقدة المكونة من قوسين .

*الأرابيسك: زخرفة نباتية وهندسية إسلامية . وهو عبارة عن مزج وتتالي الشبكات المعيارية للزخارف الهندسية أو النباتية .

توجد ثلاثة أنواع من الزخرفة:

١ - التسطير - وهو نوع بارز في الزخرفة الإسلامية ، يعتمد على الخطوط المستقيمة القائمة على تشابك المثلثات ومسدس الأضلاع ، في تمازج مع العناصر النباتية والكتابات بالخط الكوفي .

٢ - التوريق - نوع نباتي ، يعتمد على الخطوط المنحنية والمقوسة مع كتابات بالخط النسخي . ظهر أسلوب الأرابيسك في البيوت السكنية الدمشقية ، حيث استخدم في تزيين الأبواب وشبكات النوافذ والأثاث والجدران والسقوف ، هذا النوع من الديكور نجده في مثال بيت السباعي .

٣ - المعشق - فسيفساء من الزجاج الملون ، بزخرفة هندسية ونباتية ، يستخدم في زخرفة النوافذ والأبواب .

لقد سمح المعشق بدخول الأشعة ذات الألوان المتعددة إلى داخل الغرف والأماكن مشكلاً تفاعل ألوان عجيبة ، مثال على هذا الزجاج الملون نجده في النوافذ العلوية لبيت مجلد .

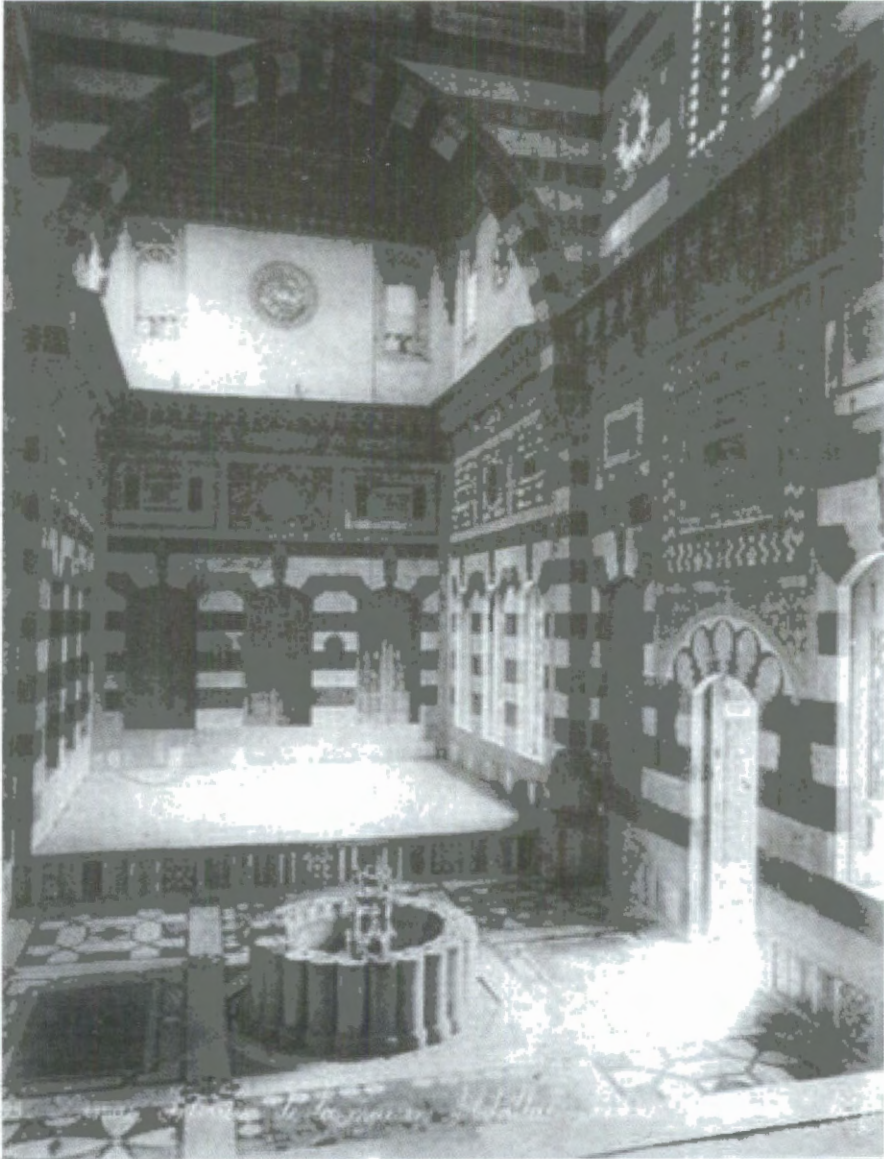
* العتبة - أرضية جزء المدخل إلى القاعة ، تنفذ من الرخام وفي وسطها الفسقية (نافورة صغيرة) .

- * الجدران الداخلية للقاعة - يمكن تقسيم تشكيل الجدران إلى ثلاثة أقسام :
- * الجدران الواقعة تحت النوافذ ، نفذت من الحجر والرخام أو بروزان منقوشة .
- * منتصف الجدار الكائن عند مستوى النوافذ حتى الكرنيش ، وقد زينت حسب المهمة الوظيفية للقاعة ، وهنا استخدمت زخارف من الأعمدة والمقرنصات والبلاطات الرخامية في إطار زخرفي .
- * الجزء العلوي من الجدار بدءاً من الكرنيش حتى السقف غُطي بمحلول كلسي ، وزُين أحياناً بتصوير جصي ومرايا وخشب منقوش . سقف القاعة - نفذ غالباً من الخشب . حيث زُينت العوارض الخشبية برسوم زخرفية ، كما زُين السقف الخشبي المعلق بزخرفة هندسية تمازجاً مع عناصر ديكورية هندسية وإدخال تراكيب زجاجية ، واستخدمت المقرنصات التي تشكل مركز السقف مراراً في تزيين السقف ، وشُكلت السقوف بالمقرنصات أو الأوراق الزخرفية الديكورية - السراويل . وفي فترة متأخرة غُطيت السقوف بمادة مع تصوير جصي ومرايا .



الطرز - مكان مرتفع لاستقبال الضيوف ، يقع على علو (٣٠ - ٥٠ سم) فوق العتبة ، تُغطى أرضيته بالخشب الذي يُقرش بالسجاد . جرى تشكيل سقف التوزور عملياً مثل سقف العتبة مع إضافات زهيدة .

القوس - خصص القوس لفصل العتبة عن التوزور ، ونفذ من الخشب وزين بزخارف متعددة وتوضع مباشرة فوق واجهة الدرج .



يتكون القوس من ثلاثة أجزاء :

* الطنف - دعامة من نمط معين للقوس ، منفذ من الجص على شكل مقرنصات ، وفيما بعد على شكل تيجان مع زخرفة نباتية .

* بطن القوس - جزء من الجدار مع القوس ، جرى تشكيله بزخرفة نباتية أو هندسية وبالخشب المنقوش أو الحجر المنحوت .

* القفل - القوس من الداخل ، مزين بزخارف كما هو الحال بالنسبة لليوان .

* الأثاث - تم اختيار الأثاث حسب الوضع المادي لصاحب البيت ، لكن كان الأثاث دائماً عنصراً بارزاً في البيت السكني العربي ، في نهاية القرن التاسع عشر امتلك أصحاب البيوت من الأثرياء أثاثاً وفق النماذج الأوروبية ، لكن على الأغلب كان أثاث البيت السكني العربي التقليدي يحمل طابعاً شرقياً . كانت هنالك أنواع متعددة من تزيينات الأثاث : الصدف ، حيث كان (منشوراً) ببساطة بالفسيفساء الصدفية القائمة على نجمة سداسية الأضلاع أو ثمانية الأضلاع ، كما استخدم النقش والتليس بالقشور الخشبية مشكلة نقشاً بارزاً مجعداً . حصل اندماج زخرفة الأثاث مع تشكيل الفراغ الداخلي ، واعتبر الأثاث الخشبي عنصراً هاماً في الديكور الداخلي للبيت الدمشقي ، ونجد الأثاث من الحرير الطبيعي أما الهيكل فكان من الخشب المطعم بالصدف والفسيفساء ، وهذا جلي في مثال الكراسي والطاولات والأرائك والخزن والصناديق الدمشقية وغيرها الكثير .

الوسائد الأرضية والأرائكية زينت بزخارف ورسومات نسيجية مشجرة مرصعة بالخرز .

ويقدم الطعام على صوان مزخرفة برسومات متعددة في صحون نحاسية . حفظت الأمتعة داخل صيوان ثياب بأدراج مزينة ، وخيطة الألبسة من الأقمشة المحاكاة على الأنوال الخشبية اليدوية .



في نهاية القرن التاسع عشر استخدمت الزخرفة النباتية المعقدة الدقيقة المنفذة من خشب الليمون الأصفر ، الذي زين بمواضيع مختلفة وبالتيجان اللولبية الشكل مع الزخرفة النباتية .

لتخزين الأمتعة استخدمت الخزن الجدارية ، ومن بين أنواع الأثاث الأخرى كانت منضدات الكتب والأستار . في التزيينات الديكورية للغرف لعب السجاد دوراً هاماً مع زخرفة منمنمة وحيابة معقدة . ومثل هذا السجاد علق على الجدران ، كانت الأواني بأشكالها المتعددة: الأباريق والفناجين وغيرها من المنتجات التي صنعت من المعدن المسكوك أو من الفخار ، والأواني الخزفية

مع الزخارف ، في جميع أشكال الإبداع الفني انتشرت الزخرفة اللونية العثمانية الكبيرة التي تشكلت وفق مخططات الزخارف النباتية الإيرانية والأذربيجانية في عهد الصفويين (القرن السادس عشر - القرن السابع عشر) لكن بأبعاد أكبر ، حيث نجد الأزهار المفتحة من القرنفل واللويس والسوسن ودالية العنب المثمرة على الصور الحائطية والسقفية المزخرفة المتألقة . حقق فن تلبس الأشياء الخشبية بعظام الجمل وقشور الأخشاب الثمينة الملونة والفضة مهارة عالية ؛ حيث لبست سطوح الأثاث المختلفة مثل الطاولات وأكعاب البنادق ، التي تشكل جميعاً صندوق العجائب بأشكاله الهندسية ، شكّل تتالي النور والظل في البيت الدمشقي جواً جمالياً حديثاً على الإطلاق .

كل ذلك والماء والأزهار والنور والظل شكل فناً أصيلاً ، لفهم هذا الفن لا حاجة لزيارة المعارض خصيصاً ، فهو موجود في كل مكان ، من اللحظة التي تفتح فيها عيناك صباحاً يظهر الفن وفي تشابك الإنشاءات الزجاجية المعشقة ، التي يمر عبرها الضوء مشكلاً أشكالاً وألواناً متعددة .

برز الفن في الرخام مع الماء المتدفق إليه وعبره ، برز الفن في السقوف وجدران المكاتب والتصاميم النقشية التي ترحب بأمواج النسيم والمضاءة بالنور من النوافذ الطويلة والفتحات الصغيرة فوقها ، كان الفن حولنا على القناطر والأقواس والجدران الملونة . استقبلنا الفن في الشجرة المزخرفة للقاءات والبوابات التي أفضت إلى الباب أو في إطارات النوافذ أو السقوف . الفن كان سجادة صغيرة تحت الأقدام . روعة قطع الرخام الصغيرة تقف أمامنا بتمازج إيقاعي للرسوم والزخارف ، حيثما نظرت أو سرت ستكون محاطاً بزخارف وديكورات من الخشب والحجر والطين والقصدير . الفن كان منتشرأ في جميع مناحي حياة الإنسان ، في لباسه وفي كل شيء ينظر إليه .

هذه الوثائق هامة جداً وفريدة من نوعها وتعتبر شواهد على التطور الكبير وعظمة الحضارة . ولها قيمة تاريخية نظراً إلى أن الكثير مما عبرت عنه لم يعد له أي وجود إلا في الصور .

هذه الزخارف التزيينية للبيوت الدمشقية صمدت عبر الزمن ، ومع ذلك

يجب ألا تصبح ضحايا جهل وإهمال مالكيها. عمارة المدن القديمة يجب أن يحافظ عليها ، وأن تكون ملائمة للمهمة المعاصرة المتعلقة بالحياة اليومية للبشر ، والمحافظة على هذه الآثار للبشرية ، ويتشكل انطباع غريب لدى السائحين المتجولين بالمدينة القديمة ناجم عن الواجهات الخارجية الرمادية الزهيدة للبيوت الدمشقية ، حارات ضيقة ، واجهات البيوت من الطوب بلا معالم بارزة ومشربيات متدلّية ، ولا تظهر على الإطلاق روعة دمشق. لكن إن تخطيتم العتبة ودخلتم إلى فناء البيت الدمشقي ستشعرون فجأة وكأنكم تحملون عصاً سحرية إلى المسكن ، فكل العناصر تتحدث عن روعة البيت الدمشقي .

وفرة الحجر السماقي والرخام والمطليات بالذهب والقوالب الجصية المزخرفة ، والرسومات الجدارية والنقش على الخشب والفسيفساء الصدفية والخشب المُطعَّم كل ذلك يسرّ الأبصار ويمثل ديكوراً مسرحياً خيالياً هكذا كتب السياح الأوروبيون عن دمشق القديمة .

في الوقت الحاضر نجد أن البيوت الدمشقية المرممة المملوكة من قبل الدولة أو الأفراد تستخدم في الواقع كمتاحف من نوع خاص .

ومنصات مسرحية وصلالات للحفلات الموسيقية ومطاعم وصالونات فنية ومحلات تجارية ومدارس ومنشآت عامة ، لكن حتى الآن تستخدم الكثير من البيوت الدمشقية للغرض الذي وجدت له ، ويعيش فيها أصحابها الذين لا توجد لديهم الإمكانات المادية لترميمها ؛ ولهذا نجد أن هذه البيوت في تدهور .

لو كانت الجنة على الأرض لكانت

دمشق

ولو كانت الجنة في السماوات لكانت دمشق

نسخة عنها

نتوقف بالتفصيل عند بيت سكني نموذجي دمشقي ، من أوائل المباني التي يمكن القول عنها : هذا البيت التقليدي النموذجي الدمشقي من العهد العثماني . إنه قصر العظم الذي بني في منتصف القرن الثامن عشر في عام (١٧٤٩ م) .

قصر العظم

الإبداع والانسجام مع روح الزمان والمكان

قصر العظم أنموذج مدهش للبيت الدمشقي القديم ، حيث يشعر فيه المرء بالانسراح والسرور؛ لما يحويه هذا البيت من الحجارة الجميلة والرخام الملون والأزهار والبحيرة الصغيرة ونافورتها التي تتوسط باحة البيت ، ويشغل البيت الآن متحف الفنون والتقاليد الشعبية . . يقع القصر جنوبي الجامع الأموي ، بجوار سوق البزورية ، وهو من أهم القصور الأثرية في سورية ، شيده والي دمشق ، أمير الحج الشامي ، أسعد باشا العظم ، بعد خمسة أعوام من توليه السلطة على دمشق ، أيام السلطان العثماني محمود الأول في العام (١٧٤٩) . وسكنه وبقي فيه حتى اغتالته السلطة العثمانية خنقاً في الحمام بعد عزله بفترة قصيرة .

يتألف القصر حالياً من ثلاثة أقسام بحسب التقليد الدمشقي العريق ، وهو قسم «السلمك» وهو القسم المخصص للرجال ، وقسم «الحرملك» وهو القسم المخصص للنساء ، والقسم الثالث هو قسم «الخدملك» وهو المخصص للخدم ، وطبعاً يضاف إلى ذلك الحمام والقسم الخاص بالعربات أو المرآب . . ونلاحظ هنا أنَّ المفردات مأخوذة من اللغة التركية التي تشير فيها اللاحقة «لك» إلى اسم المكان : فالحرملك - لك هو مكان الحرم ، والخدم - لك هو مكان الخدم ، والسلام - لك هو مكان السلام والضيوف الرجال . . للقصر بوابة تؤدي إلى ممر عريض مغطى بعقود متصالية ، وعلى يمينه مصطبة للجلوس ، ويؤدي هذا الممر إلى قسمي الاستقبال والمعيشة ، أي (السلمك) و(الحرملك) حيث تزيد مساحة (الحرملك) على ثلثي مساحة القصر ، وهي المساحة الأكبر غالباً في البيت الدمشقي وحول فنانة الواسع تتوزع القاعات

والغرف والإيوان الكبير ، وهو شبه غرفة مفتوحة على مساحة البيت وتمتد أمامه بركة ماء طويلة شبيهة ببركة جنة العريف في غرناطة . وتحيط بالبركة أشجار باسقة للزينة وأشجار حمضيات متنوعة بالإضافة إلى عرائش الياسمين الدمشقي ، وقد زينت واجهات الغرف والقاعات بـ(مداميك) ملوثة مغطاة بزخارف هندسية دقيقة ، فيما غطيت الأسقف بالأخشاب الملونة . أما القسم الأصغر حجماً ، وهو قسم الاستقبال (السلمك) ، فيحمل الزخارف ذاتها والطابع المعماري ذاته ، وفي وسط فناءه بركة ماء مربعة أيضاً . بينما حمام القصر فهو صغير نسبياً ، لكن عمارته تشابه عمارة الحمامات الدمشقية الضخمة ، فهو مؤلف من ثلاثة أقسام: البارد والدافئ والحار ، أو ما يُعرف بـ(البراني والوسطاني والجواني) وبالطبع يقع الحمام في قسم (الحرملك) ، وله قبة ذات فتحات زجاجية . في القصر ست عشرة قاعة كبيرة . وتسع عشرة غرفة صغيرة في طابقه الأرضي . وكذلك ثلاثة إيوانات كبيرة ، وأربعة أقبية وأربع برك متنوعة الأحجام والأشكال . وحوالي تسع عشرة فسقية ماء (الشكل القديم لصنبور الماء) . منها الأرضية ومنها الجدارية ، في العام (١٩٥٢) ميلادي . عملت المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية على تحقيق فكرة إنشاء المتاحف الشعبية والبدء بتحويل قصر العظم إلى متحف للتقاليد الشعبية ، وفي العام (١٩٥٤ م) جمعت المعروضات من مختلف المناطق السورية عن طريق الإهداء والشراء ووضعت المجسمات وتمائيل العرض وافتتح المتحف بتاريخ (١٣) أيلول العام (١٩٥٤م) وقد سجّل هذا المتحف إقبالاً كبيراً من المواطنين والأشقاء العرب ومن الزوار الأجانب ، وأصبح من أكبر المراكز السياحية في الشرق الأوسط حتى ليبلغ عدد زواره يومياً أكثر من أربعة آلاف شخص .

تحتوي غرف وقاعات القصر اليوم تنوعاً كبيراً من التحف والمقتنيات الدمشقية ومقتنياتها وتقاليدها . تضمُّ قاعات القصر اليوم معرضاً لصناعة الزجاج اليدوية عن طريق النفخ وصناعة أطباق القش ، وخرائط الخشب مع نماذج من المفروشات الخشبية الدمشقية العريقة من صناديق وكراسي وقنصليات وكراسي

للولادة والقباقيب الشبراوية والعرايسية المحفورة أو المطعمة والمنزلة بالصدف والعاج والقصدير ، وكذلك يضم في أركان أخرى جناحاً لصناعة أطباق النحاس المحفورة والمنزلة بالفضة والذهب ، وجناحاً للمنسوجات النسائية والرجالية من عدد من المناطق السورية . كما يضم المتحف قاعة لمشهد يمثل حياة نساء دمشق اليومية وسمهرن . وفيها تمثال سيدتين تلعبان (البرجيس) وهي لعبة شعبية معروفة في دمشق القديمة .

قصر العظم:

قصر لحاكم سابق لمدينة دمشق اسمه أسعد باشا العظم ، وهو حاكم نشيط إلى حد كاف ، بنى أكثر من قصر في سوريا (قصر في مدينة حماة) . أقام فيه المفوض السامي الفرنسي لمدة معينة في عهد الانتداب الفرنسي ، وفيما بعد أصبح المعهد الفرنسي للدراسات العربية بإدارة (نيكيت يلسيف) وحتى وقتنا الحاضر يشغل هذا المبنى متحف الفنون التطبيقية والتقاليد الشعبية .

يعتبر قصر العظم نموذجاً للبيت العربي الثري .

بني في القرن الثامن عشر ، يبدو القصر من الخارج بسيطاً ومتواضعاً كما تتطلب التقاليد . جدار طيني رمادي عالٍ وبلا زخرفة يحيط بمساحة كبيرة لأرض القصر (٢٥٥٠٠ م^٢) وما يكاد الزائر يدخل عبر الأبواب حتى يرى أمام ناظريه عالماً من الروعة والجمال والرخاء - كما كتب حول هذا المبنى الباحث الألماني (هانس ما ينبوم) - يحتوي المبنى غير المنتظم في مخططه على ثلاثة فناءات مكشوفة .

الأول أكبر فناء داخلي في دمشق . الحرملك ، الواقع على محور واحد مع المدخل الرئيسي - احتفالي وفاخر - كما العادة في تشكيل النصف النسائي من البيت الدمشقي . يقع المدخل الرئيسي في الجهة الغربية من المبنى ، الفناء الداخلي الكبير - الحرملك مرصوف بالواح رخامية مزين بأحواض الزهور وأشجار الحمضيات التي تمنح الظل الوافر . كما أن النوافير في وسط الفناءات تمنح البرودة .

العنصر المميز لأكثر الفناءات الداخلية رخاءً وسعة (٢٥ x ٤٥ م) هو أن هذا

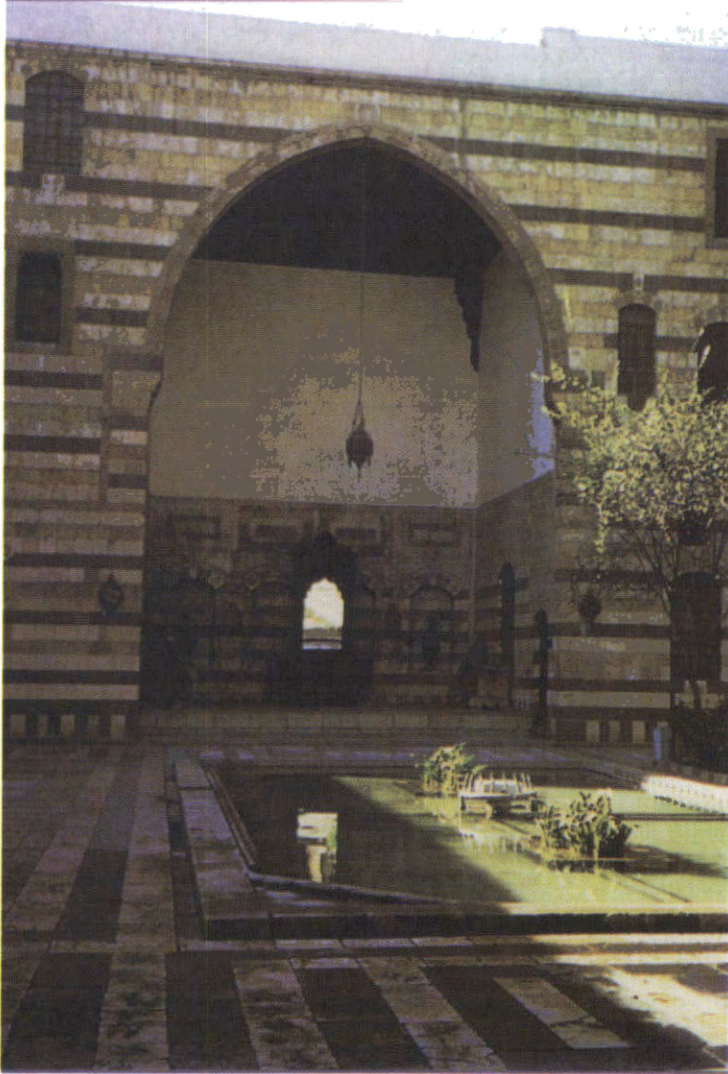
الجزء من الفناء شمالي مع رواق مقنطر ، ومن هناك تحديداً نصل إلى قاعات كثيرة للقصر . يوجد مقابل الرواق الشمالي المقنطر قاعة كبيرة من ثلاثة أجزاء يمكن الوصول إليها بالصعود على درج صغير . وكما هي العادة في الجزء الجنوبي من المبنى يوجد ليوان مع نافورة مستطيلة كبيرة أمامه ، وهي النافورة الوحيدة في أبعادها في كافة أنحاء دمشق . من الليوان يمكن الوصول إلى غرفتي ضيوف الغرف الداخلية للقصر مزخرفة بالبازلت الحوراني والرخام الملون الإيطالي والخزن المبنية في الجدران مزينة بزخارف رائعة بأسلوب العجمي (نقش بارز على الخشب) تبدو النوافير الصغيرة والبرك رائعة وهي مرتبة في وسط قاعات القصر .

ما بين ليوان الحرملك وقاعته المركزية يوجد ممر يؤدي إلى الحديقة - وهو عنصر نادر أيضاً في البيت الدمشقي . ومن خلال ممر ضيق يمكن الوصول إلى غرف السلمملك وهي ذات أبعاد أصغر . جرى في عام (١٨٣٠) تماشياً مع الموضة إعادة بناء وزخرفة هذه الغرف بأسلوب (الباروك) ما بين الحرملك والسلمملك توجد الحمامات التقليدية المزخرفة بالرخام والفسيفساء الحجرية . في الجزء الشمالي من المبنى يوجد فناء داخلي ثالث مكرس للشؤون المنزلية يدعى الخدمملك تحيط به غرف الخدمة . يوجد في الخدمملك ، مطبخ كبير وغرف للخدمة ، واحتوى هذا الفناء على مدخل معزول .



دمشق - قصر العظم القاعة الكبرى - واستراحة في الفناء الخارجي

الواجهات الداخلية لهذا المبنى ملبسة بأحزمة من رخام الأبلق الأسود والأبيض والأصفر. أما النوافذ فهي مزخرفة بتشبيكات رائعة ومصابيح معلقة من الزجاج الملون. العنصر التزييني الفريد من نوعه في قصر العظم هو الصورة الحائطية التي تعبر عن دمشق القديمة. تعرضت قاعة الحرم لك الكبيرة جزئياً للهدم في عام (١٩٢٥ م) وأعيد بناؤها في عام (١٩٣٤ م). في الوقت الحاضر تم ترميم هذا المبنى ويقع تحت حماية الدولة.



قصر العظم

المبنى الثاني الذي يستحق التوقف عنده هو مكتب عنبر (في الوقت الحاضر: قصر الثقافة) عنبر هي كنية يهودي ثري اسمه يوسف أفندي المالك الأول لهذا البيت. هذا المبنى كغيره من البيوت مغلق من جهة الشارع ومفتوح نحو الداخل.

تبلغ مساحته التقريبية في الوقت الحاضر (٢٤٠٠٠ م^٢) ، حيث تجاوزت مساحته في البداية (٢٥٠٠٠ م^٢) ، بدأ بناؤه في وقت لاحق في عام (١٨٦٧ م) وانتهى في عام (١٨٧٨ م) كان هذا المبنى ملكاً لرجل رفيع المستوى وتاجر. إن لهذا المبنى شكلاً معقداً من حيث المخطط ، تتقاطع فيه ثلاثة مستطيلات ، اشترى صاحبه ثلاثة بيوت متاخمة أحدها للآخر ثم جمعها في بيت واحد. من هذا الدمج تشكل بيت من ثلاثة فناءات. ولكل منها أهميته الوظيفية. وبهذا حصل تشكيل مظهر البيت السكني الدمشقي. مثل هذا المخطط نجده في كل بيت سكني لثري دمشقي ، حتى قبل الانتهاء من بنائه تم شراؤه من قبل سلطات الإمبراطورية العثمانية ، واستخدم من قبلهم حتى عام (١٨٨٧ م) كمدرسة ثانوية بعد ذلك أصبح مقراً للسلطان.

تحول هذا المبنى في عام (١٩٢١) من مقر للسلطان إلى مدرسة ، وفيما بعد تحول إلى مدرسة للفنون للإناث. في عام (١٩٣٥ م) تحول إلى ليسيه (مدرسة ثانوية فرنسية) للذكور. من جدران مكتب عنبر خرجت كوكبة من الكتاب والشعراء والساسة الذين أصبحوا فخر تاريخ سوريا. في عام (١٩٧٤ م) جرى ترميم هذا القصر وأصبح قصر الثقافة العربية ، منذ عام (١٩٨١ م) حتى يومنا هذا توجد في هذا البيت لجنة ترميم وإعادة بناء دمشق القديمة.

مكتب عنبر هو طراز بيت يحتوي على ثلاثة أنواع من الفناءات: فناء مع رواق مقنطر ، فناء مع رواق مقنطر وليوان ، وفناء مع ليوان له بابان ، المدخل الرئيسي الرسمي في الجهة الغربية ، مزين بباب ذي نقش بارز تتجلى فيه العناصر الباروكية (حلي حلزونية أو درجية ذات زخرفة نباتية متوضعة حول إطار مزخرف). مدخل الخدمة واقع في الجهة الشرقية ، وبالمرور عبر كامل البيت يمكن العبور من شارع إلى شارع آخر موازٍ له. في وسط كل من فناءاته

توجد نوافير مختلفة في شكلها وزخرفتها. الفناء الغربي (السلمك) يقع عند الدخول إلى المبنى ، حيث يقع مكتب الحاكم أو صاحب المبنى . هذا الفناء من حيث الزخرفة نجده متقشفاً ، حيث لا نرى أية زخارف ما عدا تشكيل المدخل إلى إحدى غرف الضيوف ، وهي ذات أشكال باروكية. هذا العنصر كما هو الحال في زخرفة باب المدخل الرئيسي ، قد ظهر في وقت لاحق بكثير بالمقارنة مع البناء الأساسي. جميع الغرف المطلة عليه مخصصة للاستخدام من قبل صاحب البيت. وتتجاوز المعبر الضيق نصل إلى الفناء المركزي. وهنا يمكن التحدث عن فلسفة البناء الفريد في الشرق الأوسط. حال دخول الشخص إلى المبنى لا يمكنه التنبؤ بدرجة ثراء صاحبه. مثال جلي على ذلك نجده في الفناء الداخلي المركزي (الحرملك) ، وهو فناء مخصص للنصف النسائي من البيت ، الذي يتميز عن الفناءين الآخرين بفخامة و ثراء التشكيل التزييني. من الجهة الشمالية من الفناء مزينة برواق مقنطر بأعمدة رخامية بيضاء ، وهو ما تميزت به العمارة السورية في تلك الفترة ، فما هو شرقي يتجلى في أن هذا الفناء الداخلي مع ليوان ، ليس بليوان واحد بل ثلاثة ، في الزاويتين اليمنى واليسرى من الواجهة الجنوبية.

جدران الطابق الأول ملبسة بالحجر والرخام ، في الديكورات الداخلية نرى تتالي حجر الأبلاك البيجي والأحمر والأسود ، مما تميز به العهد العثماني ، والتأثير الغربي يمكن تعقبه في شكل الأقواس وفتحات النوافذ والأبواب ، التي تنتهي بزخرفة رخامية تزيينية ذات نقوش بارزة تعود على الأغلب إلى أسلوب الباروك. نرى مثل هذه الزخرفة فوق المدخل الرئيسي للمبنى .

توجد الكثير من الخضرة حول النافورة (الأعشاب (غازون) والأزهار والأشجار). جدران واجهات هذا الفناء والديكورات الداخلية وكذلك السقوف مغطاة بتصوير جصي زخرفي ، تمازجاً مع التليس الرخامي والنقوش والزخرفة على الخشب بأسلوب العجمي .

نوافذ الطابق الأول تغلق بشبكات ذات نقوش من حديد الصب ، أما نوافذ الطابق الثاني فهي مزدوجة تذكرنا بالأسلوب الموريتاني .

الديكور الداخلي للمكتب يشكل لوحة تعبر عن عظمة هذا المبنى. توجد عملياً في كل غرفة معدة لاستقبال الضيوف نوافير صغيرة وعتبة (وهي على مرتفع قليل)، وصورة حائطية تزيينية ذات نقوش بارزة وسقوف خشبية مزخرفة. الفناء الداخلي الشرقي - هو الخدملك - أي فناء للخدمة يوجد فيه ليوان أيضاً. وفيه وجد مسجد صغير وحمام ومطبخ. وغرف للخدمة أيضاً ومدخل خدمة يوجد فيه فناء صغير. الطابق الأول من المبنى مبني من الحجر والبلاطات الرخامية مع نقوش تزيينية مزخرفة، أما الطابق الثاني فهو عبارة عن هيكل خشبي معبأ بالطوب ومطلي بالطين، وتحليل الحل المعماري وديكور المبنى من المهم أن نشير إلى أنه في هذا المبنى تتمازج ملامح العمارة العربية مع عناصر العمارة الأوروبية، وخاصة عناصر أسلوب (الباروك) وهذا متمثل في: تيجان الأعمدة، وأشكال النوافير، وأشكال النوافذ والأبواب وطريقة زخرفتها، وطابع تركيب الزجاج وزخرفة السقوف و... إلخ.

هناك تتال في تصميم العناصر التزيينية للعناصر النباتية والهندسية، مع العلم أن العناصر النباتية هي السائدة (دالية العنب، والأزهار، وآنيات الزهور... إلخ). تستخدم الزخارف الهندسية في تشكيل الأرضيات الرخامية والأبواب الخشبية والإطارات الفسيفسائية فوق الأبواب. جرى ترميم لهذا المبنى أيضاً إنه بناء جميل مدهش، لكن هناك نقص ضئيل في وحدة المبنى.

هناك أيضاً بعض المباني التي يمكن التوقف عندها بالتفصيل وهي: بيت السباعي وبيت شيرازي وبيت طيبي وغيرها.

بالقرب من قصر العظم مروراً عبر شارع مدحت باشا يمكن الوصول إلى بيت السباعي. بني هذا البيت في القرن الثامن عشر، وكان ملكاً لعائلة دمشقية ثرية. في هذا البيت كما في المباني السابقة توجد ثلاثة فناءات ومدخلان وبالدخول إلى المبنى نصل إلى الموزع الذي يمكن من خلاله الوصول إلى السلملك (في الناحية اليسرى) وإلى الحرملك (في الناحية اليمنى). الحرملك دائماً أكبر في أبعاده وأكثر تزييناً وزخرفة.

الخدملك - فناء للخدمة ، أقل أبعاداً وله مدخل مستقل ، من الخدملك يمكن عبر الرواق الوصول إلى السلملك والحرملك . بيت السباعي كغيره من المباني السابقة يمثل البيت مع اللوان . في إكساء الواجهات والديكور الداخلي يمكن بوضوح تعقب ملامح العمارة في العهد العثماني : تتالي الحجر الملون وتشكيل النوافذ والأبواب بالفسيفساء الملونة ، السقوف والخزن المبنية في الجدران مزخرفة بأسلوب العجمي ، أشكال هندسية للنوافير والعناصر التزيينية ، يتميز هذا العهد بالطيف اللوني - الأسود والأبيض والأحمر والأصفر والبرتقالي .

في القسم الشمالي من المدينة ليس بعيداً عن الجامع الأموي ، وعلى مقربة مباشرة من أقدم المدارس الدمشقية (العادلية والظاهرية) ، يقع بيت تشيرازي الدمشقي القديم ، فهذا المبنى قديم في التاريخ . في الأساس كان في هذا المكان مبنى سكني يعود للعهد الروماني بعدها بناء يعود لعهد الخليفة (في العهد العربي كان هذا المبنى لعائلة مرادي قرابة (٤٠٠) عام ، وفي عام (١٨٥٠ م) أصبح ملكاً لعلي تشيرازي).

هذه البيانات موجودة من خلال ما هو مكتوب على الجدران يكاد كل بيت عربي يحتوي على جدرانه كتابات أشير من خلالها إلى أسماء المالكين أو آيات من القرآن الكريم . بيت تشيرازي هام بدءاً من الباب الرئيسي الذي يحتوي على زخرفة من العهد العثماني . قسم المدخل الموزع صغير في أبعاده ، عبارة عن دهليز ضيق مع جدار مزين بالمقرنصات يربط المدخل بالفناء الداخلي مع اللوان . زين القصر في العهد العثماني برواق مقنطر تم إعادة بنائه وتشكيله في العهد العثماني (عهد الباروك الدمشقي) .

في الجزء الجنوبي من القصر يوجد ليوان كبير يمكن من خلاله الوصول إلى غرفتي ضيوف . في الوقت الحاضر بيع ذلك الجزء من القصر الذي كان منطقة استجمام لصاحب محل تجاري وهو في حالة يرثى لها . إلى اليمين من اللوان - رواق بأشكال باروكية (شرم مقعر متوضع على محور الرواق) داعم لمكان كبير

من الطابق الثاني ، ممتد تحت كرنيش موحد. إلى اليسار من الليوان توجد غرف ضيوف تابعة للقاعة تمثل طراز قاعة بطزر واحد ، كانت مزخرفة بأسلوب العجمي .

أما في الوقت الحاضر فقد طليت الزخارف بالدهان الأبيض الزيتي . توجد في وسط الفناء نافورة معقدة الشكل وبقربتها تيه مائي أرضي ، وهذا ما لا يمكن مصادفته في كل بيت دمشقي . يقع التيه مقابل قاعة الضيوف النسائية المكونة من ثلاثة طزر ، وعند مدخل قاعة الضيوف توجد نافورة صغيرة تدعى الفسقية ، مع زخارف على أطرافها على شكل أسود . في منتصف التوزور المركزي لهذه القاعة هناك نافورة جدارية تدعى (السلسيل) ، وسقف هذا المكان مزين بعوارض خشبية بأسلوب العجمي ، مع نقوش بارزة ذات أشكال هندسية تربط السقف والجدران ، وصورة حائطية مركزية تصور أفعى ملتوية (ذات بقع حمراء بنية مع سوداء) وهذا لا يشكل على الإطلاق صفة مميزة للعمارة الإسلامية . في زخرفة السقف استخدمت زخارف من المقرنصات الخشبية والفسيفساء الدقيقة والتصوير الجصي .

تفصل الطزر عن العتبة عن طريق ثلاثة أقواس سقفية مزخرفة بأسلوب الباروك . وبغض النظر عن الوجود البارز لعناصر العهد العثماني يمكن في هذا المبنى تعقب ملامح من (الباروك الدمشقي) جدران الفناء فوق الأبلق زخرفت بلون سماوي - رمادي مع زخرفة نباتية تزين النوافذ والليوان . الديكور الداخلي لغرفة الضيوف المكونة من ثلاثة طزر مزخرفة بمناظر طبيعية تعبر عن البيوت والجسور التي كانت مميزة في ذلك العهد . الخزن المبنية في الجدران مزخرفة بمناظر طبيعية صامتة ، أما الأقواس فهي مزخرفة بأنبات الزهور والزهور والمواضيع المعمارية .

ألوان الزخرفة : الأبيض والأزرق والسماعي ، يحدد رخاء هذا البيت ليس فقط من خلال أثائه الداخلي بل بوجود حمام فيه ، يمكن الوصول إليه عبر النزول على درج صغير داخلي مباشرة من غرفة الحرملك . دون الخروج إلى الفناء أو بالدرج الخارجي الواقع قرب المطبخ . مطبخ هذا البيت أدنى من

مستوى الفناء الداخلي إلى الجهة اليمنى من الدرج الذي يقود إلى الحمام . من الجهة اليسرى للدرج هنالك غرفة لتخزين المونة .

تقطن عائلة تشيرازي في هذا المبنى منذ مئتي عام ، ولكن للأسف لا توجد لديهم الآن الإمكانيات المادية لترميم بعض الغرف . حيث طليت بالدهان الزيتي الأبيض فوق الزخرفة العجمية .

بيت طيبي يمكن أن نسميه مثلاً لعهد تحول من العمارة العثمانية إلى عمارة الباروك الدمشقي .

بالنسبة لإكساء البيت - فإن هذا البيت يشكل عينة للعمارة العثمانية ، أما في تشكيل المدخل فإنه يمكن تعقب التيارات الأوروبية البارزة . المدخل إلى غرفة الضيوف مزين بأناقة برواق معمد من الرخام على أعمدة حلزونية الشكل مزينة بتيجان معقدة ذات بلكون صغير ، إنه المثال الوحيد في دمشق على مثل هذه الزخرفة للمدخل إلى غرفة الضيوف - القاعة . جميع الفناءات الداخلية والغرف ذات ديكور وفق المبدأ العام السائد في العهد العثماني : تتالي الحجر الملون ، التصوير الجصي والنقش على الخشب واستخدام الزخرفة الهندسية .

البناء الأخير الذي أردنا التوقف عنده هو بيت عقاد الذي يعتبر في الوقت الحاضر مقراً للمركز الثقافي الدنماركي ، وقد حصل فيه الترميم ، حول هذا البيت أعد الجانب الدنماركي كتاباً رائعاً يصف تاريخه وترميمه . نرى في هذا المبنى أمثلة بارزة للعناصر المعمارية التي تعود لعهود تاريخية متعددة . (يوميات تاريخ دمشق) بدءاً من العهد الروماني مروراً بالعهد العربي والعثماني ، وبعدها الانتقال بسلاسة إلى العهد المعماري ما بعد العثماني لدمشق - (الباروك الدمشقي) . مثال على (اللغة) المعمارية العثمانية نجده في الفناء الداخلي مع الليوان وغرف الضيوف التي تؤدي إليه ، وفي هذا الصدد لا بد من ذكر (غرفة الضيوف الحمراء) لهذا البيت ، والجدار الديكوري للفناء الداخلي (غرفة الضيوف الحمراء) هي قاعة ذات طرز واحد تنفصل عن العتبة بقوس على تيجان مقرنصة العوارض الخشبية للسقف مزخرفة بأسلوب

العجمي ، والخزن الجدارية مغطاة أيضاً بهذه الزخرفة البديعة مع لوحات تعبر عن الطبيعة الصامتة .

أعيد طلاء وتصليح هذه الغرفة بأسلوب العجمي في فترة الباروك الدمشقي : الجدران مطلية باللون الأخضر ، ومزينة بأشرطة ذات زخرفة نباتية في فترة ترميم هذا المبنى جرى تنظيف الجدران وقشرها وصولاً إلى الطبقة الأولى ، ثم رمت لتبدو كما كانت في العهد العثماني . وهذا الأسلوب في الترميم أكثر صحة ، نظراً إلى أنه على أساس الدراسة المعمقة لهذا المبنى ، تم إظهار أنه لهذه الغرفة على وجه الخصوص بدا أهم شيء هو تنفيذ الديكور في العهد العثماني أكثر منه في فترة الباروك اللاحق .

وأخيراً: نستنتج بأن البيت السكني الدمشقي التقليدي يركز على البيت الروماني ذي الفناء الداخلي .

تتجمع الغرف حول فناء مكشوف - الردهة ، توجد في عمقه قاعة احتفالية كبيرة ، الأجزاء الجانبية من الفناء مشغولة بآماكن الخدمة وغرف الضيوف . فهنا لا يوجد بيت حسب مفهومنا كحجم متكامل مع أربع واجهات خارجية ، في البيت الدمشقي جميع الواجهات تطل نحو الداخل ، أما نحو الخارج فيطل جدار مصمت .

يمكن فرز البيوت السكنية التقليدية ذات الفناءات الداخلية المتعددة كمايلي :

* النوع الأول من البيت الدمشقي له فناء مغلق على طول محيطه (حرملك بيت البارودي) .

* النوع الثاني من البيت الدمشقي فيه فناء مع ليوان (الحرملك والسلملك في بيوت السباعي وجبري . وسلملك بيت البارودي ونظام) .

* النوع الثالث من البيت الدمشقي يوجد فيه إيوان رواق مقنطر . (كما في مكتب عنبر) .

* النوع الرابع من البيت الدمشقي يحتوي على فناء مركب (مع ليوان ورواق مقنطر) مثل قصر العظم ومكتب عنبر وبيت تشيرازي .

بنتيجة التحليل تم إبراز نماذج متعددة من قاعات الضيوف للبيت الدمشقي التقليدي ، التي يمكن تقسيمها إلى خمسة أنواع :

١ - قاعة دون طزر - ٢ - قاعة مع طزر واحد - ٣ - قاعة على شكل L مع طزرين - ٤ - قاعة مع طزرين متناظرين - ٥ - قاعة مع ثلاث طزرات .

جرى تحليل وتصنيف أهم العناصر المعمارية - الإنشائية والفنية وأجزاء البيت السكني الدمشقي التقليدي : السقوف ، الجدران ، تيجان الأعمدة ، القواعد ، النوافذ ، الأبواب ، الأرضيات ، والنوافير . كما درست وصفت مواد البناء المحلية والإنشاءات المؤثرة على تشكيل البيت الدمشقي .

أظهر التحليل أنه في العمارة العربية استخدمت في الديكور الداخلي المواد الديكورية التالية :

الحصص ، المرمر ، الخشب المنقوش (الأبلق) فسيفساء من الرخام ، الزخرفة بأسلوب العجمي (زخرفة حجمية بالخشب) ، ورق ملوك (معجن) ، الخزف ، التطعيم المعشق من أنواع خشب ثمينة وعاج ، والصدف ، النوافير ذات شكل هندسي صارم ، استخدمت الزخرفة الهندسية المتعددة في تشكيل البلاطات والسقوف والشبكيات والأبواب ومصابيح الإنارة والأثاث وغيرها الكثير من العناصر الديكورية .

كان الأثاث قليل العدد . لتخزين الأشياء استخدمت الخزن الجدارية . ومن بين الأثاث كانت هنالك الصناديق ومناضد الكتب والأستار . لعب السجاد بزخرفته المنمنمة وحيآكته المعقدة دوراً هاماً في تزيين الغرف . حملت الأواني طابعاً ديكورياً من خلال الأشكال المتعددة للأباريق والفناجين والمصابيح ، وغيرها من المنتجات المنفذة من المعدن المسكوك أو من الفخار ، والأواني الخزفية المزخرفة . وقد أظهرت الدراسة أن جميع المباني كانت ملكاً للصفوة الدمشقية . يمكن اعتبار هذه المباني كنزاً لأصالة العمارة الدمشقية ، فلها قيمة

تاريخية للعمارة السورية ، يجب المحافظة على فن عمارة المدن القديمة وعلى الأخص دمشق ، وأن تكون ملائمة للحياة المعاصرة ، ومن المهم جداً العناية الدائمة والمحافظة على هذه المعالم الأثرية للبشرية جمعاء ، ولا بد من إجراء الترميمات في حينها وبكفاءة عالية .

* * *

مستقبل مدينة دمشق

وسط خضم هذا التوسع الكبير لمدينة دمشق في داخل الأسوار وخارجها . . يتساءل (أصدقاء دمشق وعشاقها) عن مصير مدينتهم التاريخية العريقة ومستقبلها الحضاري ، وذلك بكثير من الخوف عليها والرغبة في التمسك بها وبطابعها التاريخي والمعماري والعمراني والحضاري ، أضف إلى ذلك تقاليدھا الاجتماعية ، وقد أسهمت الهجرة السكانية الداخلية من مختلف المحافظات وأريافها إلى دمشق في تضاعف عدد سكانها باستمرار وعلى الدوام . . .

وظهرت تجارة شراء المباني القديمة والأثرية وإقامة المباني الطبقية على أرضها وهدم بعض الأسواق القديمة ، مما أساء إلى وحدة النسيج المعماري والعمراني ، ففقدت مباني الحي تناغمها المعماري مع بعضها ، وكان لهذا كله أثره الكبير في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأخلاقية . . . وغيرها .

وفي الواقع شهدت دمشق تغييرات كبيرة ، لقد حلت المباني الحديثة الإسمنتية محل بيوت دمشق القديمة التي كانت تعيش فيها أجيال الأسرة .

وأصبح كثير من بيوت دمشق القديمة مستودعات ومتاجر ومصانع ومخازن ومطاعم وفنادق . . . إلخ .

وإن مهنة تجارة المباني وهدمها وبناء المباني الطبقية على أرضها قضت على طابع دمشق المعماري والعمراني المتميز .

وشعر أبناء دمشق بالحنين إلى ذلك الماضي الحضاري والأثري ونشوته

الحضارية ، فأخذوا يزورون الأحياء القديمة المتبقية في دمشق بكثير من الحب والحنين ، واستعادة تلك الذكريات الغابرة مع تلك الأيام الماضية .

ويتذكرون تلك العلاقات الاجتماعية والإنسانية المتميزة بالقيم والألفة والمحبة ، ويتذكرون علاقة الجار بجاره وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان بشكل عام .

لقد زال كثير من مباني تلك العائلات القديمة . . . وتبدلت مظاهر الأحياء وشوارعها ومبانيها وطرقها ومتاجرها وسكانها ، وفعاليتهم وعلاقاتهم الاجتماعية والإنسانية . . . لقد زال كل هذا . . . ولكن بقي الحب المقدس والحنين والوفاء إلى (دمشق الماضي) وإلى ذلك الحي ومبانيه وأسواقه وسكانه ، وطابعه الاجتماعي والثقافي والأخلاقي . وكثيراً ما نرى بعض العائلات تحرص على كسوة جدران بيوتها الحديثة بالكسوة الشعبية القديمة وفرش بيوتها بالمفروشات العربية المحلية التقليدية ، وتمسك بالأطعمة الشعبية والحلويات المحلية ، وبكل ما يذكرها بذلك الماضي الاجتماعي والأخلاقي والإنساني .

وكثيراً ما نرى أبناء تلك العائلات الدمشقية القديمة يشعرون بنشوة الماضي كلما مروا في بقايا أحياء مدينتهم القديمة ، وتمتعوا برؤية بيوتها المتلاصقة ببعضها ، وكثيراً ما كانوا يشعرون بالرغبة في رغيف طازج من مخبز حيّهم القديم . . . تبدو دمشق بتاريخها العريق ومنجزاتها الحضارية بمثابة (موسوعة عمرانية ومعمارية) متميزة وأن أهمية تراث دمشق بشكل عام تفسّر أسباب اهتمام الجميع بها وخاصة أبنائها الأوفياء لها؛ لهذا لا بد من وضع (خطة دمشق المستقبل) من شأنها أن تحافظ على تراثها وآثارها المتميزة .

* * *

دمشق أقدم مدينة في العالم

تعتبر مدينة دمشق أقدم مدينة في العالم صمدت على مر العصور المتعاقبة ، وكانت مركزاً وعاصمة لكثير من الحضارات .

إن جميع الحضارات والعهود التي مرت على هذه المدينة تركت أثراً لها ، رغم الدمار والخراب الذي لحق بأوابدها ومعالمها التاريخية ، ولكن تبقى بعض هذه الآثار الهامة شاهدة على قدم وعراقة هذه المدينة . كما تعتبر أغنى المباني القائمة حتى الآن . وإن نسيج المدينة القديمة الناتج عن البيوت السكنية يعتبر عنصراً حيوياً يعطي المدينة الحياة والاستمرارية . ولكن المدينة القديمة غادرها سكانها إلى المناطق الحديثة ، وحلَّ محلهم السكان القادمون من الخارج ، إضافة إلى التمرکز الصناعي والحرفي في البيوت القديمة .

وكان السكان الجدد الذين حلوا في بيوت المدينة القديمة كمستأجرين ، وبعدهم عائلات في بيت واحد دون الاهتمام بصيانة البيت مما أثر في ضياع واندثار القيم الفنية والأثرية في محتويات هذه البيوت .

كما أن المالكين الأصليين لم تعد لديهم رغبة في صيانة أو ترميم بيوتهم سواء لانخفاض ريعيتها ، أو لارتفاع تكاليف الصيانة والترميم . والأمر الأكثر خطورة هو تحول عدد من هذه البيوت إلى معامل صناعية شوهت معالمها وغيّرت بنيتها بكاملها ، وذلك إما بإزالة بعض غرفها ومنشأتها أو بإضافة منشآت جديدة .

إن الخطأ الذي يرتكبه المعول والبناء حيال أي مبنى أو أي جزء من أجزاء المدينة القديمة ، خطأ لا يمكن إصلاحه . إن التحليل الإنشائي ، أو بعبارة

مبسطة: إن معرفة طريقة بناء هذه البيوت القديمة ، ومقارنة الأسس الهندسية لها بالأسس الحديثة في الهندسة الإنشائية سوف يزيدنا إعجاباً بالوعي الهندسي الكبير الذي أودعه البناؤون القدامى فيها. وهذا سيدفعنا مرة أخرى للإعجاب بهذه البيوت ، وسوف يعطينا سبباً إضافياً للحفاظ عليها.

ظلت البيوت الدمشقية القديمة ماثراً إعجابنا جميعاً بعمارتها ، فهي تتيح لنا ركناً مشمساً هنا ، وركناً ظليلاً هناك. هنا نستمتع بالبحرات الداخلية ، وهناك بالأشجار وأحواض الزهور. فالبيوت الدمشقية القديمة مدرسة معمارية متميزة توحى للمهندسين المعماريين الحديثين بأفكار معمارية حية ، فلا عجب إذا ما وجدنا أن البيوت الدمشقية وقد وضعت في قالب حديث ، نشاهدها في كثير من الأبنية الحديثة.

إن مدينة دمشق كنز كبير. . فهي حضارة متكاملة بمختلف وجوها تقتضي منا كل رعاية وتطوير.

دمشق: أقدم مدن وعواصم العالم ، عاشت وما زالت تعيش حتى الآن.

دمشق: مهد الحضارات التاريخية ومنارة العلم والفن ، على مرّ العصور.

دمشق: موسوعة تاريخية غنية تحكي لنا قصماً كبيراً من تاريخ الإنسانية.

دمشق: موسوعة تاريخية للأنظمة العمرانية والتخطيطية منذ آلاف السنين.

ويتمركز معظم هذا الفن التاريخي الكبير في المدينة القديمة لدمشق التي أصبحت عاجزة عن حضان هذا الفن ، وأصبحت تعاني الكثير من المشاكل التخطيطية والفنية. إن إلقاء نظرة واعية على المدينة القديمة في دمشق ، يجعلنا نرى أن هذه المدينة تتعرض لتشوهات كبيرة ، وبشكل عام يجب معالجة المدينة القديمة بشكل كلي مع أخذ الناحية الفنية والاجتماعية بعين الاعتبار ، والعمل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه مما تبقى منها.

هذا وينبغي علينا أن لا نكتفي بالمدينة القديمة ضمن السور ، بل علينا أن نحافظ على امتداداتها ، مثلاً ساروجة وضاحية الميدان القديمة وضاحية

الصالحية القديمة كلها مراكز تاريخية مليئة بالبيوت القديمة تجب المحافظة عليها وينبغي عدم تخريبها. إن ظاهرة تزايد السكان وهجر قلب المدينة ، أغرت السكان الزراعيين بالتدفق إلى الداخل ؛ لذلك ملؤوا البيوت القديمة بطبقات اجتماعية جديدة ليست لديها القابلية لصيانتها ؛ لأنها لا تشعر بانتمائها للمدينة القديمة .

أضف إلى أن سبب التلف العام أيضاً هو حالة البناء بحد ذاته ومواد بنائه .

إن أوسع عمل لإعادة الأحياء يجب أن يجري في مركز المدينة التاريخي هو ترميم معظم المنازل السكنية التالفة ، أو المنازل المستعملة لأغراض أخرى استناداً إلى برنامج إعادة الأحياء ، ويجب أن يتم كذلك تقييم وحماية جميع العناصر ذات القيمة الفنية والبيئية . ويجب أن تتم طريقة الترميم بالدراسة والمسح الكامل للمبنى ودراسة الوضع الأصلي . من خلال هذه المراحل تبدأ المدينة القديمة بتمثيل دورها بشكل هام في حياة المدينة كلها .

إن عدم وجود الوازع الفردي عند المواطن ، أدى إلى قيام الأفراد المتسلطين باستخدام الأبنية السكنية التي هجرها أصحابها كمكان لممارسة نشاطهم الصناعي أو الحرفي مما يؤدي إلى تاكلها أو يعرضها للحريق الذي يلتهمها وجوارها ، فكيف الحال إذا كانت هذه الأبنية السكنية ذات الالتصاق والتراكم الكبيرين قريبة من أبنية آثارنا جميعها بدون استثناء؟! .

نتذكر ، ونحن نناقش المدينة القديمة وبيوتها السكنية ، أنفسنا أطفالاً صغاراً ، نسير في دروبها ، ونعبر ساحاتها دونما وجل ، نتذكر أجدادنا وتراثنا ، ونتطلع إلى المستقبل بعين التفاؤل ، ونبني مستقبلنا ضمن برنامج واضح مرتبط بالمدينة العاصمة ذات القلب الأخوي الصادق الكبير ، الذي يضم بين جناحيه رؤى الأطفال . ونحن جميعاً لن نفقد الأمل في أن تبقى دمشق القديمة صامدة ريثما تقوم الأجيال الصاعدة من المعمارين والمهندسين والمفكرين بالتصدي للمؤامرة في المخطط التنظيمي . وتعد البيوت الدمشقية القديمة ثروة وطنية هامة ، لما تحتويه من عناصر معمارية نشأت وتطورت في

هذه المدينة العريقة ، على مدى مئات السنين ، فهي نتاج تفاعل الإنسان الدمشقي مع بيئته ومحيطه .

البيت الدمشقي مفخرة العمارة العربية ، ويعتبر البيت الدمشقي مأثرة من مآثر العمارة العربية ، بمواصفاته التي اكتسبها خلال قرون من الازدهار الحضاري ، بلغ خلالها فن العمارة الإسلامية القمة في الإبداع والتوزيع الوظيفي بشهادة المختصين في الغرب والشرق ، وفي الواقع يعتبر البيت الدمشقي القديم مؤسسة معمارية متميزة تنسجم مع فن العمارة الشرقية في مظهرها ومخططها ، فهو يعكس الحاجات الاجتماعية ويراعي التقاليد الإسلامية .

ولقد عمل الإنسان الدمشقي جاهداً لبيدع مكان مسكنه وإقامته ، بما يتناسب مع ظروف حياته الاجتماعية والدينية والمناخية ، وأضاف إليها لمسات فنية تزيد الدار جمالاً وروعة ، فهي تكاد تشبه العروس ؛ لما تحتويه من قاعات جميلة وفسحات أجمل ، تزينها عرائش الياسمين والورود وأغراس الليمون والكباد ، التي تتحلق حول بحرة رخامية ملونة لطيفة تتوسط الباحة الواسعة ، مما يجعل من البيت حديقة غناء وارفة الظلال . كانت الأدوات والأثاث في البيت مختلفة عما صارت إليه الآن ؛ ففي أواخر القرن الماضي كان مفتاح الباب الخارجي للدار طويلاً ، طوله شبر ، وكان يسمى السائط أي (الساقط) وكان مصنوعاً من الحديد الأسود ، وكان للباب (دأر) دقر من الخشب : قطعة خشب ضخمة كان نصفها يدخل في الحائط . (الجدار) وبعض الأبواب كان له (دأر) من الحديد ، وما كان للأبواب أجراس كهربائية ؛ لأن الكهرباء لم تكن قد عمّت المدينة ، وكان لباب بيتنا (سأطة) سقاطة كنا نستعملها في الدق على الباب ، وهي حلقة حديدية في حجم الأسوارة أو أكبر قليلاً ، معلقة في طرف ، وحررة من باقي الأطراف ، وكنا نهوي بها على قطعة من الحديد ، فتحدث صوتاً ، يعرف من في الداخل أن في الباب من يريد الدخول .

وغالباً ما كان البيت العربي يتألف من طابقين ، أرضي وعلوي ، وأحياناً

يكون له قبو يستخدم لادخار المونة ، وكان يسمى (بيت المونة) ، أو يكون له غرفة إضافية في الأعلى تسمى (الطيارة) وكانت تكثر في كل بيت السآيف (السقايف) جمع مفرده (سقيفة) ، لوضع الحطب الذي كان يستخدم في التدفئة والطبخ. وكان في المطبخ (كانون) توقد فيها النار للطبخ ، وكان لها مدخنة عالية تخترق الجدار من داخله. أو من التنك تتكئ على الجدار بشكل مكشوف ، وكان في كل مطبخ صندوق خشبي ، توضع فيه أدوات المطبخ ، بما في ذلك الطعام المسكوب في أطباق ، وكان هذا الصندوق يسمى (النملية) وكانت فتحات أبواب النملية مكسوة بالمناخل ، منعاً للحشرات والبرغش من الدخول إليها.

وكانت أدوات المطبخ كالقدور والأطباق من النحاس غالباً ، والميسورون كانوا يستخدمون أطباقاً من الخزف الأبيض الملون الجميل ، وكنا نسميه (المالئي) (الصيني نسبة إلى مكان تصنيعه) وكان بعض أدوات المطبخ من الخشب كالكبجاية والكفكير والمعالي أي (الملاعق) ، وكانت الكبجاية تستخدم لسكب الطعام بعد نضجه ، والكفكير لرفع الزفر عن الطعام أثناء الطبخ ، والمعلاة (بتقديم العين على اللام في التحريف الشعبي) لتناول الطعام ، لكن هذه كلها لم تكن من الخشب دائماً ، وكان في المطبخ منها ماكان مصنوعاً من النحاس أو من معادن أخرى .

وكان للبيوت العربية القديمة باحات سماوية كبيرة ، غالباً ماكانت البحرات تتوسطها ، وكان في صدر الباحة الليوان وهو غرفة مفتوحة من الجهة المتصلة بالباحة ، وكانت تستعمل في الصيف ، وكان لها من جهاتها الثلاث المغلقة مصاطب ، وأحياناً كانت توضع مصاطب خشبية يجلس عليها الأهل والأضياف في الأماسي والليالي الصيفية المقمرة ، وكانت تفرش بحشيات من الصوف أو القطن كانت تسمى (الطواطي) - مفردها (طوطاية) - وكان لها مساند من نوعها أو من القش ، والميسورون كانوا يغطون الحشيات بالسجاد .



وكان من متممات الليوان وجود بعض الطاولات الصغيرة ، التي كانت علب الدخان والكبريت وصحون السجاير توضع عليها وكانت الواحدة تسمى (السكملة أو الطربيزة) ، وكثيراً ما كانت السكملات مصنوعة من الخشب المصطف الجميل ، وكانت إنارة أرض الديار والليوان ، وقبلهما الدهليز الموصل إلى الباب الخارجي في البيوت العربية الكبيرة ، بقناديل فيها شموع ، أو تضاء بزيت الكاز ، أو بتعليق لوكسات (جمع لوكس) ، وكان الأغنياء يفتنونها ونورها قوي ، وتعمل بالكاز أو ببعض مشتقات البترول .

وغالباً ما كانت غرف الضيوف في الطابق الأرضي ، على كتف الليوان ، وكانت الغرفة الكبيرة تسمى (القاعة) ، وكانت تحتوي على طقم كنبات ، وكانت «الموضة» الكنبات المصطفة ، أي المصنوعة من الخشب المطعم بالصدف الأبيض ، وكان طقم الكنبات مؤلفاً من كنبتين كبيرتين تتسع كل منهما لثلاثة أشخاص ، ومن عشر كنبات فردية ، مع خزانة شاهقة الارتفاع في أعلاها تاج مصطف أيضاً وكانت بمرايا ، إما من الداخل أو من الخارج ، وكان للخزانة

دروج في أسفلها ، وكانت الخزائن أكثر أهمية ، كما كان عدد أبوابها كبيراً ، وكان لابد من وجود عدة سكمالات مصدفة مع طقم الكنبات ، وكان لبعض الطقومة (جمع طقم بالعامية الدارجة) صندوق مرتفع إلى أقل من ارتفاع قامة الإنسان ، بقليل ، له أدراج كثيرة ، وعلى سطحه رخامة بيضاء ، وكان يسمى (البيرو) - باللفظة الفرنسية نفسها وإن كان المعنى مختلفاً بعض الشيء - .

لكن القاعات لم تكن موجودة بالضرورة في كل بيت ، والفقراء كانوا يستقبلون الأضياف في غرف وضعت فيها مصاطب ، وعليها طواطي ، وغالباً ما كانت الطواطي تغطي بأغطية بيضاء ، وكانت تسدل على النوافذ ستائر من القماش الأبيض ، وفي مرحلة متأخرة استخدمت الأقمشة ذات الألوان وكانت هذه الستائر تسمى الجلايل (جمع مفردة جلالة) ، وكان إلى جانبي كل نافذة مسماران أو (عليقتان) مثبتتان في الحائط ، تعلق على كل منهما فجّتا الجلالة ، وكان تعليق الصور الفوتوغرافية على الجدران من متممات غرف الأضياف - أَوْض الضيوف كما كانوا يسمونها - وكان يندر ألا يعلق رب الأسرة صوراً لأبيه وجده في صدر الأوضة ، وتحتها صورته وصور أبنائه ، ولم يكن تعليق صور النساء في الغرف التي يدخلها الغرباء مستحباً أو شائعاً. وكان معروفاً تعليق يافطات مكتوبة بخطوط جميلة ، فيها آيات من القرآن الكريم ، يحرص أهل البيت على تعليقها تبركاً ، وكان في مقدمة هذه اليافطات لفظ الجلالة (الله) واسم النبي محمد ﷺ ، وآية الكرسي والبسملة وسورة الفاتحة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وبعض الآيات مثل ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ وغيرها .

وكانت القاعات ، بل معظم الغرف لا تخلو من المصاحف ، وكان المصحف الشريف في القاعة يوضع مفتوحاً على كرسي خاص به ، يسمى (كرسي المصحف) وكان يصنع من الخشب ، وأحياناً من الخشب المصدف ، وهذا الكرسي عبارة عن لوحين خشبيين متداخلين ، متصلين بمفصلات لفتحه وإغلاقه ، وكانت جدران الغرف ذات تجويفات ، ففي القاعات كانت التجويفات ذات رفوف ، وكانت تسمى (الكتابي) - مفردها كُتَيْبَة - وكانت

توضع فيها الكتب أو الأنتيكات (التحف الثمينة) ، كالصيني الذي كان شائعاً وثمانياً أيام زمان ، وثمة تجويفات في الغرف الأخرى ، وخاصة غرف النوم ، وكان واحداً يسمى (اليوك) وكانت الفرش (الفرشات بالعامية) والمخدات واللحف والبطانيات وما يتصل بالنوم ، توضع في (اليوك) وتسدل عليها الستائر .

وكان يتدلى في الباحة السماوية في كل دار من الدور القديمة ، حتى لو كانت صغيرة (الكبك) وهو دائرة حديدية مقسمة إلى أقسام ، يوضع في كل منها طبق أو قدر صغير أو أكثر ، فيها طعام يجب تعريضه للهواء ؛ لئلا يخم في الصيف خاصة ، ولئلا يتعرض لغزو القمط أو بعض الحشرات . كان الكبك أيام زمان التي ابتدعها الفكر الشعبي بالتجربة .

وكانت شقف الزريعة (أصص المزروعات البيتية) تملأ الباحة السماوية ، ومنها ما كان يوضع على حافات البحرة - في حال وجودها - ومنها ما كان يصف إلى الجدران ، وتعتني بها سيدات البيت ، وكان الياسمين بشجيراته المختلفة ، أي بأنواعه ، يتسلق الجدران من أحواضه في صحن الدار إلى الطابق العلوي ، وكان الياسمين الأبيض ذو الرائحة الذكية سائداً ومألوفاً وكثيراً في بيوت دمشق ، وأقل منه الياسمين العراتلي الذي كانت له رائحة زكية ، ولكن مختلفة ، وما كان بيت يخلو من شقف الورد بأنواعه ، حتى ولو كان بيت فقير ، وكان من أنواع الزريعة التي ألقت عيناى رؤيتها في بيتنا في حي القيمرية : الختمية ، والهوى ، والكلونية ، والمكحلة ، والريحان ، وتم السمكة (فم السمكة) ، والخبيزة ذات الرائحة ، وهو غير نبات الخبيزة الذي يؤكل ، والسجادة ، وكان يشبه السجاد ، والبكونيا (بالكاف المفخمة) ، والأرطاسية ، والجميل ، وآه ياأنا ، والفل ، والشقشقيق ، وكان من مهام ستات البيوت الاعتناء بشقف الزريعة وسقايتها ، وتشذيبها وتغيير ترابها (الذي كان يبيعه بائع خاص يطوف الحارات بدابته) منادياً عليه .



فناء بيت دمشقي في حي الشاغور ، زقاق الشيخ عبد الله

كانت هذه النباتات تُزرع للمنظر للترويح عن النفس ، ولشم رائحتها الجميلة ، ويصعب عليّ الآن تعداد جميع الأنواع لكنني أتذكر -بالإضافة إلى ما ذكرت- نبات الدادا والحبق والقرنفل والمتور والشب الظريف ، وأتذكر الأشجار المثمرة التي كان بعضها موجوداً في كل بيت عربي تقريباً ، والواقع أن النبات في منازلنا أيام زمان كان مقسماً دون قصد إلى ثلاثة أقسام ، قسم يؤكل ، أعني الأشجار المثمرة وفي مقدمتها شجرة العنب أي (الدالية) التي كانت تُعرش ، وكان العنب بأنواعه المختلفة موجوداً في بعض البيوت ، وشجر الليمون بنوعيه الحامض والحلو ، والنارنج والكباد .

وكان أهلنا يصنعون من قشرهما معقوداً (أي مربى) وشجر الأكي دنيا ، وكانت هذه التسمية تلفظ بإضافة نون إلى أكى ، أي أنكي دنيا . وكنا نسميه أيضاً (شمش هندي) وشجر البرتقال واليوسف أفندي ، والجانرك والشمش بأنواعه ، وفي بعض البيوت كانت شجرة الخرمة مألوفة ومثمرة ، وكنا نسميها (درازين خرمسي) وثمرها لا يؤكل إلا إذا نضج تماماً ، وأكله غير ناضج يلف اللسان .



بيت آل الإيش في حي سوق ساروجا

وكان القسم الثاني يزرع في البيت بقصد الاستفادة منه للتداوي كالمليسة والخبيزة والختمية والبيلسان والزيزفون ، وغيرها ، ومعظم هذه المزروعات ذات أوراق تُغلى قبل الاستعمال ، وغالباً ما كان مغليه فعلاً وخاصة ضد السعال والزكام والبرد ، وأذكر أن أهلنا كانوا يغلون الليمون الحلو الناعم ويسقوننا منه ، وكان يقضي على السعال .

وكان القسم الثالث من مزروعات البيوت الدمشقية للترويح عن النفس ، ولشم رائحته ، وكم كان أهلنا يؤنبوننا إذا قطعنا فلة لم تنضج ، كان الفل واحداً من أهم المزروعات ذات الرائحة في بيوت دمشق ، وكان الياسمين ينافسه بامتداده على الجدران من تحت إلى أعلى نقطة في البيت ، وكان الياسمين أبيض وأصفر ، ومنه نوع ثالث اسمه (العرايلي) كما ذكرت ، وكان مألوفاً في بيوتنا وله رائحة جميلة ، وكان الورد بأنواعه يُزرع في البيوت ، وأهمه الورد

الجوري ذو الرائحة الرائعة التي لم يكن لها مثيل في أي ورد آخر واسمه المتعارف عليه (الوردة الشامية).



وكان البيت العربي ذا طابقين ، وكان الدرج الحجري أو الخشبي يصل ما بينهما ، وفي منتصف الدرج كانت (النصيّة) وهي غرفة صغيرة ذات استعمالات شتّى ، وفي بعض البيوت لم تكن موجودة ، وكانت غرف النوم والقعود في الطابق العلوي ، وفي الشتاء كنّا نسدل على أبوابها ستائر سميقة ومبطنة ؛ لحفظ حرارتها ، وغالباً ما كانت غرف القعود خاصة تضم مدافئ من الحديد أو من التنك في بيوت الفقراء ، يُشعل الحطب فيها ، وكان الجمر ينقل من المدافئ إلى المناقل بالكريك (وسيلة لحمل مثل هذه المواد وغيرها) ، وكنّا نستعين بملاقط طويلة لتحريك النار والتقاط الجمر .

وبعض الفقراء ممن لا يقدر على شراء المدفأة - وكنّا نسميها (الصوبا) - كان يستعمل المنقل في التدفئة ، وبعض المناقل كان من النحاس ، وكان يوضع

على صينية من المعدن نفسه ، وبعض المناقل كان من التنك ، وكنا نشعل فيه الفحم خارج الغرف ؛ لئلا نتفحم ، أي لئلا نصاب بالاختناق ، وكان من بواكير المعارف التي كنا نتعلمها من الأهل ألا ندخل المنقل إلى الغرف قبل نضج الفحم تماماً ، وكان من أصول إشعال الفحم أن يوضع على طبقة من (الدق) ، وهو مكسور بزر المشمش المتفحم ، وكان يباع في الدكاكين التي يباع فيها الفحم ، وكان يفرش فوق (صفوة) المنقل ، أي رماده ، وفوقه يوضع الفحم المشتعل ، وكان اشتعال الدق بطيئاً ، وكان يحتفظ بالحرارة ساعات ، وكثيراً ما كنا نغطي الفحم والدق بالصفوة عند النوم ، وكنا نعود إلى المنقل في الصباح فنفض الصفوة عنهما ونعود فتلذذ بدفئتهما .

وكان الباب الخارجي لكل بيت من بيوتنا أيام زمان يسمى (باب الزقاق) - الصاء بالعامية الدارجة - وكان رتاج البيت يربط بحبل أحياناً ، ويمتد الحبل إلى الطابق العلوي ويربط بدرابزين المشرقة . (المشرأة بالعامية الدارجة) ، وكان إذا دق أحد على الباب بالسقطة ، وسأله السائل أو السائلة ، من هو (مين عم يدق) ويتيقن من هويته ، شدّ الحبل من مكانه ، وفتح الباب ، وكان هذا الابتكار يريحنا من النزول لفتح الباب ، وخاصة في الشتاء ؛ أي في أيام البرد والمطر ، ويمثل هذا الابتكار ابتكاراً آخر كان يعتمد على حبل طويل أيضاً ، وكانت المرأة في بيتها وأحياناً الرجل ، يشتريان سلعة من شليف (الشليف ، الرجل يبيع بعض المواد على شليف موضوع على دابة) وهي في مكانها وراء الشباك ، وبالتحديد وراء الخص ، وهو النافذة المطلة على الزقاق ، فإذا تمت الصفقة ، وضع البائع السلعة في سلة مربوطة بحبل طويل ، كانت المرأة أنزلتها من الخص ، إلى حيث البائع ، وكانت المرأة تشد الحبل وتستعيد السلة إلى حيث هي وراء الخص وتستلم السلعة وتدفع الثمن بوضع النقود في السلة وإنزالها إليه .

وفي أيام الصيف كان النوم على السطوح جزءاً من طقوس الصيف في بيوتنا الدمشقية كنا نمد الفرشات ونضع المخدات تحت رؤوسنا ونغطي أجسامنا بالشراشف وننام ، وكان السطح يسمى بالعامية (الأسطوح) - وجمعه أساطيح

بالعامية الدمشقية - وكان يفصل بين أسطوحنا وأسطوح الجيران جدار كنا نسقيه الطلبة ، وكثيراً ما كان نسوة في بيتين متجاورين يتحدثن عبرها ، وكان الأسطوح المكان الطبيعي لنشر الغسيل ، تضع المرأة على رأسها منديلاً ؛ لئلا يراها جار ، وتصعد بغسيلها إلى السطح لتشره على حبال ممددة بين طبله وأخرى .

كان غسيل الثياب يتم في المطبخ أو في أرض الديار ، وكانت تنكة الماء توضع على بابور الكاز ؛ لتسخين الماء ، وكان طبق الغسيل أو طشت الغسيل ، يوضع على الأرض بين ساقَي المرأة ، التي كانت تدعك غسيلها ، بالماء الساخن والصابون (تماً أو تمين أو ثلاثة) ، وبعد التأكد من نظافته كانت تفضيه بالماء البارد ، وفض الغسيل هو رفع بقايا الصابون عنه ، ثم تسبعه ، أي تمرر الماء عليه سبع مرات للطهارة ، والتسبيع آخر مرحلة في الغسيل قبل النشر .

وكان الاستحمام يتم بالطريقة نفسها ، في المطبخ أو في أرض الديار لمن ليس في بيته حمام ، وكان الحمام البيتي نادراً وجميعنا كنا نذهب إلى حمام السوق ، وعند الاغتسال كانت تنكة الماء توضع على بابور الكاز أيضاً وكان يضاف إلى الماء الساخن ماء بارد ، يوضع سلفاً في طشت أو قدر أو طبق الغسيل نفسه ، وكانت العادة أن يدعك المغتسل رأسه بالماء والصابون عدة مرات ، أي (تمين أو ثلاثة) ، و(التم) للغسيل والاعتسال يعني المرة الواحدة .

وكنا نستخدم كيس الحمام ؛ لحك جلودنا وإخراج (فتايل) الوسخ منها ، وكانت هذه العملية تسمى (التفريك) ، وبعد ذلك نليف أجسامنا بالليفة والصابون ، وكانت تسمى (التليف) ، وكانت أمهاتنا يقمن بتغسيلنا ونحن صغار ، وفي يفاعتنا صرن يكتفين بفرك ظهورنا وتليفها ، على الرغم من معارضتنا الشديدة .

كنا أيام زمان نخلع قباقيتنا أو نعالنا على عتبات الغرف ، ولا ندخل بها حرصاً على الطهارة والنظافة .

وكان المتدينون يلبسون فوق أحذيتهم ما يسمى بـ (الصب) وهو حذاء من الكاوتشوك كانوا يخلعونه في المسجد ، أو عند العتبات ، كما سبق

وذكرنا ، ومن شدة البرد في الشتاء أهلنا يحيكون لنا الألاشين (مفردها :
ألشين) ويلبسونها في أرجلهم فوق الجراب . وكان من عادات أهلنا أن يضعوا
ماء الشرب في جرار صغيرة من الفخار غالباً ، وكانت تسمى واحدها (الشربة)
باللغة الدارجة ، وكانوا من وصاياهم لنا ألا نتركها مكشوفة ، خشية أن تتسلل
إليها حشرة سامة ، وكان من عادتهم أن يكسروا الجرة عندما يغادرهم ضيف أو
زائر غير مرغوب فيه ، والشرب من فم الجرة مألوف ، وكانت تنتقل من فم إلى
آخر ، وبعضنا كان يأنف من هذه المشاركة ، وكان يشرب الماء بالكاسة البلور
أو بالكاسة النحاس . وكان أجودها الطاسة المكاوية ؛ أي المنسوبة إلى مكة
المكرمة ، وكان محفوراً عليها بعض الآيات القرآنية الكريمة .

كانت بيوتنا العربية القديمة لا تخلو من بعض الحشرات ، وفي الصيف
كانت الأفاعي تظهر وكنا نسميها (الحيايا) مفردها (حية) والشجاع منا من كان
يلاحقها ويقتلها بعضاً أو بحجر ، هذا إذا أدركها ، وكنا نرى بعض العقارب
وبعض العناكب وكنا نسميها العراويل مفردها (عرتيلة) فنقتلها إن استطعنا ،
وكانت السحالي تتسلق الجدران وكنا نسمي الواحدة منها (أبو أريص) وكان
دمها غير مستباح لأمر ما ، مازلت أجهل حقيقته إلى اليوم . كان أهلنا ينهوننا
عن قتل أبو أريص ، ربما لأنه غير مؤذ ، أو لأنه شوهد في فم الغار الذي التجأ
إليه الرسول ﷺ عندما لاحقه المشركون ، كما قيل لي مرة؟!

وكانت الزنابير ، أي الدبابير والزلاقط بالاسم الدارج لها ، تتخذ أعشاشاً
لها في جدران بيوتنا العالية ، وتكثر إلى حد أنها كانت تهددنا بغارات دائمة
علينا في غرفنا أحياناً ، وكان القضاء على هذه الأعشاش يتم بحرقها ، ويحتاج
من كان يحرقها إلى خبرة ، وإلى غطاء للرأس والوجه واليدين ، خشية هجوم
الزنابير عليه أثناء خروجها من العش المحترق . وكانت أسر كثيرة مغرمة بتربية
القطط في البيوت ، إما للاستمتاع بعشرة هذه الحيوانات الجميلة ، أو لملاحقة
الحشرات المؤذية والفئران والجرذان ، عندما كانت المصائد لا تفي بهذا
الغرض ، وكان أهلنا يحتفون بالقطط ، ويدللونها ويعلمونها على مكان معين
تنام فيه ، أو على حوض الزريعة لقضاء حاجتها ، وكم من مرة أرسلنا أهلنا

لنجلب بقايا اللحم لقططنا ، وكنا نسمي البقايا (الشخت) مفردها بالعامية : شخته ، وللقطط الصغار كنا نجلب الحليب ، وكنا نضع حول أعناق القطط أطواق الخرز والشرائط الملونة تجميلاً لها وتديلاً .

وكانت للبيت سياسة اقتصادية ثابتة ، وهي سياسة الاكتفاء الذاتي ، كان أهلنا مثلهم مثل الناس جميعاً في دمشق ، يشترون الزيتون فجاً ، ويحلونه في البيت بوضعه في الماء شهرين أو ثلاثة إلى أن (يورق الصفصاف) - أي إلى آذار - وبعدئذ كانوا يضيفون الملح إليه ، ويغرون ماءه كل يومين ، وكان لكل نوع من الزيتون طريقة إعداد ، فالزيتون الأخضر أي (المكلس) كان يوضع في رائق الكلس ، وكان أهل البيت جميعاً يشتركون في تحريكه حتى تذهب مرارة الزيتون ويصبح حلو المذاق ، وكانت الأسر تصنع المخمل والمكدوس ، وهو الباذنجان المحشو بالجوز والثوم ، وكان يغطس في الزيت ، بعد طب قطرميزاته أياماً ، وتصنع (مئة البندورة) من عصير البندورة ، بعد تمليح العصير ونشره على السطح .

وكانوا يصنعون (المعقود) بأنواعه - أي المربي - فمن المشمش البلدي يصنعون المعقود الصحيح ، أي المعقود الذي يُبقي على حبات المشمش صحيحة ، ومن المشمش الكلابي كانوا يصنعون (المعقود الممروت) أي (المعقود المعصور) وكانوا يصنعون من معظم الفاكهة الشامية ، وبعض الخضار مربيات ، ولصنعها طرائق معروفة تورثها الأم إلى ابنتها ، وكان تبيس الخضار معمولاً به على نطاق واسع ؛ لأكلها في المواسم التي لا توجد فيها ، كالبامية والفاصولياء الحب والملوخية والننع والطرخون .

وكان الرجل إذا دخل بيتاً ، حتى ولو كان صاحب البيت موجوداً يقول : يا الله ، منبهاً حتى تختبئ النساء ، أو حتى يعرفن أن غريباً يدخل ، وإذا ما كان قريباً ، لكنها قرابة تدعو إلى وضع الحاسرات أغطية على رؤوسهن ، كان لفظ الجلالة (ياالله) ينبههن أيضاً ، فيهرعن إلى الإشارات ، وكن يسمينها : الإشارات - مفردها (إشار) ويضعنها على رؤوسهن ، وكان الرجال يستعملون الكلمة دائماً في البيت المشترك ، أي في البيت الذي كانت تسكنه أكثر من

أسرة ، كان استئجار البيت الواحد من قبل أسرتين أو ثلاثة أسر ، اقتصاداً في الإنفاق ، أو بسبب عدم القدرة على دفع أجرة بيت كامل ، وكان معروفاً وسائداً ونظماً معمولاً به في حاراتنا الفقيرة .

وكان المؤلف أن يتقاسم البيت أسر مختلفة ، بل كان المؤلف أن تستأجر الأسرة غرفة أو غرفتين في بيت ، أي جزءاً منه ، في حين يشغل غرفة أو اثنتين أسرة ثانية ، ويشغل الباقي من الغرف أسرة ثالثة ، وكان على هذه الأسر أن تتعايش في البيت ، وأن تستخدم مرافقه بشكل مشترك ، وكانت تنظم مواعيد دخول كل أسرة إلى المطبخ ، هذا إذا لم تكن كل أسرة أو بعض الأسر يقوم بالطبخ داخل غرفته ، وكان العرف ألا ينكشف النساء على الرجال الغرباء ، فكان خروج الرجل حتى من غرفته يُسبق بإنذار الجارات اللواتي في صحن الدار : (يا الله) وكان دخوله يُسبق بالتنبيه نفسه .

نظام اجتماعي اقتضته ظروف المشاركة في البيت الواحد أيام زمان ، لكن الاتجاه إلى الاستقلال ببيت طغى فيما بعد .

وكانت البيوت أيام زمان ، خلواً من الحمامات ، وكانت العادة أن يستحم الجميع في حمامات خارجية ؛ أي في حمامات السوق كما كانت تسمى ، وكان للذهاب إلى الحمام طقوسه ، وخاصة عند النساء ؛ كان لنساء الأسرة ، أو للمرأة الواحدة ، بقجة تصرّ فيها ثيابها النظيفة ، وتصرّ فيها عند العودة ثيابها الوسخة ، وكانت البقجة مخططة من قماش جيد ، وأحياناً مطرزة لأن بقج النساء كانت تدل على منزلتهن الاجتماعية ، وبعض الأسر كانت تحمل طعماً إلى الحمام ، وكم من مرة أكلن المجردة ومخلل اللفت ، وكنا نسميها (طواحين المخلل) مع أمهاتنا وأخواتنا في الحمام ، عندما كنّ يصحبنا . وكان هناك سن معينة لدخول الأطفال مع النساء إلى الحمام ، فإذا كبروا ؛ أي تجاوزوا السابعة ، مُنعوا من الدخول مع النساء واصطحبهم الرجال إليه في الأوقات المحددة لهم ، وكان مشهد النساء في المساء وهن يخرجن من الحمام لافتاً ببشراتهن الموردة ، ووجوههن المحمرة التي كانت لا تخفى علينا حتى من خلف المناديل المسدلة ، وكانت البقجة المحمولة تحت الإبط مما يدل

على الذهاب والعودة إلى الحمام ومنه ، وكثيراً ما كان شباب أيام زمان يمازحن النساء بأغنية معروفة إلى اليوم :

يا رايحة عالحمّام خديني معاك

لاحمل البقجة وامشي وراك

وإن كان أبوك ما عطاني ياك

لاعمل عمايل ما عملها عنتر

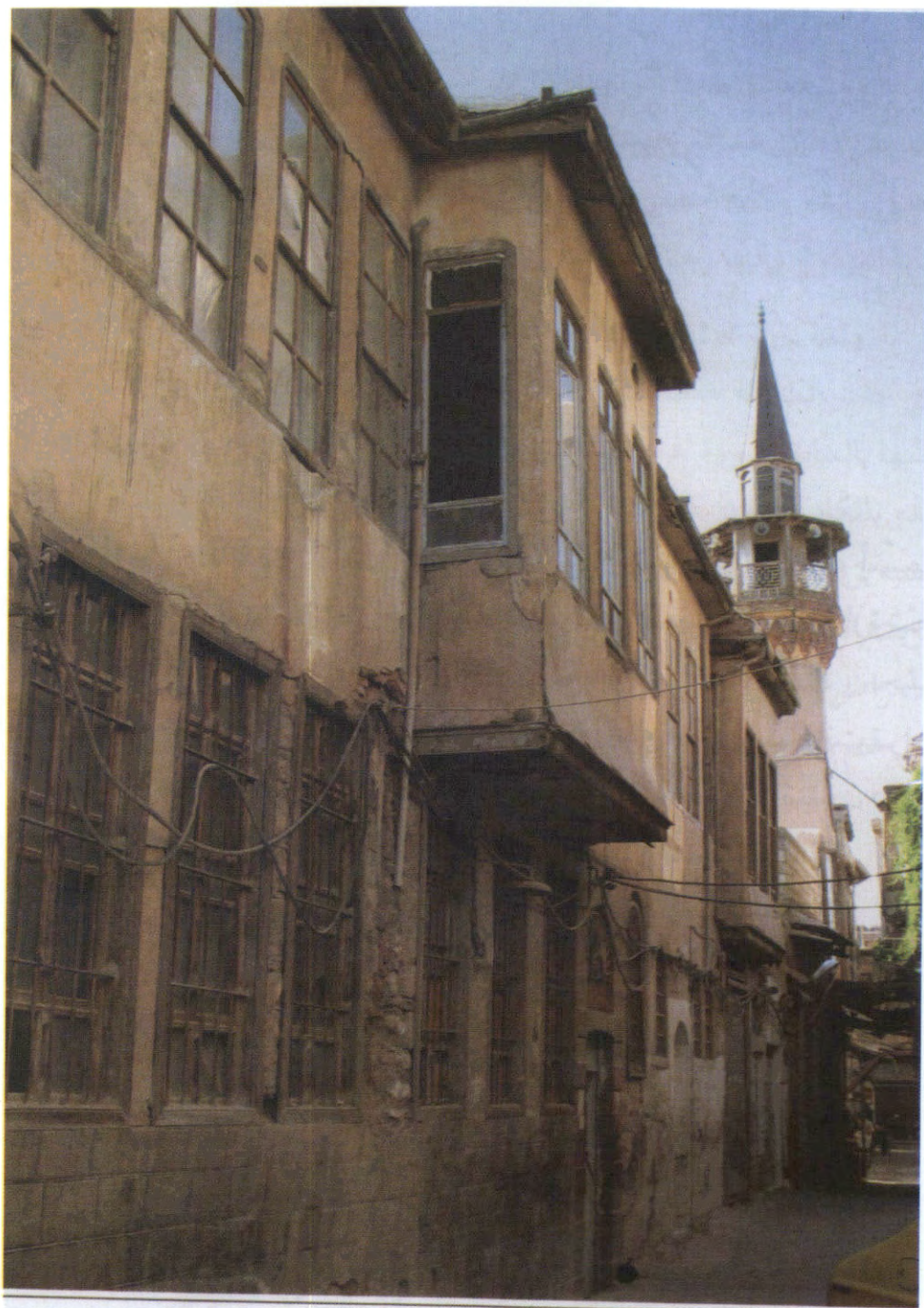
كانت النساء يصلين في المسجد في أماكن مخصصة لهن ، وكن يصلين في البيوت غالباً ، ويخطن سجادات الصلاة بأنفسهن ، يضعن قصاصة من القماش بشكل هلال على السجادة المخيطة ؛ للدلالة على مكان وضع الجبين عند السجود وكان للصلاة ثيابها الخاصة ، خرّاطة طويلة ومزومة عند الخصر ، ومنديل أبيض طويل يوضع على الرأس ، وكانت تستعمله أكثر من امرأة ، كلما جاء وقت الصلاة . وكانت الفتاة تخرج من البيت حاسرة حتى سن الخامسة ، أو حتى سن السابعة في بعض الأسر ، لكنها تغطي رأسها بمنديل أو بإيشارب بعد تلك السن ، وعندما كانت تبلغ العاشرة أو بعضها كانت ترتدي الملاية كالكبيرات ، وعادة خروج النساء بلا جوارب لم تكن معروفة ، بل كانت شاذة جداً ومعيبة .

كان البيت الدمشقي حياة المرأة ، والمكان الأوحده الذي تسرح وتمرح فيه بحريّة ، وبلا قيود ، إلا القيود الاجتماعية ، ولم يكن معروفاً عمل المرأة الدمشقية خارج البيت ، إلا في حدود ضيقة ، وفي أعمال وقف على النساء كلفة .

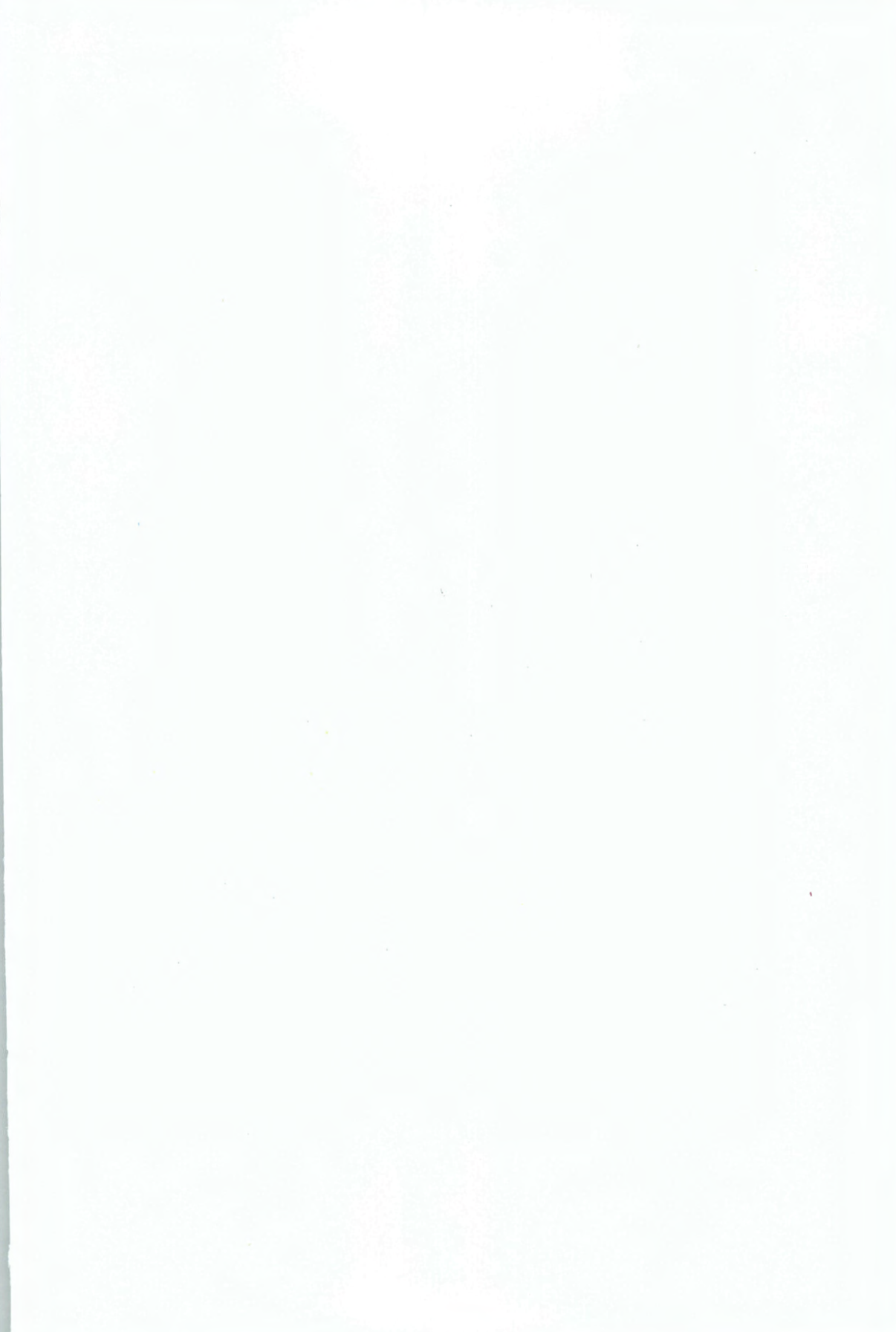
والبيت الدمشقي أمام هذه الجماليات الروحية والزخرفية والنقوش البديعة ، يأتي عامل الزمن ليقف عائناً قوياً متحدداً مع المناخ والظروف البيئية ليهدد ما ابتدعته الأيدي البارة ، وهنا لابد من فعل شيء للحفاظ على تلك الكنوز الغالية ، ولابد من طريقة لإعادة الحياة إليها .

ونجد إلى الآن آثاراً فنية ضمن البيوت الدمشقية القديمة رغم ما تعرضت له من اعتداءات أيام الانتداب الفرنسي ، أو بسبب تضررها من التنظيم المدني والعمراني من جهة أخرى ، فتلك الآثار من الأخشاب المزخرفة بالدهان العجمي والتي لم تزل تحافظ على الكثير من رونقها وبهائها رغم طول ما مر عليها من سنين ، موضع إعجاب الكثير من الأوروبيين والعرب ، ومن أهم تلك الآثار الباقية حتى الآن السقف الأوسط في الجامع الأموي ، وقصر العظم ، وبيت نظام ، وبيت المجلد ، وبيوت عديدة أخرى في دمشق سبق ذكرها .

إن الأوابد التاريخية هي امتداد لماضيها وتاريخها ومستقبلنا ، ولذلك علينا احترام هذه الأعمال وصيانتها والحفاظ عليها وترميمها بعناية وحذر واحترام . والبيت الدمشقي يشكل جزءاً من هوية هذه المدينة التراثية ، لذلك لابد من العمل للحفاظ على هذا التراث وحماية الأوابد التاريخية ، وهو ما يعتبر من أوليات عمل الجهات المعنية سواء الرسمية أو الجمعيات الأهلية ؛ للاعتناء أكثر والحفاظ على هوية هذه المدينة .



زقاق بين القبرين في حي العقبة





تطور دمشق عبر العصور التاريخية

خاصية العمارة الدمشقية ومزايا تطورها المدني





دمشق مدينة قديمة!

فلو كانت الجنة على الأرض لكانت دمشق .

ولو كانت الجنة في السماوات لكانت دمشق نسخة عنها .

داماسك (من الكلمة العربية - دمشق ، شام شريف ، الشام القديم) إحدى أقدم مدن العالم . حيث لا توجد في أي مكان في العالم مدينة بمثل هذا الاندماج مابين ثقافات الشرق والغرب ، في القرن السادس عشر قبل الميلاد وصل الحثيون الذين عاشوا في الأناضول وشمالى سورية إلى هذه البلدة ، وأطلقوا عليها بلغتهم اسم (داماشيناس) وبعد مرور (١٥٠) عاماً أطلق المصريون على هذه المدينة التي حكموها تسمية (داماسكو) ، وهي قرية جداً من التسمية المعاصرة (Damascus) ، وهناك رأي يقول بأن تسمية المدينة (دمشق) تعود إلى التركيب اللفظي الآرامي (الدار المسكي) - (البيت الذي يحتوي على الماء).

عاصمة سورية هي دمشق التي تقع على ارتفاع (٦٩٠) م فوق سطح البحر وتبعد (١٠٠) كم عن شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، تعتبر دمشق أقدم عاصمة في العالم مأهولة ، وأكثرها روعة ، تلتصق بجبل قاسيون وتحيط بها واحة الغوطة (التي بدأت خضرتها تنحسر وبدأ المد العمراني يكتسحها) وقد بنيت على نهر بردى (الذي يعني النهر البارد). يبلغ طول نهر بردى (٤٠) كم في منطقة دمشق ، حاملاً معه برودة جبال لبنان ، ويشكل الجنة الثانية على الأرض . وحتى يومنا هذا تعتبر مدينة دمشق المدينة الأكثر اخضراراً في الشرق الأوسط العربي ، هذا مع العلم أن نهر بردى في الوقت الحاضر لم يعد مليئاً بالماء كما كان في العهود السابقة .

ومدينة دمشق تتمتع بالفصول الأربعة .

تحدد الحروب تاريخ أية دولة ، وتطور الدولة يمر من حرب إلى حرب ، وهذا واضح بجلاء عبر مثال تاريخ سورية كثير المعاناة . لعبت دمشق دوراً

استثنائياً في تكوين حضارات كثيرة: (أبصرت دمشق انقراض مئات الإمبراطوريات ، فيجب أن يطلق بحق على دمشق (النواة) أو (القلب) بدلاً من القديمة ، تسمية المدينة الخالدة) كما كتب مارك توين .

تطورت العمارة الدمشقية كجزء من المركب الحضاري - الثقافي - التاريخي القائم على الأراضي المعاصرة للبنان والأردن وفلسطين ، وعلى الأخص أراضي سورية وجنوبي تركيا ، لذلك فإن هذه المدينة تعتبر صفحة هامة في التاريخ القديم للشرق الأوسط . الموقع الجغرافي على تقاطع أهم الطرق التجارية للغرب والشرق ، أدى إلى إدخال تأثيرات فنية متعددة إلى الفن السوري ، وإلى ارتباط وثيق مع التقاليد المحلية ، كل ذلك قد ظهر في عمارة وفن دمشق .

سمحت دمشق من خلالها بعبور حضارات كثيرة:

السلالات الملكية الحثية والمصرية والآرامية . فقد ذكرت دمشق في النصوص المصرية للسلالة الملكية الفرعونية الثامنة عشرة ، وفي اللوحات الآشورية ، وفي الكتاب المقدس (سفر التكوين - ١٤ - ١٥) . كان الأموريون هم السكان الأصليين لدمشق قبل العهد الآرامي . واحد من أوائل مباني دمشق كان المعبد الوثني والقلعة مع سور القلعة . وفي القرن السادس عشر حتى القرن الخامس عشر قبل الميلاد تعرضت سورية لغزو الفراعنة المصريين ، وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد خضع قسمها الشمالي للحثيين .

وهنالك ذكر حول الآراميين ، يعود إلى فترة سابقة بكثير ذات علاقة بزمان سلطة سلالة سارغون عقاد في القرن الرابع عشر قبل الميلاد التي حكمت في بلاد ما بين النهرين ، واقعياً دخلت المدينة في التاريخ في عهد سولومون (سنة ٩٤٠ قبل الميلاد) ، عندما أصبحت دمشق عاصمة الدولة الآرامية وبلغت في هذه الفترة أوج ازدهارها . الأثر الفريد في نوعه الذي يدل على مبنى سكني لدمشق الآرامية ، يمكن أن يكون النموذج المصغر (ماكيت) للبيت السكني (عام ١٢٠٠ قبل الميلاد) الموجود في المتحف الوطني السوري في مدينة دمشق .

وفي بداية القرن العاشر قبل الميلاد تأسست على الأراضي السورية دولة قوية . كانت دمشق عاصمة لهذه الدولة . من ذلك العهد الغابر لم يبق سوى أثر مادي واحد وهو عبارة عن لوحة بازلتية مع نحت بارز ، حيث عثروا عليها أثناء ترميم الجامع الأموي ، بقيت اللوحة في أساس سور الجزء الشمالي من المدينة ، ويمثل أبو الهول مع عثنون مدبب وأجنحة مطوية وتاج مزدوج على الرأس . وبالحكم من خلال طابع التنفيذ فإن هذا العمل يعود لمعمارين فينيقيين (القرن التاسع قبل الميلاد).

غزا الآشوريون دمشق في القرن الثامن قبل الميلاد . ومن نهاية القرن السابع قبل الميلاد أصبحت سورية مقاطعة في المملكة البابلية الجديدة . وفي القرن السادس قبل الميلاد انتقلت لتصبح تحت حكم سلالة الأخمينيين الملكية الفارسية القديمة ، وقسم كبير من السكان تحول إلى نمط حياة حضري ، إضافة إلى أن ذلك قد جعلها باستمرار عرضة للغزاة الأجانب .

كتب الأكاديمي (ف. ستروفيه) أضعفت حملات القياصرة الآشوريين هجوم القبائل الرُّحَّل ، وبالوقت نفسه أنقذت المزروعات القديمة لمملكة آشور وسورية من الانحطاط المهدد لها . كتب العالم الإنكليزي (د. ديرينغر) بنتيجة الحملات السنوية تقريباً التي أتيح تعقبها على مدى ما يزيد عن قرن من الزمن ، هزمت الدول الآرامية الواحدة تلو الأخرى على يد الدولة الآشورية القوية ، ودمشق التي لم تستسلم على مدى عدة عقود من الزمن سقطت في عام (٧٣٢) قبل الميلاد وأصبحت خاضعة لحكم الآشوريين ، وبعد ذلك لم تتمكن من الحصول على استقلال سياسي . يعتبر العلماء بأنه في هذه الفترة على وجه التحديد اندمجت اللغة الآرامية مع اللغة الآشورية ، وأصبحت بهذا الشكل لغة الجماهير الشعبية في مملكة آشور ولغة التجارة من مصر حتى الهند . أما لغة السيد المسيح فكانت اللهجة الغربية الآشورية - الآرامية ، وقسم من الكتاب المقدس كتب بها ، كذلك فإن الإنجيل الأصلي قد كتب بهذه اللغة .

في عام (٣٣٣) قبل الميلاد تعرضت سورية لغزو الإسكندر المقدوني .

خلال حكم الإسكندر (العظيم) كان لدمشق كعاصمة لسورية أهمية كبيرة ، حيث إنه بعد انهيار إمبراطورية الإسكندر المقدوني أصبحت سورية مقاطعة ضمن الدولة الملكية الهلنستية الواسعة للسلوقيين ، أو المملكة السورية التي أسسها سلفوس الأول نيكاتور ، وانتقلت العاصمة إلى أنتيوخيا التي بناها .

أنشأ السلوقيون مدناً جديدة - وفق ما يسمى نظام هيودام - أحياء مستطيلة الشكل بنسبة أبعاد الجوانب (٢×٥) ، وهذا يمكن تعقبه في دمشق القديمة .

تمكنت القبائل العربية النبطية من الاستيلاء على دمشق في عام (٨٥) قبل الميلاد ، ولكن لفترة قصيرة إلى أن استولت على المدينة قوات بومبي .

في عام (٦٤) قبل الميلاد استولى الرومان على سورية وحكموا دمشق حتى فترة انقسام الإمبراطورية إلى قسمين :

الجزء الشرقي مع دمشق تحول إلى سلطة البيزنطيين في عام (٣٩٥) م . استمر الحكم البيزنطي حتى فتح العرب لهذا البلد في القرن السابع الميلادي ، في آذار عام (٦٣٤) م حاصرت القوات العربية بقيادة القائد خالد بن الوليد دمشق ، حيث توجه القائد إلى سكان دمشق قائلاً :

بسم الله الرحمن الرحيم

«إليكم ما يهديه خالد بن الوليد لسكان دمشق إن دخل إلى المدينة ، فهو يعد بإهدائهم الأمان لحياتهم وممتلكاتهم وكنائسهم . لن تدمر أسوار المدينة ، ولن يسكن المسلمون منازلهم . ومن تلك اللحظة سيكونون تحت رعاية الله ورسوله والخلفاء والمؤمنين ، وما داموا يدفعون الجزية لن يصيبهم أي مكروه» .

وباستلامهم السلطة سعى العرب المسلمون ليكونوا مدافعين عن جميع المسيحيين من الإمبراطورية البيزنطية ، محافظين على ما وعدوا به ، في عام (٦٦١) م أصبحت دمشق عاصمة للخلافة الأموية العربية حتى عام (٧٥٠) م ، عندما فقدت أهمية العاصمة ، لكنها بقيت مركزها الثقافي .

يعتبر اللاهوتي المسيحي الآشوري والكاتب الكنسي يوحنا - الدمشقي المشهور على مستوى العالم (٦٧٥ - ٧٥٣ م) - فخراً وشهرة دائمة لمدينة دمشق ،

حيث ولد في عائلة مسيحية آشورية وكان وزيراً لدى أحد الخلفاء العرب .
والمؤلفات التي كتبها مجّده ومجّدت مدينة دمشق . ومن بين مؤلفاته : مصدر
المعرفة المكون من ثلاثة أجزاء ، والديالكتيك ، وحول البدع والبيان الدقيق .
قدم في أعماله فكرة تتجلى في أن الفلسفة يجب أن تكون (خادمة لعلم اللاهوت) .
ترجم هذا العمل في القرن العاشر الميلادي إلى اللغة السلافية القديمة ، وفي
القرن الثاني عشر الميلادي ترجم إلى اللاتينية ، وفي القرن السادس عشر
ترجمت الكثير من أعمال يوحنا الدمشقي على يد الأمير أندريه كورباتسكي .

خصص الكاتب الروسي أ . ك . تولستوي هذه القصيدة ليوحنا الدمشقي
تحت اسم (يوحنا الدمشقي) :

حبيب الخليفة يوحنا
له الإكرام واللفظ
لشؤون الحكم مدعو
هو المسيحي الوحيد
من أفتن دمشق
عينه الحاكم
مديراً للحكمة وإدارة المدينة
يجلس قرب في المجلس
محاطاً بقصوره
وبجنانه العطرة
ترايبع تحت السماء الزرقاء
جدران مرصعة بالعنبر
وظلال وارفة ظهرأ لسقائف من حرير
في حمامات مزخرفة ليل نهار
تدوي نوافير باردة

في دمشق وعلى مدى عصور متعددة عاش وأبدع فلاسفة وشعراء وكتاب
مشهورون آخرون .

الخلفاء من سلالة الأمويين الحاكمة كانوا صبورين تجاه المسيحيين ، الذين بلغ عددهم حوالي نصف سكان المدينة . وبعدما تولت سلالة العباسيين الخلافة (٧٥٠ - ١٢٥٨ م) سعت لسحب جميع المزايا من المسيحيين ، حيث راحوا يمارسون الاضطهاد ضدهم ، وازداد عدد اليائسين من السلطة . في نهاية المطاف - كتب الصحفي السوفييتي والكاتب (غ. تيمكين): قرر الخليفة هارون الرشيد الكريم والشهير (٧٦٦ - ٨٠٩ م) ضبط النظام فأرسل إلى هناك قوات بقيادة القائد العسكري البرمكي ، ولا بد من معاقبة مثيري الفتنة ، وأمر بتدمير جميع الكنائس ، وأن يرتدي أفراد الطائفة المسيحية لباساً مميزاً . فازداد الضغط على المسيحيين ، فإما هاجروا أو اعتنقوا الإسلام . وأبعدت لغة القرآن اللغة السورية المنحدرة من لغة الآراميين وحتى نهاية القرن الثالث عشر تحولت سورية بالكامل عملياً إلى اللغة العربية .

دمشق تمكنت من صد الفرنجة ، واعتبرت المدينة أن مهمتها تكمن في تطوير التجارة والحرف اليدوية ، وأنواع أخرى من الفنون . وقد حافظ الدمشقيون على مدى مئات السنين على تقاليدهم في صناعة الفولاذ الدمشقي ، والنصل والسجاد وتطريز القماش والمصنوعات الذهبية ، وانتقلت مهارة الصنع عبر الأجيال من الآباء إلى الأبناء .

حان الوقت نسبياً لانقضاء الحياة الهادئة ، وذلك عندما وصلت قوات تيمورلنك في عام (١٤٠٠ م) إلى دمشق ، التي حاولت الصمود في وجه الغزو لمدة شهر ، ولكن بعد ذلك تم الاستيلاء عليها . تميز تيمورلنك بوحشية مفرطة ، حيث حشد قرابة ثلاثين ألفاً من السكان في جامع الأمويين المركزي وقام بحرقهم ، وساق أفضل الحرفيين وصناع الأسلحة والعمال المهرة بتصنيع الذهب إلى مدينة سمرقند في آسيا الوسطى .

مضى أكثر من مئة عام وقد أتمت دمشق إعادة بنائها ، وفي بداية القرن السادس عشر تم احتلالها من قبل قوات السلطان سليم الأول ، وقرابة أربعمئة عام (١٥١٦ - ١٩١٨ م) كانت سورية ودمشق جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ، حاول سكان دمشق المقاومة ولكن (رداً على الإتاوات التعجيزية والقمع - كما

كتب (غ. تيمكين) - نشبت الانتفاضات ، ولكنهم للأسف غرقوا بالدم) ،
التباين مابين فقر السكان المحليين وترف الباشاوات من حولهم قد خففت منه
روعة المباني الدينية ، وفخامة أعياد المسلمين التي شارك فيها جميع الناس
حتى أفقرهم . وبالنسبة للحج فقد تم تنظيمه بشكل بهي جداً . فقد عين باشا
دمشق في الوقت نفسه رئيساً للحج ، حيث بدأ بجمع الضرائب للحج بمساعدة
الإنكشاري ، وإذا حاول أحد ما التهرب من دفع الضريبة انهالوا عليه ضرباً حتى
يدفع الضريبة ، هذا عمل (مقدس) .

خلال الحكم العثماني بدت المدينة من الخارج بمظهر بائس ، فانتقلت
روعتها من الشارع إلى فناء البيت الداخلي ، حيث حاول سكان المدينة إخفاء
روعة قصورهم عن أعين حكومتهم الجائرة ، حيث تم الاحتفاظ بمذكرات
الرحالة التي تعود لتلك الفترة . في نهاية القرن التاسع عشر تأسست في سورية
حركات ثقافية - تنويرية ، وسياسية وتحريرية وطنية ، ضمت الحرفيين
والفلاحين والمثقفين والبرجوازية الوطنية ، التي تلاحظ قصورها في هذه
الأطروحة ، ثارت ضد الحكم الاستبدادي التركي ، مطالبة بالاستقلال
والسيادة ، في نضالها ضد الإمبراطورية العثمانية ، ساندتها دول الائتلاف التي
وعدتهم بالكثير ، لكن بكل بساطة كان العرب محتاجين إليهم في تلك الفترة .

فقد تأمرت إنكلترا وفرنسا وروسيا من وراء ظهور حلفائها العرب وأبرموا
معاهدة (سايكس - بيكو) في عام (١٩١٦ م) ، والتي بموجبها قسموا سلفاً كامل
أراضي العرب إلى مناطق نفوذ وخضوع لها . سورية ودمشق كانتا من حصّة
فرنسا بحجة (عدم استعداد) السوريين لتقرير المصير . فرنسا - كدولة منتصرة -
حصلت في البداية على إقامة الوصايا على سورية ، وفي عام (١٩٢٠ م) كان
الانتداب الفرنسي .

كان السوريون مخدوعين ، لكنهم لم يستكينوا وكافحوا الاحتلال
الإمبريالي ، ونتيجة ذلك تنازلت السلطات الفرنسية ، وفي عام (١٩٣٠ م) تم
قبول الدستور الذي أعلنت بموجبه سورية أنها أصبحت جمهورية ، مع العلم
أن الانتداب ما زال قائماً . وبنتيجة نضال عسير دام عشرين عاماً تم في

(١/ كانون الثاني/ ١٩٤٤) إلغاء الانتداب على سورية رسمياً. وفي ١٧ نيسان ١٩٤٦ أصبحت سورية حرة ومستقلة ، وفي الوقت التالي بعد الحكم الاستعماري جرت في البلاد تحولات هامة سياسية واقتصادية وإيدولوجية. جرى تأميم الرأسمال الأجنبي للبرجوازية المحلية الكبيرة ، والإصلاح الزراعي ، وتحسنت حياة الجماهير الشعبية الواسعة .

في هذه المدينة العجيبة ، وبغض النظر عن المزيج السياسي تمت حتى الآن المحافظة على البناء القديم للمركز التاريخي وبقيت في المدينة القديمة الآثار القديمة والكثير من المعالم المعمارية الفريدة ، التي لم تتوقف الأجيال اللاحقة عن الافتتان بها. تشكل جميع هذه المباني موضوع اهتمام من قبل الحكومة السورية التي أخذت على عاتقها مهمة ترميمها وتجديد المتاحف وصالات العرض الفني والقلاع والبوابات التاريخية لدمشق وغيرها من المعالم الأثرية الأخرى. تفتخر الأجيال المعاصرة بمدنيتهم وثقافتهم وتاريخهم .

بعد دراسة وتحليل تاريخ دمشق يمكن فرز ثلاث مراحل هامة من تطور بناء المدينة ، التي أثرت على تكوين البيت السكني الدمشقي التقليدي :

١ - تطور البناء المدني خلال العصور الهلنستية والرومانية - البيزنطية ومزايا العمارة السكنية الدمشقية .

العصر الهلنستي ، وهو إحدى مراحل التحول الهامة في تاريخ سورية وتطور مدينة دمشق كوحدة تخطيطية للمدينة ، بدأ بناء المدينة في زمن الإغريق وفق مخطط مستطيل تماماً للأحياء (٥٠ م × ١٠٠ م). في دمشق نحو الشرق من المدينة القديمة ، حيث تتجمع البيوت ما بين القلعة والمعبد ظهر حي هلنستي ، تتوسطه ساحة أغورا (ساحة الدوامنة). توزعت المباني السكنية حول هذه الساحة بانتظام وهي ما زالت قائمة حتى الآن ويمكن تعقبها في مركز دمشق .

التخطيط النظامي للجزء القديم من المدينة يعود - كما أسلفنا - إلى العهد السلوقي (نهاية القرن الرابع حتى منتصف القرن الأول قبل الميلاد) والعهد الروماني (سنة ٦٤ قبل الميلاد حتى القرن الرابع الميلادي) ، أفلحت على وجه

الخصوص في تخطيط المدينة سلالة السلوقيين (٣١٢/٣٦٤ قبل الميلاد) ، حيث بنوا المدن والمعابد وشقوا الطرقات وساهموا في ازدهار دمشق. إذ إنه في هذه الفترة على وجه التحديد راحت القوافل التجارية تمر عبر دمشق. وعندما بدأت سلطة السلوقيين في الانهيار في غربي سورية سارعت دمشق لتكون تحت حماية دولة العرب النبطيين. وكما كتب (س. ميدفيدكوود أوسيوف) في كتابه (كل سورية): مدينة (عادية) بدت في عيون الرومان مخيماً عسكرياً مأهولاً ، أي بكلمات أخرى مربع أو مستطيل متقاطع بشبكة من الأقواس المتوازية والمتعامدة بالنسبة لبعضها البعض. اثنان منها (المحوريان) عبرا من خلالها المركز وربطوا أبواب المدينة. وبوضع علامات بارزة لهذين الخطين بدأ بناء مستوطنات جديدة في سورية. حيث المراكز الحضرية كانت أقدم من الرومانية ، حصل إعادة تشكيل البناء السابق أو تكييفه حسب المتطلبات الرومانية.

دمشق المدينة العجيبة المحافظة على البناء القديم للمركز التاريخي ، وبقيت في المدينة القديمة آثار العهد القديم والكثير من المعالم المعمارية الفردية ، التي لم تتوقف الأجيال اللاحقة عن الافتتان بها ، حيث بنيت المدينة وشقت الطرق مما ساهم في ازدهار دمشق.

وسمي الشارع الرئيسي الممتد من الشرق إلى الغرب بـ (ديكومانس) ومعنى هذه الكلمة غير واضح ، ويتطلب التقليد ، يحتمل أن يكون من مصدر وثني أن تكون جهته نحو الشرق ، أما بالنسبة للشارع المستعرض الرئيسي فهو ممتد من الشمال نحو الجنوب وسمي بـ (كاردو) التي تترجم بمعنى (محور) ، وهذا مايطرح فكرة: ألم يخطر ببال الرومان شكل الأرض الحقيقي ما دام هذا الاتجاه موازياً لذلك المحور الذي يدور عليه كوكبنا ، عدا عن أنهما كانا أعرض من بقية الشوارع فقد تميز الدليكومانس والكاردو بأنهما مزينان بصفوف من الأعمدة ، ففي المدينة الكبيرة يمكن أن لا يكون فقط ديكومانس واحد و كاردو واحد ، في هذه الحالة أطلق على أكبر شارعين هذه التسمية ديكومانس ماكسيموم و كاردو ماكسيموم .

وعلى طول هذه الشوارع الجميلة تم عموماً بناء أهم المباني العامة والمعابد ، وفي أماكن تقاطعها أنشئت الساحات الأنيقة ذات الأقواس من الجوانب الأربعة. والنخس الرباعية أو بكل بساطة الأقواس والنوافير والأعمدة التذكارية. بنتيجة أعمال الترميم التي جرت مؤخراً من قبل مجموعة دانماركية تم الكشف عن أن:

بيت عقاد الأول يقوم على رواق مقنطر لمسرح روماني واقع على الشارع على موازاة الشارع المركزي في دمشق خلال العهد الروماني. في صف أحد جدران فناءه الداخلي المقابل للبناء وجدت صفوف من الحجارة التي تعود للعهد الروماني. هنالك بيت آخر في دمشق القديمة هو بيت سعيد قوتلي (قرب الجامع الأموي) مبني على مثل هذا الرواق المقنطر. يمكن الاستنتاج بأن كامل المدينة القديمة مبنية عملياً على أساسات رومانية ، كما هو الحال في الكثير من المدن السورية ، مثل مدينة السويداء التي بنيت أيضاً على أساسات رومانية.

يعود للفترة الرومانية: الشارع المستقيم المركزي مع بقايا صف أعمدة كورنثية تحيط به بارتفاع (١٢ م) (القرن الأول الميلادي). متوضعة أمام مدخل حرم معبد جوبيتير الدمشقي المبني في موقع معبد حدد الآرامي (القرن التاسع قبل الميلاد) وقنطرة جسرية ثلاثية تذكارية تنتهي بكورنيش مثلثي مزخرف بصفائر الظهور والزخارف الورقية ، وتغلق الشارع بالبوابات الشرقية (باب شرقي - بوابة الشمس ، مع إضافات تعود للقرن الثاني عشر - القرن الثالث عشر) تتوافق الجسور الثلاثة لهذه البوابات مع تقسيم الشارع في ذلك الوقت.

وحتى الوقت الحاضر لم يغيروا شكلها ، إنما الشيء الوحيد الذي حصل هو أنه في عام (١١٦٣ م) بنى نور الدين مئذنة تشير الدراسات الأثرية المعاصرة إلى أن دمشق بنيت وفق مخطط إغريقي - روماني وفق ما يسمى نظام هيودام (تكريماً للمعماري الإغريقي هيودام) مستطيل مقسم بانتظام إلى شوارع متوازية ومتعامدة. بنيت الأحياء السكنية بزاوية قائمة (٩٠ درجة) ، البيوت بمساحة (١٠٠ م × ٤٥ م) ، الشوارع المركزية بعرض (٣ م حتى ٥ م) والقصور مفتوحة على هذه الشوارع.

في زمن العهد الروماني بغية تعزيز وتزيين المدينة أنشئت مبان هامة : القلعة (١٥٠ × ٢٥٠ م) التي بناها الظافر صلاح الدين السوري الشهير ، القناة (قنوات) وهي أول قناة اصطناعية من نهر بردى (المسماة حالياً بشارع القنوات) وسور قلعة دمشق مع الأبواب الذي يحيط مساحة قدرها (١٠٥) هكتارات . السور حسب العرف الروماني (٥ ، ١ كم × ٧٥٠ م) وقد أحاط بالمدينة الآرامية القديمة والحديثة قديمة العهد . بني السور من كتل حجرية كبيرة تعود لعهود متعددة - الروماني والبيزنطي والعربي والتركي ، بحيث يمكن القول عنها جميعاً ، عملياً ، بأنها آثار عمارة دمشق .

أعيد بناء أبوابه مرات عديدة إضافة إلى أجزاء من جدرانه الدفاعية والقناة (القائمة في الوقت الحاضر) . وهناك سبع بوابات للدخول عبر سور القلعة ، ثلاث بوابات في الشمال : (الفرايس ، القمر ، باب توما) وبوابة واحدة في الغرب (باب الجابية) وبوابة في الشرق (باب شرقي) ، وبوابتان في الجنوب (باب زحل وباب مشتر) .

ربطت هذه البوابات دمشق القديمة بالطرقات الرئيسية التي تقطع المدينة ، سور المدينة المتاخم لباب شرقي ما زال محافظاً على شكله أفضل مما هو عليه الحال في أماكن أخرى ، حيث يمكن هنا مشاهدة البناء الروماني وبناء القرون الوسطى .

كان الطين هو المادة الأولية الأولى للبناء حيث أمكن الحصول عليه من مجرى النهر ، ومنه يصنع طين الطوب ، كانت مادة البناء هذه رخيصة وبمتناول السكان البسطاء ، لكنها ليست متينة وطويلة الأجل وكثيراً ما عانت من الحرائق ، وكان الخشب في تلك الفترة مادة بناء أيضاً .

تشتهر سورية كذلك بتنوع حجارتها بدءاً من الحجر الكلسي حتى أصناف مختلفة من الرخام .

اعتبرت دمشق القديمة أكثر عاصمة (خضراء) في الشرق الأوسط وفيها غابات غنية ، أما المباني الروحية وبيوت الأغنياء فقد شيدت من الحجر ،

لذلك يمكننا رؤيتها حتى الآن . في العهد البيزنطي بدأ التنظيم المدني في الشرق الأوسط اعتباراً من القرن الرابع قبل الميلاد حتى يومنا هذا ، وظهرت في دمشق منشآت جديدة .

فقد أعيد بناء معبد جوبيتير الدمشقي من قبل الإمبراطور (فيودوسي) ليصبح كنيسة القديس يوحنا المعمدان التي أنشئت في الفترة من (٣٧٩ - ٣٩٦ م) فكانت البيوت السكنية مربعة أو مستطيلة الشكل مع فناء داخلي ورواق مقنطر يحيط به . أصبحت المدينة مركزاً للأسقفية ، وكنيسة القديس حنانيا الكائنة ما بين باب شرقي وباب توما ، التي بنيت مكان المعبد الوثني ، حسب الأسطورة كان هنالك بيت حنانيا الذي عالج عيون الرسول باول . فقد نحتت جدران وسقف البيت من الصخر .

اشتهرت سورية في هذه الفترة ليس فقط بازدهار العمارة والفن ، بل أنجبت العديد من الفلاسفة والعلماء والكتاب الذين أبدوا تأثيراً بالغاً على الرومان ، كما ساهمت إلى حد كبير في الثقافة الرومانية وهذا طبيعي تماماً .

اعتبرت الإمبراطورية العالمية أنه من الضروري إدخال جميع مصادر المقاطعة (الطبيعية والمادية والروحية) ضمن التداول العام ، وفي ذلك يتجلى دورها التاريخي .

أصبحت الأقاليم الشرقية أهم مصدر للكوادر من البنائين والرسامين والنحاتين ، والعمال المهرة في مجال الموزاييك في الدولة البيزنطية عندما ضمت إليها هذه المناطق .

وكما كتبت (ف. د. ليخاتشيفا) في كتابها حول الفن البيزنطي : (الثقافة البيزنطية جزء لا يتجزأ من الثقافة الأوروبية في القرون الوسطى) . وبالنسبة لدمشق يمكن الحديث عن التفاعل المتبادل للثقافات البيزنطية والعربية والتركية والأوروبية الغربية .



التطور العمراني لمدينة دمشق في العصر العربي وتأثيره على بنية البيت السكني التقليدي

التطور العمراني لمدينة دمشق في العصر العربي مرتبط بالعام (٦٣٥ م) عندما فتح العرب المدينة ، وأصبحت عاصمة للخلافة الأموية (٦٦١ م - ٧٥٠ م).

في القرن السابع الميلادي على وجه التحديد تشكل في دمشق ما أطلق عليه : فن العمارة العربية الإسلامية . وفي عام (٦٣٦ م) هزم القائد العسكري العربي القوات البيزنطية واستولى على سورية ، وفي عام (٦٦١ م) تقلد معاوية - وهو من سلالة بني أمية المكية - السلطة (حيث بني أكبر جامع في دمشق من قبل الوليد بن عبد الملك على شرف هذه السلالة الحاكمة) . وهكذا فقد تم افتتاح (العصر الذهبي لمدينة دمشق) من جديد ، وتمكن الخلفاء الأمويون من تحويل مدينة دمشق إلى عاصمة لدولة عظيمة ، امتدت من الهند حتى أوروبا وشمال أفريقيا ، وأصبحت مركزاً للحياة السياسية والدينية والثقافية . فازدهار الفن والعمارة العربية يعود إلى هذه الحقبة ، وأصبح جامع الأمويين أثراً معمارياً بارزاً لهذه الفترة ، حيث تم بناؤه في عام (٧٠٥ - ٧١٥ م) وهو قائم حتى يومنا هذا: في فترة الخلافة الأموية ، كان الجامع قريباً من قصر الخليفة . بناء الجامع الأموي في دمشق تؤكد في العمارة العربية ولفترة طويلة ، فكان طراز الجامع كثير الأعمدة أو البيت ذي الرواق المقنطر طرازاً معمولاً به . بني هذا الجامع الخليفة العربي الوليد بن عبد الملك ، حيث عمل على إشادته أمهر المعمارين والحرفيين ، وشارك في بنائه (١٢) ألف عامل في غضون (١٠) سنوات .

جسد الجامع الأموي شهرة وعظمة الدولة الأموية العربية ، فروعته وجماله
يشيران الدهشة والإعجاب حتى يومنا هذا ، فالأرضيات مبلطة بالرخام ،
والجدران بالعقيق اليماني ، والمحراب مكسو بالذهب ومزين بالأحجار
الكريمة ، والسقف مطلي بالذهب .

بعد مئة عام على وفاة الرسول محمد ﷺ (٧٣٢ م) تمكن المسلمون أتباعه
الذين أقاموا الدين من إقامة أكبر دولة ، حيث امتدت سلطة الأمويين من خليج
بيسكاي حتى الهند ومن بحر الأرال حتى النيل الأوسط . وسادت اللغة العربية
على الأراضي التي تم فتحها .

تعرض الجامع الأموي إلى ستة حرائق ، ولكن في كل مرة يعاد ترميمه
وبناؤه ليصبح أكثر جمالاً حتى أصبح تحفة فنية للعمارة الدمشقية .

يحتوي الجامع على ثلاثة مداخل ، يشكل الفناء المستطيل الكبير مع صف
الأعمدة مركزاً للتكوين المعماري . أقواس الأعمدة والأروقة والواجهات مزينة
بلوحات فسيفسائية على خلفية ذهبية ، تعبر عن القصور والحدائق والمناظر
الطبيعية والترايع البيضاء والزرقاء . قاعة الصلاة مستطيلة الشكل مع صفيين من
الأروقة المقنطرة على أعمدة رخامية مع تيجان كورنثية ، يقع وسطها ضريح
يوحنا المعمدان .

إن القاعة متقاطعة مع قبة فوق مركزها ، منفصلة عن الفناء بصف ثالث من
الأعمدة (حالياً مغلق بأبواب خشبية ونوافذ زجاجية ملونة) . توجد في فناء
الجامع ثلاثة أجنحة مقببة ، كما توجد ثلاث مآذن فوق الجامع ، يطلق على
أقدمها تسمية مئذنة العروس التي بنيت في العهد الأموي ، وأعيد بناء جزئها
العلوي في القرن الخامس عشر الميلادي ، كما المئذنة الجنوبية الغربية -
المئذنة المملوكية (مأذنة السلطان قاتيباي) ، التي احتفظت بملامح الأسلوب
المصري ، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من الجامع ، مئذنة يسوع المسيح .

كتب أحد المؤرخين العرب حول هذا الجامع : (فهذا ليس أثراً عظيماً على أراضي الإسلام فقط ، بل إنه أعظم إبداع في الهندسة المعمارية العالمية في جميع الأزمنة في العالم) ، فقناطره العلوية مذهشة من خلال الفسيفساء المتألق على خلفية ذهبية. جمعت على إحدى اللوحات الفسيفسائية للجامع قطع صغيرة من الأحجار لتشكيل مبنى ذا شكل نصف دائري يحتمل أن يكون هذا البناء مضمراً أموياً لسباق الخيل تحيط به أشجار باسقة ونوافير متدفقة إضافة إلى زخارف بنائية وجمال .

وكل من شاهد دمشق ودخلها يقول بأنه قدر للإنسان الدخول إلى جنة واحدة وذلك بعدما أدهشته دمشق كجنة دنيوية ، إنها لوحة رقيقة مشرقة بشمسها ، مذهشة بتبايناتها ، يسودها هدوء ناعس ، يمنح المدينة روحانية ساحرة ، قدمت العمارة الإسلامية للمدينة أنواعاً حديثة من المنشآت : الجوامع ، قصور الخليفة ، المدارس ، الحمامات والأسواق ، وغيرها . . كتب مارك توين الشهير الكلمات التالية :

وسط الصحراء انسكبت الأمواج من الأوراق الخضراء .

وفي صميم قلبها مدينة بيضاء متألئة كجوهرة براقعة من الجزر في بحر زمردني .

مدينة دمشق مدينة روحانية ساحرة ، كما لو أنها مهاجرة رائعة من عالم أحلام خفي لاتشبه القاطن العادي الفظ والممل ، وبتذكر الأميال والأميال المتبقية من غوطتها المتهمة ومن بساطينها وأشجارها لإله من جمال ، فلا أروع من هذه البقعة على وجه الأرض قاطبة .

تم في العصر الأموي تصميم وإنجاز طراز البناء الديني الإسلامي الذي تكونت أجزاؤه الرئيسية من فناء مكشوف مستطيل الشكل وأروقة على صف من القناطر ، وقاعة للصلاة متعددة الأعمدة . فالتكرار المتماثل والمتناسق لجذوع الأعمدة الممشوقة والنوافذ المقنطرة نصف الدائرية تخلق شعوراً مستمراً بلا

نهاية ، وفراغاً مجرداً فعلاً مطابقاً لتصور ديني حول كمال الكون الذي خلقه الله عز وجل داعياً للصلاة والتفكير . يبقى الجامع أثراً بارزاً وتحفة من تحف الفن العربي .

وبعدما فقدت في عام (٧٥٠ م) مدينة دمشق قيمتها كعاصمة للخلافة الأموية العربية التي انتقلت إلى بغداد ، استمرت دمشق تؤدي دوراً هاماً كمركز تجاري وثقافي ، إلا أن سلالة الحكام العرب العباسيين التي حلت محل الأمويين (٧٥٠ - ١٢٥٨ م) سعت حتى إلى سحب هذه الميزة من المدينة ، وهذا ما كان يؤدي إلى تغييرات في تخطيط المدينة ، فظهر الكثير من الشوارع المنعطفة والبيوت متعددة الطوابق الواقعة جنوباً إلى جنب . حتى القرن العاشر الميلادي لم تخرج المدينة خارج نطاق سور القلعة .

أفضل بناء بقي من عهد العباسيين هو قصر حيدر التابع للخليفة المنصور ؛ قريب الخليفة عيسى بن موسى .

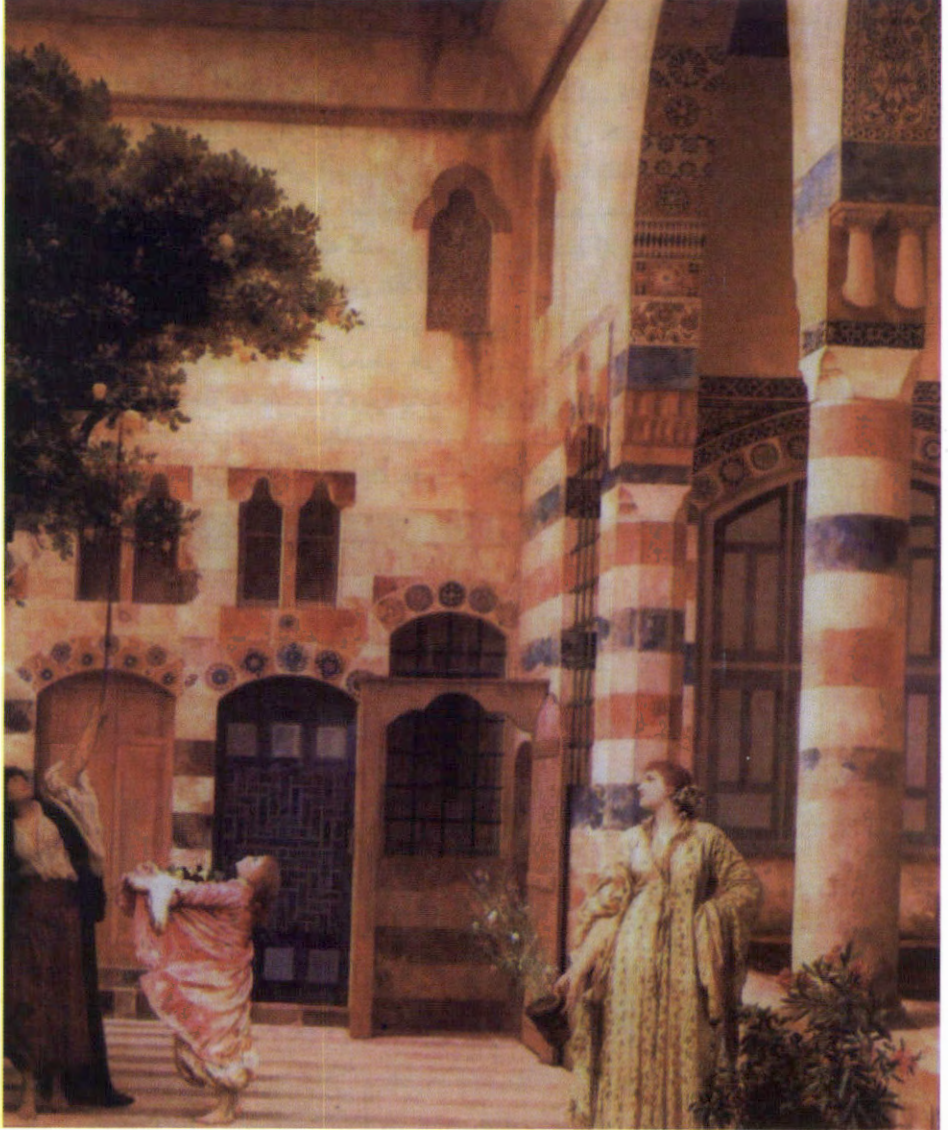
توجد في هذا المبنى غرف أحادية الطراز تحيط بمركز القصر الكبير الذي يضم فناءً واسعاً توزعت على جوانبه أروقة مقنطرة ، حيث احتوى كل رواق مقنطر على مناطق استجمام ، اللوان الذي يمكن من خلاله الدخول على غرفتين ، من هنا برز اللوان الذي ندرسه في الفترات اللاحقة من العمارة الدمشقية .

قدمت العمارة العربية الدمشقية للإنسان حماية مثلى من حرارة الطقس وبرودته نظراً للظروف المناخية .

ففي البيت العربي جرى فصل ما بين غرف الاستقبال والغرف السكنية ، حيث نجد البيت مع فناء داخلي . تجمعت فيه الغرف حول فناء مكشوف - أرض الديار - تقع في عمقه القاعة الرئيسية الكبيرة .

أما جوانبه فقد شغلتها أماكن الخدمة وغرف الضيوف ، وفي البيت الدمشقي حصل فصل في الغرف حسب الوظائف ، ففي الطابق السفلي تتوزع قاعات كبيرة .

أما في الطابق العلوي تتوزع غرف للراحة والنوم ، فالماء والخضرة في الفناءات الداخلية قدمت البرودة وخلقت مناخاً محلياً معيناً؛ بغية التخلص من الحر جعلت الجدران عالية . استخدمت مواد البناء التالية : السقف من عوارض خشبية ، غطيت أحياناً بمزيج من الطين والقش لدى البسطاء .



أما لدى الأغنياء فكانت العوارض الطولانية مزودة بعوارض مستعرضة تجري زخرفتها لاحقاً ، تشاد الجدران ليس فقط من الطوب الخام بل أيضاً من الحجر ، ويستخدم الرخام في إكساء الجدران والأرضيات .

بعد عهد العباسيين حل عهد الفاطميين من عام (٩٦٨ م حتى عام ١٠٧٥) ، وكانت الطبقة الحاكمة لدمشق في ذلك العهد من الحكام المصريين الفاطميين . تعرضت دمشق في تلك الفترة إلى هجمات دائمة من جهة المصريين ، فالظلم كان سياسياً كما كان دينياً ، فهرب السكان المحليون من المدينة وهبطت أسعار السكن .

كان عهد السلاجقة من عام (١٠٧٥ - ١١٧٤ م) أكثر هدوءاً بالنسبة لدمشق وذلك بظهور المذهب السني . حارب السلاجقة ضد الصليبيين ، ولم يعطوهم إمكانية الاستيلاء على دمشق .

وفي هذه الفترة تشكلت القوات المسلحة من قبل قريب القائد العسكري صلاح الدين الأيوبي وبمساعدة أسد الدين تمكنا من فصل دمشق عن مصر . واستمرت المدينة في ازدهارها في هذه الفترة ، وشيدت مباني جديدة . وللمرة الأولى استخدم في الديكور تزيينات بالمقرنصات . فشكلت المقرنصات المتوضعة على زوايا القبة النصف دائرية تحولاً من القاعدة المربعة إلى دائرة القبة .

تميزت الحقبة التالية من التطور العمراني لمدينة دمشق في العهد الأيوبي (من عام ١١٧٤ م حتى عام ١٢٥٩ م) بحروب دائمة حددت الأسلوب المتكشف في الحياة والفن . البناء البارز في هذه الفترة تمثل في قلعة دمشق التي حافظت على نفسها من العهد الأيوبي ، وتقع في الزاوية الشمالية الغربية من سور المدينة .

بدأ بناؤها في عام (١٠٧٤ م) الأمير التركي ألتيز بن أواك وأنجز الدين . حيث أعاد بناءها في غضون (١٢) عاماً ، فجدد الجدران والأبراج وبدت كمجمع قصور في جزئها الجنوبي الغربي الذي دمر . في هذه الفترة توسع البناء

ونما الاقتصاد وظهرت مباني جديدة ، الجوامع ، والأضرحة والحمامات والمشافي (المارستانات) والمدارس ، وعموماً كانت هذه المباني مكعبة الشكل مع قبة دحداحة ، بعضها ما زال قائماً في الجزء القديم من مدينة دمشق .

تجلت إحدى إبداعات العصر العربي في الحمامات (حمام البزورية) أو حمام نور الدين التي بنيت في القرن الثاني عشر ، بتوجيه من نور الدين لجمع الأموال لبناء مدرسة النوري التي أوصى السلطان بدفنه فيها .

اقتبس العرب من العصور القديمة تقليد الحمامات العامة . وفي ذلك يمكن تتبع تعاقب العصور ، لكن بالطبع لم يكن فيها ذلك الاتساع الذي ساد ، لكن يوجد التنظيم التخطيطي نفسه للفراغ الذي يعني (البراني) البهو الخارجي المخصص للراحة وخلع الثياب . و(الجواني) القسم الداخلي للحمام الحار ، والقسم الأوسط للحمامات الساخنة والفاترة . ولم تكن وظيفة الحمام الاغتسال فقط بل كان مكاناً للتواصل .

من بين مباني القرن الثاني عشر التي بقيت حتى يومنا هذا: مارستان نور الدين (١١٥٤ م) - مستشفى وأكاديمية طبية ، فهي أيضاً مستطيلة الشكل مع فناء داخلي كبير ، فكلمة (المارستان) تعني بالعربية مستشفى . تم في القرن الثاني عشر توسيع المبنى على حساب البيوت المتاخمة . من بين الأطباء الذين عملوا في المارستان كان ابن النفيس الشهير ، الذي اكتشف الدورة الدموية قبل الأوروبيين بثلاثة قرون ، استمر عمل المستشفى في هذا المبنى حتى القرن التاسع عشر .

تشكيل المدخل مميز لفترة السلاجقة ، لكن التنفيذ النهائي الزخرفي لا يتوافق مع الكورنيش المثلي من العهد الروماني ، الشاذ في هذه الحالة (نتيجة الترميم غير السليم) . توجد إلى يمين المدخل نافورة ماء عامة مع ماء للشرب من القرن الثالث الميلادي ، مع زخرفة بالمقرنصات ، وبتجاوز الردهة الصغيرة المغطاة بقبة ذات مقرنصات أيضاً يمكن الوصول إلى فناء فسيح من ثلاثة ليوانات ذات شكل متميز ، ولكل ليوان مهمته الوظيفية الخاصة حيث كان أحدها محراباً ، مكاناً للصلاة .

تأسس في المارستان اعتباراً من عام (١٩٧٨ م) متحف للطب في سورية ، كرسّت معروضاته لعلماء الفلك وتطور الطب (ابتداءً من الطب القديم) والصيدلة ، كما توجد فيه مكتبة طبية ، وفي الوقت الحاضر يوجد فيه أيضاً إحدى لجان حماية الآثار .

يقع قبر صلاح الدين شمالي الجامع الأموي وقد شيده ابنه في نهاية القرن السابع الميلادي ، القبر مربع الشكل ، ينتهي السقف بقبة مضلعة ، وجدران القاعة الجنائزية مغطاة بألواح من الخزف الصيني . في عام (١٨٩٨ م) زار دمشق الإمبراطور الألماني غليوم الثاني وقدم هدية ضريحاً مصنوعاً من الرخام وأمر بوضع باقة زهور جنائزية على قبر صلاح الدين ، وأثنى على دوره ومنجزاته .

تميز عهد الأيوبيين ببناء العديد من المدارس مثل مدرسة النوري (١١٧٢ م) ومدرسة الظاهرية (المكتبة العامة حالياً) المرتبطة باسم زعيم المماليك التي بنيت في عام (١٢٧٧ م) من قبل الضيوف المترددين الذين كانوا من ممالك بيبرس وابنه السيد بنيت المدرسة في مكان بيت الأب صلاح الدين الأيوبي ابن شادي - مؤسس السلالة الحاكمة الأيوبية . جدران المدرسة مبنية بالحجر الأصفر الأملس من نوع خاص ، كما توجد فوق المدخل الرئيسي في فجوة خاصة نقوش باللغة العربية ، أشير فيها إلى اسم باني الظاهرية - المعماري الشهير في تلك الحقبة (إبراهيم بن غنائم) يزين المدخل باب عالٍ بمقرنصات . الفناء الواسع للمبنى يزين مدفن بيبرس الواقع إلى يمين القبة المنخفضة على أسطوانة سداسية الأضلاع . الظاهر بيبرس (جندي مملوكي - عبد) بقي على رأس السلطة (١٧) عاماً ومات بحادث مأساوي ، مسموماً بسم المنافسين ، ولم يشتهر فقط بانتصاراته العسكرية بل بحركة البناء الواسعة ، إضافة إلى سن القوانين والتدين .

الجدران من الداخل مزينة بالطنوف (الإفريزات) الخشبية والجصية والرخام الملون ، والفسيفساء على خلفية ذهبية كما هو الحال في الجامع الأموي . ومقابل المدرسة الظاهرية توجد المدرسة العادلية التي بنيت قبلها بفترة وجيزة

اعتباراً من عام (١٢١٨ م) حتى عام (١٢٢٢ م) ، والتي سميت على شرف أخ صلاح الدين الملك العادل الذي بنى قلعة دمشق .

مبنى هذه المدرسة كان قد تم شراؤه من قبل زهرة خاتون ، ابنة الملك أبو بكر التي أنشأت المدرسة من ذلك البيت . تتكون المدرسة من قاعة المعلمين وقاعة الصلاة وقاعة المدفونين . وبلاطة مزخرفة تزين قائمة كتف الباب البازلتية . يعتبر المبنى تحفة من تحف الرصف بالطوب في العمارة الدينية الإسلامية . ويتجاوز المدخل المتوج بقبة ذات مقرنصات مرفوعة على ثلاث مراحل يمكن الوصول إلى المكان الذي يوجد فيه ضريح العادل (مدفن الملك العادل).

على محور واحد مع المدخل يقع الفناء الداخلي مع رواق مقنطر (من الجهة اليمنى) ، محاط بمبان من طابقين وقاعة للصلاة (من الجهة اليسرى) وبقي هذا المبنى لفترة طويلة نسبياً مقرأً للجنة التنفيذية لأكاديمية العلوم العربية . . العادلية والظاهرية كانتا في القرون الوسطى مركز الحياة الروحية لمدينة دمشق ، وتقريباً مازالتا تؤديان هذه الوظيفة في الوقت الحاضر .

تم في عام (٢٠٠٨ م) ترميم مبنى العادلية . تكون بين ساكن المدينة من فناء مركزي مع نافورة ، تحيط بهما الغرف السكنية والمتنفعات والليوان . اتبع في دمشق نظام إسكان محدد لكن التقاليد المعمارية لم تتبدل . بعد الاجتياح المغولي (١٢٦٠) انتقلت المدينة إلى السلاطنة المماليك الحاكمين في مصر (١٢٥٩ - ١٥١٦ م) وأصبحت عاصمة للمقاطعة السورية . سميت دمشق في تلك الفترة العاصمة الثانية بعد القاهرة . حيث عاش فيها الحكام - السلاطين الذين حموا المدينة من الصليبيين والتتر .

في جميع مراجع النقد الفني ذكر بأن هذه الفترة لم تترك بعدها أية منشآت جديدة بالذكر . فالكثير من المباني إما دمرت أو أعيد بناؤها ، لكن الواقع لم يكن كذلك وتوجد براهين كثيرة على ذلك ، على سبيل المثال أن دمشق في هذه الفترة اتسعت وأعيد بناؤها ، وظهرت فيها مراكز تجارية كثيرة اعتبرت مراكز للأحياء المجاورة (مثل حي الميدان) وبنيت المساجد والمدارس وشقت

الشوارع والطرق ، وأقيمت الأسواق ونظم الصرف الصحي ، وظهر توازن ما بين واجهات البيوت والمباني والساحات التجارية ، وانتشرت المقرنصات في أعمال الديكور ، البناء الشهير الذي يعود لتلك الفترة هو قصر السلطان بيبرس ، الذي تميز في تزيينه بتتابع الحجر الملون (الأسود والأصفر) - حيث ظهر أسلوب الأبلاك - يمكن الوصول إلى هذا القصر عبر (دهليز) إلى غرف الاستقبال الكبيرة ، وهو مزين بالرخام متعدد الألوان ، يوجد في الفناء الداخلي ليوانان يقعان مقابل بعضهما البعض . وظهرت أحياء جديدة بالقرب من الميدان زينت واجهات بيوتها بالحجر ، أما الأجزاء الأخرى من المباني فقد بنيت من الطوب والآجر والخشب . تميزت الواجهات بالجمال والذوق الرفيع ، أما أبواب المباني فبقيت كبيرة وعالية متوجة بأنصاف دوائر من المقرنصات . اعتبر حكام دمشق أن مهمتهم الرئيسية تكمن في تطوير التجارة ، والحرف اليدوية والفنون الأخرى .

ومن ناحية ثانية في عام (١٤٠٠ م) عندما وصلت قوات تيمورلنك إلى دمشق ، وبعد شهر من المعارك استولى على المدينة ، ودمرها بوحشية إلى درجة أن دمشق أصبحت قاحلة في غضون نصف قرن ! .





بيت العقاد في سوق الصوف ، نموذج نادر لعمارة البيوت المملوكية بدمشق



تطور العمارة السكنية الدمشقية في العهدين العثماني وما بعد العثماني

تطورت دمشق في العهد العثماني الذي كان أطول عهد ودام أربعة قرون كاملة (من نهاية القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين) ، حيث أصبحت سورية ودمشق جزءاً من الإمبراطورية العثمانية (١٥١٦ - ١٩١٨ م).

حدث في هذه الفترة تطور العمارة والفن السوري وفقاً لذوق الدولة العثمانية ، أعيد بناء دمشق وأصبحت عاصمة لمنطقة هامة ومركزاً رئيسياً تلتقي فيه طرق القوافل . ودمشق في تلك الفترة سميت بإعجاب (شام - جنات ما شام) أي: دمشق مليئة بعبق الجنة! طرق القوافل التجارية في هذه الفترة عبرت المدينة كما عبرت قوافل الحجاج المتجهين إلى مكة المكرمة ، من جميع أقطاب الإمبراطورية ، وهذا ما ساعد على ازدهار المدينة . فالمدينة تبنى بوتائر عالية ، وظهرت بيوت جديدة فاخرة صوّرت على جدرانها مناظر مما يراه الحجاج خلال السفر (مكة ، المدينة ، الكعبة) ، ومضيّق البوسفور مع الكثير من الجسور ، وإستانبول وغيرها الكثير .

تشكلت في دمشق نماذج جديدة من المنشآت المعمارية: بنيت قصور النبلاء - قصر العظم ، والجوامع - جامع الأمويين ، والأضرحة ، قبر الملك العادل ، والمدارس - مدرسة نور الدين - وخانات للنزلاء - خان أسعد باشا - والحمامات (حمام التبريزي) - والمشافي (المارستانات) - والأسواق المسقوفة (سوق الحميدية وسوق البزورية).

التيارات الثقافية التي نفذت إلى سورية من الشرق أو الغرب ، من الشمال أو الجنوب ، استقرت فيها وتركت فيها دائماً بصمات تشكل القاعدة العرقية

والثقافية. كان الحج بالنسبة لدمشق أساساً للازدهار ، حيث كان يتجه منها نحو الجنوب (٣٠) ألف حاج ، وهذا ما زال قائماً حتى وقتنا الحاضر .

كانت دمشق منذ القدم مركزاً للمذاهب ، وأهمها المذهب الصوفي الذي بدأ في القرن الثامن الميلادي ، واستمر عبر جميع القرون الوسطى مشكلاً المذاهب والتيارات الدينية إلى أن همد تدريجياً بحلول القرن العاشر الميلادي . الصوفية هي إحدى أشكال العقيدة الإسلامية ، تهدف إلى الاندماج مع المطلق وهذا ما شكل المعنى الأساسي للحياة والهدف السامي لعابر السبيل ، فكلمة الصوفية هي من أصل عربي كما كلمة الصوف ، ويقصد بها اللباس الصوفي لعابر السبيل .

بنيت الجوامع مربعة الشكل (حسب العقيدة الصوفية) مع قبب كبيرة نصف كروية تحيط بقبب صغيرة مع أروقة قبية على أقواس مقنطرة على طول واجهة الفناء الداخلي ، مع مآذن أنيقة حادة من الأعلى . مثال بارز على هذه المباني نجده في مسكن الدراويش - المجمع الديني الخيري المسمى (التكية السليمانية) . بنيت هذه المنشأة من قبل المعماري التركي الشهير سنان باشا بتوجيه من السلطان سليمان العظيم في عام (١٥٥٤ م - ١٥٦٠ م) .

المهندس المعماري سنان هو (المهندس المعماري رقم واحد في العالم العربي) ويمكن أن يسمى مايكل أنجيلو التركي ، ولد في عام (١٤٨٩ م) من عائلة عربية مسيحية . في عام (١٥٤٣ م) عينه السلطان سليمان مهندس المعماري الشخصي حيث كلفه ببناء جامع شيخزاده ، الذي أثار إعجاب المعاصرين باتساعه وجماله ، عاش سنان قرابة المئة عام ، حيث بنى استناداً إلى مراجع مختلفة من (٣٣٥ حتى ٤٤٠) مبنى ، منها (٨١) جامعاً ، أشهرها جامع السليمانية في استانبول . فقد اتبع في أعماله آيات من القرآن الكريم نحو : ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد : ٢] .

أمر سليمان ببناء الجامع ؛ ليكون ملجأً للحجاج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة . عمارة هذه المجموعة في دمشق تحمل ملامح إنجازات من الثقافة

البيزنطية والإسلامية. المجمع فاتن في مخططه: هناك مربعان (الصغير والكبير) متصلان مع بعضهما البعض بميلان ضئيل. الصوامع المقببة (للصوفيين) تطل على الفناءات الداخلية ومفصولة عنها بممرات مقنطرة ، قاعة مربعة الشكل للذكر (الصلاة) ، يوجد أمامها رواق ثنائي وجامع متاخم أمامه حوض ماء فسيح .

قاعة الصلاة مغطاة بقبة كبيرة على أسطوانة مع نوافذ مقطوعة . تتجه قاعة الصلاة نحو مكة وهي مُزاحة بسبب البناء السابق الذي كان في هذا المكان - وهو قصر مملوكي للحاكم بيبرس ، وهناك المآذن متعددة الأضلاع إبرية الشكل المتشابكة بشريط من الشرفات ذات التزيين التشجيرى والمتناظرة بالنسبة لقبة المسجد . للمسجد ثلاثة مداخل - الشمالي والشرقي والغربي . المحراب مكان الصلاة في المسجد والمنبر يشكلان بلا شك تحفة فنية من تحف الفن الإسلامي .

قاعة الصلاة من الداخل مزينة بترابيع مزخرفة ورخام متعدد الألوان ، وهناك زخرفة رائعة مبتكرة زرقاء بشكل أساسي ، وعلى خلفية بيضاء وسماوية وصوفية اللون - بيج - نقش هندسي يتعاقب مع نقش ورقي ، أما في المركز فتوجد رسوم بارزة مزرکشة بدقة . الألواح الخزفية البراقة والأنيقة مازالت في جامع السلیمانیة كنماذج لفن آخذ بالزوال كانت يوماً ماتزين داخل الكثير من المباني العامة والسكنية لمدينة دمشق . واجهة المبنى كانت مثل كثير من مباني هذا العهد مَكْشُوءَةً بصفوف متباينة من الحجر الأسود والأبيض أو الأصفر .

يستخدم في الديكور - بشكل واسع - الإكساء بألواح خزفية مع زخرفة متعددة على خلفية بيضاء ، ولكن في الوقت نفسه تمت المحافظة على التقاليد المحلية: تشكيل صفي للمآذن ، فسحات عميقة بين أعمدة المداخل ، وحجوم مقتضبة للمباني . أصبحت الديكورات الداخلية للجوامع والمدارس والخانات والقصور والبيوت السكنية الفخمة أكثر أناقة . ونشأت أحياء جديدة بسبب تزايد عدد سكان المدينة ، ومع تطور التجارة في دمشق أصبحت الأسواق معلماً بارزاً ، فعلى سبيل المثال سوق الحميدية (الشهير) المسمى على

شرف السلطان عبد الحميد الثاني . ونظراً لتعرضه للكثير من الحرائق فقد غطي بسقف حديدي في عام (١٨٨٥ م) . وقبل ذلك بكثير كان في هذا المكان سوق روماني ألا وهو سوق الأروام ، الذي أعيد بناؤه وتجهيزه في عام (١٧٨٠ م) ، وكان سابقاً مزوداً بالكهرباء قبل أن يتم رصفه في عام (١٩٠٥ م) . عند مدخل السوق كان في البداية بابٌ يدعى باب النصر الذي تمت إزالته في عام (١٨٦٤ م) . طول سوق الحميدية (٦٠٠) م . وما زال حتى الآن السوق المركزي لمدينة دمشق ويقود إلى جامع الأمويين .

يشكل خان أسعد باشا أحد المباني البارزة من العهد العثماني ، وقد بناه مؤسس قصر العظم في عام ١٧٥٣م ، ويعتبر أكبر وأجمل خان باقٍ في مدينة دمشق ، تبلغ مساحة فناءه الداخلي (٢٥٠٠ م^٢) وهو مربع الشكل يتوسطه حوض كثير الزوايا ، كان سابقاً مغطى بقبة كبيرة وثمان قبب صغيرة ، انهارت القبة الكبيرة نتيجة هزة أرضية ، أما القباب الصغيرة (التي يبلغ قطر كل منها (٩) م فإنها بزخرفتها تزين هذا المبنى .

يبلغ ارتفاع المبنى (٢٢ م) . وبدلاً من القبة الكبيرة فقد تم في الوقت الحاضر تصميم وتركيب غطاء زجاجي ميكانيكي قابل للمد . تحيط بالخان محلات تجارية كان يعمل بها تجار القرون الوسطى ، يمثل الخان بالنسبة لنا طراز مبنى ذي رواق مقنطر . هنالك درجان يقودان إلى الطابق الثاني ، رواق الطابق الثاني مكون بشكل رائع من قوسين مزدوجين . وهنالك أربعة أعمدة ضخمة تحمل كامل الثقل الكبير الذي يضغط على سقفه . يستخدم في التشكيل التزييني تعاقب الحجر الأسود والأبيض ، مدخل المبنى جميل على وجه الخصوص ، ويشكل تحفة فنية ، الجزء العلوي من الباب متوج بالمقرنصات المعلقة ، وعلى جانبي الباب لوحة من الأحجار الملونة المنحوتة . ظهرت في هذه الفترة تيجان الأعمدة ذات المقرنصات والقناطر المكونة من تقاطع أنصاف دوائر لم تكن موجودة سابقاً .

وظهر استخدام الفسيفساء الحجرية في تشكيل الجدران والأرضيات ،

واعتمد تتالي حجر الأبلاك الملون ، واستخدام اللوحة الخزفية على الجدران والترايع .

كل ما ذكر أعلاه يشكل مجموعة معمارية من العهد العثماني ، فالبيت النموذجي في العهد العثماني للمواطن الدمشقي الثري (يمكن القول حتى القصر) تكوّن من عدة مبانٍ من طابقين تجمعت حول فناء داخلي (أو فناءين أو ثلاثة فناءات) .

أطل البيت على الشارع (الحارة) بجدران مصمتة ومدخل متواضع . تأطر الفن الداخلي بأروقة مقنطرة أنيقة ونوافذ ذات شبكات مخرمة . الفناء مبلط بالرخام ، وفي المركز نافورة تخر مياهها ، والأشجار والشجيرات التزيينية تضيف برودة رائعة . (مثال قصر العظم ومكتب عنبر وبيت السباعي وغيرها) .

في فترة لاحقة من العهد العثماني بحدود القرن التاسع عشر - القرن العشرين تبدل طابع عمارة مثل هذه البيوت ، حيث أصابت التغيرات التزيينات الداخلية وطابع العناصر المعمارية .



بلغ عدد سكان دمشق في تلك الفترة أكثر من (١٥٠) ألف نسمة حسب نتائج تعداد السكان في عام (١٨٧١ م) وكان في دمشق ١٤٦٩٦ منزلاً. مع تطور التجارة ظهرت وبرزت طبقات غنية جديدة في المجتمع كالنخبة التجارية والفكرية. وظهرت أحياء حديثة خارج حدود سور المدينة ، فيبوت الأشراف الدمشقيين أقام فيها بشكل مؤقت الدبلوماسيون الأجانب ، ففي تلك الفترة أقام القنصل الإنكليزي في بيت سعيد القوتلي الذي بني في عام (١٨٦٧ م) في حي الكلاس بالقرب من جامع الأمويين. وكان بيت جبران شامية الذي بناه أنطوان أفندي في عام (١٨٦٦ م) في الحي الواقع ما بين باب توما وتلة القبة مقراً لإمبراطور ألمانيا في عام (١٨٦٩ م). وفي عام (١٨٩٨ م) كان مقراً لملك بروسيا.

تحت تأثير الفن المعماري الأوروبي تشكل أسلوب معماري خاص مغال في التزيين ويحمل صدى الباروك الأوروبي. مثال على ذلك نجده في تشكيل الليوان والسقف في غرفة الضيوف في بيت اليوسفي. يمكن أن نجد ملامح العمارة الأوروبية ذات التيارات الحديثة في بيت البارودي وجبري. جميع مباني هذا العهد الذي يمكن أن يسمى شرطياً (الباروك الدمشقي) هامة بلا شك وتشكل قيمة كبيرة لتاريخ العمارة السورية.

في حي (الحريقة) بدمشق في نهاية القرن التاسع عشر تم بناء الكثير من الأبنية وفق الطراز الأوروبي ، وبرزت فيها الكثير من العناصر التزيينية التي تنتمي للباروك والركوك ، لكن عند الحريق الذي حصل في عام (١٩٢٥ م) بسبب قصف المدفعية الفرنسية احترقت عملياً جميع البيوت ، وخاصة بيت مراد القوتلي الذي كان يشكل صدى للعهود الرومانية والعربية ومابعد العثمانية. لهذا السبب أطلق على هذا الحي بعد الحريق تسمية (الحريقة) بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية وقعت سورية تحت الحكم الاستعماري الفرنسي في العشرينيات حتى الأربعينيات من القرن العشرين. شكل ذلك مرحلة جديدة من التطور العمراني لمدينة دمشق.

بدأت في العشرينيات إعادة بناء المدينة وفق مخطط عام أعد من قبل

المعماريين الفرنسيين واختصاصيين من الدول الأخرى. وكثرت التصاميم الأوروبية في دمشق. جرى بناء محطة السكك الحديدية وفق مخطط أعدّه المعماري الإسباني (فرناندو دي أرنادو). وعلى ساحة المرجة تم نصب عامود برونزي وفق مخطط أعدّه معماري إيطالي. وأشيّدت أحياء حديثة وفق الأسلوب الإنشائي الفرنسي، فقسّمت المدينة إلى المدينة القديمة والمدينة الحديثة وهذا طابع مميز للشرق المستعمر. وسعيًا لمنح المدينة طابعاً محلياً، أدخل المعماريون إلى التشكيل الخارجي للمباني عناصر من العمارة العربية في هذه الفترة، فأصبح التناظر ميزة خاصة في تنظيم الفراغ الداخلي وواجهات البيوت المدنية الخاصة. وحصل تقسيم البيت إلى نصفين رجالي ونسائي شاقولياً. فالواجهة الأمامية لم تعد الآن مفتوحة على الفناء الداخلي كما كان الحال سابقاً بل على الشارع. وواجهات المبنى ذات نوافذ واسعة وكبيرة، وزودت بالشرفات البارزة وبدا واضحاً التعداد الطابقي للبيت.

في عام (١٩٤٦ م) أصبحت سورية دولة مستقلة، وهذا ما حفز وتيرة البناء، وبقي التوجه نحو النماذج الغربية في العمارة قائماً باعتبار أن الكثيرين من المهندسين المعماريين الشباب قد تخرجوا من أوروبا، تم في عام (١٩٦٠ م) افتتاح قسم العمارة في كلية الفنون - جامعة دمشق. وبتزايد الطلب على مهنة الهندسة المعمارية وتزايد شعبيتها كل هذا أدى إلى افتتاح كليات الهندسة المعمارية في جميع المدن السورية الكبرى. أصبحت دمشق في السبعينيات من القرن العشرين مدينة حديثة مزودة بأسباب الراحة، حيث ظهرت في المدينة أحياء سكنية حديثة وفيلات وأبنية متعددة الطوابق. أنشئت الحدائق وشيدت المدن الجامعية والمستشفيات والفنادق والملاعب الرياضية.

يعمل الآن في سورية جنباً إلى جنب المعماريون السوريون والأجانب، وتشاد المباني الحكومية والوطنية وفق تصاميم تعلن عنها بمسابقات، مثل مبنى قصر الشعب (القصر الرئاسي) في دمشق الذي بني وفق مخطط المعماري الياباني (كينز وتانغي).

العمارة المعاصرة لمدينة دمشق متعددة الجوانب، حيث بنيت الفنادق

العالمية الحديثة والمجمعات السكنية والتجارية الكبيرة والحديثة ،
والمجمعات البلدية والترفيهية . والمؤسسات التعليمية المعاصرة ، والمشافي
ومسارح الدراما والأوبرا . تتطور البنية التحتية للمدينة ، ويخطط لشق مترو
الأنفاق والترامواي السريع . تتوسع حدود المدينة وتتطور مناطق جديدة .

مرت العمارة السورية وعلى الأخص الدمشقية عبر تاريخ طويل من العصور
القديمة حتى القرن الحادي والعشرين . تضع الحياة المعاصرة أمام المعمارين
مهماً معينة وفي مقدمتها المحافظة على التراث العريق . من بين التأثيرات
الثقافية الكثيرة - التي حصلت على أرض سورية - لابد من الإشارة على وجه
الخصوص إلى ذلك الأثر الذي خلفته الحضارات الرومانية والعربية والتركية
والفرنسية . تقع جميع المباني المدروسة عملياً ضمن حدود المدينة القديمة .
تم إبراز الجذور التاريخية لتشكيل البيت السكني الدمشقي التقليدي في نهاية
القرن التاسع عشر - بداية القرن العشرين عبر دراسة تطوره خلال أربعة عهود
عمرانية أساسية . بقي الكثير من الأساليب المعمارية والعناصر التزيينية التي
نشأت في عهود سيادة الحضارات المذكورة حتى يومنا هذا .

- التخطيط المستطيل المنتظم للشوارع .

- المباني السكنية مربعة الشكل .

- البيت السكني الدمشقي هو بيت مع قاعة مركزية ونافورة ماء في الوسط .

- التوزيع الوظيفي للمسكن .

- استخدام مواد البناء المحلية (الطوب ، الحجر ، الرخام ، والخشب) وطريق
الإكساء (الزخرفة والتليس بقشور خشبية وحجرية ورخامية ، الفسيفساء ،
الترابيع ، والتصوير الجصي) وغيرها .

هذه الأساليب التي تعرضت لتغيرات معينة نتيجة التأثيرات المناخية
والبيئية والتقاليد الوطنية ، قد لقيت استخداماً واسعاً عند بناء البيت السكني
الدمشقي التقليدي ، تعددت أشكال تأثير ثقافات البلدان المجاورة على الشرق
العربي ، وساعدت على تكوين تقاليد معمارية فريدة وصياغة أشكال معمارية

للمسكن الدمشقي . تحصل في سورية الآن عمليات التمدن اللاحق والتصنيع
نظراً لتسارع وتأثر البناء وتزايد كثافة التعمير والسكان ، وهذا بدوره يضع أمام
المعماريين مهاماً جديدة لا بد أن يكون حلها مرتبطاً بثقافة وتقاليد البلد .





تأثر البيت السكني الدمشقي بالثقافة المعمارية الأوروبية الغربية

لقد كانت دمشق ولم تزال أم المدائن ومصنعاً لحضارات الأمم الغابرة واللاحقة على السواء قامت بتوليد حضارات تلو حضارات ، لانزال شامخة ، وستظل كذلك مرفوعة الجبين بأبنائها وشعبها تعطي وتعطي دون حساب ، ولا تزال ملامح حضارتها عمائر خالدة وكانت مساكنها عريناً شامخاً لساكنيها ويصعب على الغزاة الطامعين اقتحامها ، ولقد خرّجت قادة عظاماً عرفوا طريقهم فساروا عليه بثقة مطلقة لاتعرف الهزيمة إليهم سبيلاً ، لذلك فقد غدت مساكنهم صورة طبق الأصل لشخصية أصحابها ، رغم بساطة هذه المساكن ، ولعل هذه البساطة المتناهية هي التي تعطيها هذه العظمة في التكوين المعماري وفي فلسفتها المعمارية من الناحيتين الوظيفية والشكلية .

هذا وقد أثرت البيئة المحيطة بالمدينة كثيراً في شكل هذه المنشآت التي قاموا ببنائها ، فغدت تحفة فنية في جوهر العمارة العربية والإسلامية ، ولعل أحد سمات البيت العربي تمركز غرفه وقاعاته حول الفسحة السماوية التي تشكل الرئة الأساسية .

كانت سورية ودمشق طوال أربعة قرون جزءاً من الإمبراطورية العثمانية (١٥١٦/١٩١٨) ، وفي الوقت نفسه يمكن أن نرى هنا آثار ثقافات عديدة : الهلنستية والرومانية والبيزنطية المبكرة والعربية في القرون الوسطى والفرنسية ، ومن العوامل التي أثرت على آلية التغيرات في عمارة البيت السكني الدمشقي التقليدي خلال فترة تعتبر من أهم فترات العمارة الدمشقية من نهاية القرن

التاسع عشر - بداية القرن العشرين هي: العوامل السياسية والجغرافية والاجتماعية - الاقتصادية والدينية والثقافية.

العوامل السياسية المؤثرة على تطور اتجاه أسلوب (الباروك الدمشقي) الحديث:

تحولت سورية لتصبح أحد أقاليم الإمبراطورية العثمانية مما أثر سلباً على اقتصاد وثقافة البلد (لا مجال هنا للحديث عن سياسة البلد الواقع تحت السيطرة الاستعمارية لدولة أخرى). لا سيما وأن ذلك قد برز بعد القرن السابع عشر عندما أصبحت الدولة العثمانية تتدهور ، وبالطبع أصبحت أقاليمها تتدهور ، وعلى الأخص سورية. في نهاية القرن الثامن عشر تعززت المشاعر المعادية لتركيا ، فحصلت ، سلسلة من الانتفاضات. وبحلول نهاية القرن التاسع عشر أصبحت دمشق مركزاً للقومية العربية بفضل النخبة الثقافية التي ترعرعت هنا.

بعد قتل باشا دمشق في عام (١٨٣١ م) تم الاستيلاء على سورية من قبل باشا مصر محمد علي ، الذي أثار حكمه موجة من الانتفاضات الجديدة ، وفي عام (١٨٤٠ م) استعادت تركيا سيطرتها بدعم من الدول الأوروبية. وكما كتبت الباحثة (بانتشيكوفام. ت) حول سياسة فرنسا: كانت الخمسينيات - الستينيات من القرن التاسع عشر فترة تطور صناعي هائل لفرنسا. وفي هذه الظروف كانت هنالك أهمية كبيرة بالنسبة للبورجوازية الفرنسية تجلت في زيادة رقعة المستعمرات. (كانت سورية الهدف الأساسي لنابليون الثالث في الشرق الأوسط ، حيث قامت فرنسا بالحملة السورية في عام (١٨٦٠ م) خلال الحملة السورية لجأ نابليون الثالث مرات عديدة إلى بطرسبورغ طلباً للدعم).

كانت بريطانيا العظمى المنافس الأقوى لفرنسا. شكل مبدأ الأمر الواقع في المسألة الشرقية بالنسبة لحكومة بالميرستون وسيلة لمنع محاولات تقسيم الإمبراطورية العثمانية. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر أصبحت سورية تابعاً للدول المتطورة. وصل إلى البلاد الكثير من الوكلاء الإنكليز والفرنسيين

للظفر بالصفوة الإقطاعية ، وأشعلوا نار الفتنة الدينية مستغلين التركيب الديني متعدد الأطياف .

شكلت الانتفاضات العفوية الأولى للسوريين ضد الرأسمالية الأوروبية بداية لنضال شعوب البلدان العربية المعادي للإمبريالية .

في هذه الفترة على وجه الخصوص ظهرت في العمارة الدمشقية عناصر معمارية جديدة ، وتبدلت لغة العمارة من (الأسلوب العثماني) إلى (أسلوب الباروك) خلال حكم عبد الحميد الثاني (١٨٧٦/١٩٠٩) الذي قاد سياسة فظة جداً تجاه العرب ، اعتمدت على الحكم الاستبدادي والقمع . نشبت في دمشق مرات عديدة انتفاضات مدعومة من قبل البرجوازية العربية . في عام (١٨٩٨ م) زار دمشق الإمبراطور الألماني ويلهلم الثاني الذي أقام في أحد البيوت الدمشقية الثرية - في بيت القوتلي - وقدم بمثابة هدية لمتحف صلاح الدين الأيوبي ضريحاً مصنوعاً من الرخام مازال محتفظاً به حتى الآن . أصبح بيت نظام مقراً لقنصل إنكلترا . فالثورة البرجوازية في تركيا في عام (١٩٠٨ م) لم تحسن من وضع المواطنين في بلدان إمبراطوريتها . عملت الفصائل الفدائية على كامل الأراضي السورية . جرى تقسيم مركز دمشق إلى حارات كانت تغلق أبوابها ، حيث كان لها حراسها وحمايتها . كان ديكور المباني في هذه الفترة حسب أذواق المستعمرين الأتراك والغربيين .

يمكن من خلال مبانٍ كثيرة في دمشق ملاحظة تأثير الثقافة المعمارية الأوروبية ، وخاصة أسلوب الباروك الذي انتشر في أوروبا في القرن السابع عشر ، ووصل بعد مائتي عام إلى دمشق (أعظم مركز في العالم الإسلامي) اعتباراً من القرن التاسع عشر ، فقد كتبت (فورونينا): (حتى في نهاية القرن الثامن عشر لوحظ في الديكور تأثير الأذواق الأوروبية؛ حيث ظهرت زخرفة بأسلوب الباروك ، حيث ضمت حواشي الجدران والسقف تأطير مرايا ، وفي القرن التاسع عشر غطيت السقوف أحياناً بالقماش) هذه التأثيرات أدت إلى ظهور أسلوب جديد في العمارة الدمشقية؛ فاستخدمت مواضيع باروكية بشكل واسع في العمارة السكنية .

كان البذخ والتفاخر بالديكور الباروكي حسب أذواق المواطنين ، فكانت موضحة من نوع خاص: تنفيذ ديكور البيوت السكنية الدمشقية بأسلوب الباروك ، وهذه الموضحة هي نتيجة العلاقات المتنامية مع أوروبا سواء من قبل تركيا أو من قبل سورية ذاتها.

في نهاية القرن التاسع عشر كثرت زيارات التجار ورجال الأعمال والموظفين السوريين إلى البلدان الأوروبية وخاصة فرنسا. وفي سورية يعيش مواطنون أوروبيون.

حمل المهندسون المعماريون المدعوون مراراً من أوروبا معهم أيضاً الروح الأكاديمية الأوروبية في القرن التاسع عشر ، وتم إيفاد المهندسين المعماريين المحليين للدراسة في أوروبا ، وبالنسبة حصل انتشار لتأثير المدرسة الأوروبية ، ويطلق على هذه الفترة تسمية (ما بعد العثمانية) أو (الباروك الدمشقي). يطلق على هذا الأسلوب في المصادر العربية تسمية أسلوب (الركوك العثماني).

* * *

العوامل الجغرافية المؤثرة على نشوء الأسلوب الحديث في دمشق

اشترط الموقع الجغرافي على تقاطع الطرق التجارية الهامة للغرب والشرق ظهور تأثيرات فنية متعددة في الفن السوري ، وخاصة الأوروبية ، وكان لهذه التأثيرات علاقة وثيقة بالتقاليد المحلية ، وكان لموقع دمشق الجغرافي تأثير في ظهور أسواق تجارية كبيرة في الشرق الأوسط ، تشكلت في العهد العثماني شبكة من الأسواق المسقوفة (سوق الحميدية) ، التي لا يمكن بدونها الآن تصور المدينة السورية القديمة. فالسوق هو عبارة عن ممشى مغطى بأقواس مقنطرة تمتد على جوانبه محلات تجارية مع ورش ومخازن. واتخذ رجال الأعمال والتجار مساكن لهم على مقربة من أماكن عملهم.

تقع البيوت التي خضعت للدراسة في ستة أحياء رئيسة من المدينة: حول سوق الحميدية (في منطقة شارع خان أسعد باشا) ، وفي منطقة شارع القنوات ، وفي منطقة سوق ساروجة ، وفي منطقة شارع النوفرة (القيمرية) ، وفي منطقة باب توما ، وفي منطقة جامع الأمويين.

* * *



العوامل الاجتماعية ، والاقتصادية ، والدينية ، والثقافية المؤثرة على ظهور الأسلوب الحديث في فن العمارة الدمشقية

تشكلت في نهاية القرن التاسع عشر طبقة جديدة في المجتمع من التجار ورجال الأعمال الأثرياء ، وبوضعهم المادي الجيد أشادوا لأنفسهم مباني جديدة داخل حدود المدينة القديمة وخارجها في الأحياء الحديثة . كانت للبرجوازيين علاقات وثيقة مع أوروبا ، وبحكم عملهم في التجارة يتنقلون كثيراً ويزورون تركيا وفرنسا وإنكلترا وألمانيا ، ولهذا تغير شكل الكثير من شوارع المدينة : فبدلاً من الجدران المصمتة ظهرت واجهات مباني من طابقين وثلاثة طوابق مع نوافذ ذات درف وبلاكين فوق ممشى ضيق حتى الأعلى ، بشبكات خشبية مزخرفة تدعى المشربيات ، وشيدت المباني التابعة للبرجوازيين داخل حدود سور القلعة وخارجه ، على سبيل المثال بيت البارودي (١٨٨٩ م) في منطقة شارع القنوات ، الذي ظهرت فيه مجموعة كبيرة من مباني الصفوة الدمشقية : بيت موصلي ، وبيت سروجي ، وبيت قنوات ، وغيرها ، كما ظهرت مباني مماثلة في حي الميدان وحي الصالحية .

لكن أكثر المباني التي تعود لهذه الفترة قد بنيت في أحياء مختلفة داخل حدود سور المدينة : في الحي الشمالي من مدينة دمشق ، بالقرب من الجامع الأموي يوجد بيت تشيرازي وبيت سعيد قوتلي وبيت أمير الجزائري وغيرها . في الجنوب الشرقي من الجامع الأموي : بيت عقاد الثاني وبيت جبري ، في الجهة الشرقية من المدينة القديمة بني بيت شامية (بالقرب من باب توما) . توجد في حارة اليهود البيوت التالية : ليسبونا ، نيا دو ، دحاح ، شامية ، وغيرها .

في الجزء الجنوبي من المدينة توجد المباني التالية: بيت نظام (١٨٨٠ م) بيت شكري القوتلي ، بيت السباعي ، بيت أسطواني ، بيت كزبري ، بيت عقاد الأول وغيرها .

العوامل الدينية والثقافية التي أثرت على آلية تغيير البيت السكني التقليدي هي :

- بناء الكثير من الجوامع الحديثة والمباني الحكومية والقصور والمدارس والحمامات والمشافي والنوادي حتى دور السينما وغيرها من المباني .

- بناء وتخطيط المنشآت الدينية مرتبط مباشرة بالقوانين الدينية من حيث موقع وتوجيه الضوء ، فدائماً كانت أماكن الصلاة متجهة نحو الجنوب باتجاه مكة المكرمة ، المدينة المقدسة لجميع المسلمين ، يكون المحراب دائماً في الجزء الجنوبي من المكان .

- العمارة الدينية وعمارة القصور في سورية كجزء من الإمبراطورية العثمانية كانت قد اكتسبت ملامح العمارة التركية .

- شيدت أكثر المباني أهمية حسب تصاميم المهندسين المعماريين الأتراك (العثمانيين) مثل (المهندس المعماري سنان الذي بنى المجمع الديني الخيري - التكية السليمانية في دمشق) .

- واجهات المباني كسيت بصفوف متباينة للحجر الأسود والأبيض (أو الأصفر) بأسلوب الأبلاك . وأصبح الديكور الداخلي للقصور والبيوت السكنية للأثرياء أكثر زركشة .

- واجهات مباني في العهد العثماني مكسوة أيضاً بصفوف متباينة من الحجر الملون وزينة بأسلوب العجمي . وقف الإسلام ضد التصور الجداري ومنع تصوير الإنسان فاستخدمت الزخرفة الهندسية .

في نهاية القرن التاسع عشر تبدلت اللغة المعمارية ، وأراد التجار الأثرياء نقل عظمة أوروبا إلى دمشق ، كما أرادوا تغيير نمط حياتهم ، إنه احتجاج من

نوع خاص على الطبقة الحاكمة ، وأرادوا بذلك إدهاش الزوار. تبدلت أهمية مدخل المبنى ، فأصبح أكثر بهاء وغنى في الزخرفة. لم يبق ستيمر واحد فارغاً على جدران البيوت الدمشقية ، غطي كامل سطح الجدار بالتصوير الجصي الذي نفذوه فوق صف الحجر الملون المغطى بالزخرفة الجصية. مواضيع هذه المشاهد الجدارية كانت :

الزخرفة النباتية ، التي أحاطت باللوحات ذات المناظر الطبيعية والمعمارية. في التشكيل الفني للمباني حصل صراع معين للمتناقضات ، (وانتقاء من نوع معين للأشكال الباروكية). ظهرت في مباني هذه الفترة غرف جديدة: غرف المطبخ ، والمكتبات.

وبغض النظر عن تغير اللغة المعمارية بقي الحل الحجمي التخطيطي لهذه المباني تقليدياً: أي البيت المتجه نحو الداخل مع ردهة ، مرتكزاً على البيت الروماني ذي الفناء الداخلي. وهو عبارة عن جزء من أراضي الحي غالباً ما يكون على شكل غير منتظم مع إطلالة على شارعين - وهذا ليس دائماً - التركيز الرئيسي على منطقة الضيوف - الفناء مع اللوان أو بدونه - وهذه إحدى مزايا العهد الباروكي ، ومن الفناء يمكن الوصول إلى غرفتي ضيوف (القاعة).

الليوان - كما كان سابقاً - موجود في الجزء الجنوبي من المبنى. من حيث الوظيفة هنالك توزيع دقيق في هذه المباني ، كخاصية من خواص البيت السكني الدمشقي التقليدي: السلمك ، الحرمك ، الخدمك ، وأحياناً تتحد هذه الوظائف في فناء واحد. المباني العائدة لهذا العهد ذات قيمة تاريخية فريدة ليس بالنسبة لتاريخ العمارة السورية فحسب ، بل تشكل قيمة عالمية. أسلوب (الباروك) الذي يشتمل على عناصر روكالية دقيقة تتمثل في إيقاع معين للزخرفة المتكورة سوياً مع أسلوب الركوك^(١) المحدد بحداقة العناصر النباتية الدقيقة قد أثر بلا أدنى شك على المظهر العام للتشكيل الديكوري للبيت

(١) ركوك كلمة فرنسية ، أسلوب فني ذو جاذبية ساحرة في الفن الفرنسي في الربع الثاني حتى منتصف القرن الثامن عشر يتميز بالزخرفة المثقلة.

السكني الدمشقي ، كما تعرض لتأثيرات الشرق الأوسط العربي وصدى
الإمبراطورية العثمانية إلى جانب التيارات الفنية الهندية والصينية .

كل ذلك مجتمعاً يشكل طابع البيت السكني الدمشقي التقليدي أثناء الحكم
التركي ، كما ورد آنفاً ، نفذت إلى سورية عناصر جديدة من التشكيل
الديكوري ذات المنشأ الأوروبي الغربي . فهناك متطلبات جديدة للبيوت
السكنية ، وكل ذلك قد أدى إلى تغييرات هامة معمارية وتخطيطية ووظيفية
وفراغية وديكورية وإنشائية . أصبح التناظر صفة مميزة وشكل أساس التنظيم
المعماري للفراغ السكني .

أصبحت الواجهات متناظرة ، ولم يعد الجانب الرئيسي للمبنى متجهاً إلى
الفناء الداخلي ، بل قطعت الواجهات الخارجية بنوافذ واسعة كبيرة ومشربيات
مقلدة أو شرفات مفتوحة ، وبدا بجلاء التعداد الطابقي للبيوت . وجرى التوزيع
إلى النصف الرجالي والنصف النسائي شاقولياً : غرف الرجال وغرف استقبال
الضيوف - في الأسفل . أما غرف النساء والمطبخ - في الطابق الثاني (كما هو
الحال في بيت البارودي وبيت القوتلي وغيرها) . في بيت البارودي كان المطبخ
والمكتبة وغرف النوم النسائية في الطابق الثاني . في بيت القوتلي كانت المكتبة
على مستوى أعلى من الفناء الداخلي ، يمكن الوصول إلى عتبة هذه القاعة عبر
الصعود على درجتين جانبيتين مقابل النافورة .

ضمت كسوة الجدران والسقف تركيب حواشٍ زجاجية ، وكسيت السقوف
بالقماش وزينت الجدران والخزن المبنية في الجدران بمناظر طبيعية . جميع
واجهات الفناء الداخلي بنيت على ارتفاع واحد ، واعتبر الإفريز عنصراً معمارياً
هاماً في ذلك العهد - ما بعد العثمانية - في العمارة الدمشقية كنتيجة لتأثير ثقافة
العمارة الأوروبية الغربية على اللغة المعمارية للبيت السكني الدمشقي التقليدي
في نهاية القرن التاسع عشر - بداية القرن العشرين .

في فترة لاحقة من عهد الإمبراطورية العثمانية بحدود القرن التاسع عشر -
القرن العشرين حصلت في سورية تغييرات جوهرية أدت إلى ظهور وتطوير
الأشكال الأوروبية في الفن والعمارة . وهنا وبشكل خيالي تندمج الأساليب

والتقنية الأوروبية سواء في التصوير الزيتي الجداري الرائع ، أو في العناصر المعمارية التي تمثلها الفنانون الأتراك الذين ترعرعوا بروح الأكاديمية الأوروبية في القرن التاسع عشر. علت جدران المباني ، فوق مدخل البيت توجد نقوش بارزة بأشكال باروكية. شيدت المباني وفق مخططات معماريين أتراك وأوروبيين غربيين (فرنسيين على وجه الخصوص).

يشاهد ذلك في دمشق من خلال استخدام الزخارف والنقوش البارزة والتصوير الجداري والسقفي. ويمكن إرجاع هذه الملامح بكل تأكيد إلى ما يسمى: فن العمارة الدمشقية في العهد ما بعد العثماني (الباروك الدمشقي). الدوائر الحاكمة في دمشق سعت في هذه الفترة للتأكيد على قوتها واثرائها عن طريق مظهرها العام.

* * *



الباروك الدمشقي

أو الانتقائية ذات الأشكال الباروكية

الباروك: (كلمة إيطالية الأصل وتعني غريب ، شاذ ، منفر ، فاسد) وهو إحدى أصعب المصطلحات وأكثرها معنى في تاريخ العمارة. تطلق كلمة (الباروك) على سلسلة من الأساليب الفنية التاريخية - الإقليمية في الفن الأوروبي في القرن السابع عشر - القرن الثامن عشر ، والمراحل الحرجة الأخيرة من تطور الأساليب الأخرى ، والنزعات الرومانسية القلقة والتفكير في الأشكال التعبيرية والمضطربة.

في كل مرحلة تاريخية من مراحل الفن يمكن أن نشاهد (باروك) معين في ذروة النهوض الفني ، وتركيز الأحاسيس وتوتر الأشكال. يكتب الباحثون حول نوعيات (الباروكية) كخاصية لا تتجزأ من الثقافات القومية المستقلة والأنماط التاريخية للفن. الشيء الأروع في أسلوب الباروك الذي ظهر على أساس الأشكال الفنية وفي مقدمتها المعمارية ، وعصر النهضة ، فهذا الفن وضع في مضامين أخرى ، وفي الوقت ذاته يطلق على الباروك أنه فن الوهم.

مثل هذا الوهم (الانخداع) يمكن تتبعه حتى في (الباروك الدمشقي) ، حيث نتيجة إعادة إدراك الفراغ المعماري نشأ أسلوب الباروك: النمو العضوي للأشكال ، كذلك الآلية ، واللاعقلانية ، وسيادة الشاقولي على الأفقي مما شكل البداية الحسية لفن العمارة. إحدى المؤشرات الأولى الدالة على الباروك: فيض الوسائل واندماج الموازين ، الأبواب والنوافذ أكبر من طول الإنسان بمرات عديدة. وتكرار لا نهائي ، ونسخ للأساليب والأفكار نفسها.

اللوحات الأولى التي رسمت على جدران البيوت الدمشقية تعود إلى عام

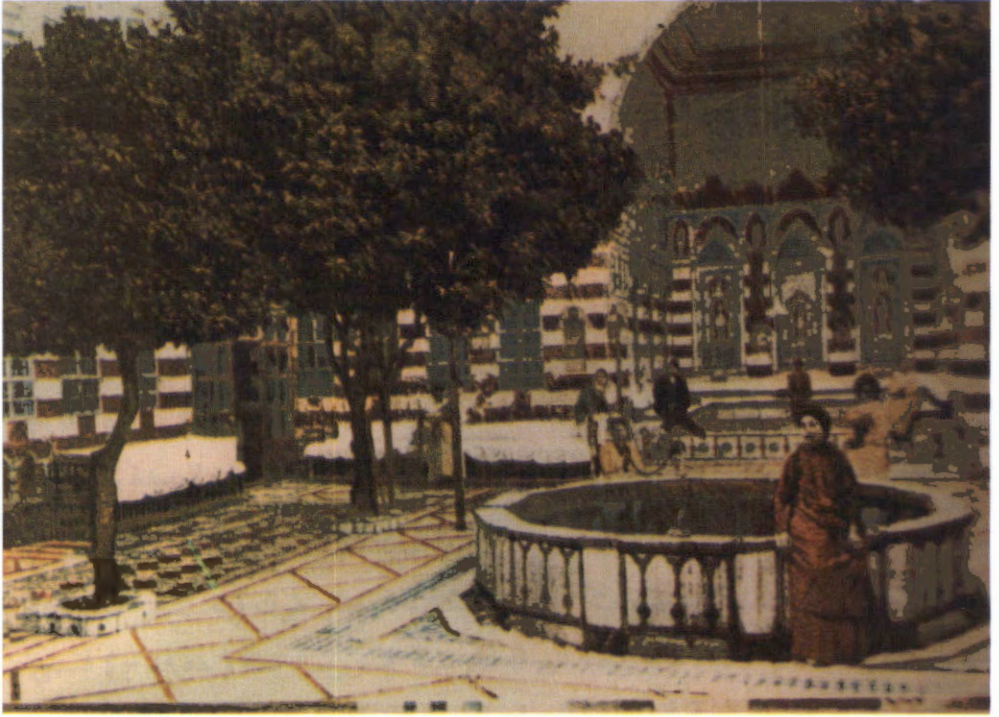
(١٨١٩/ ١٨٢٠) وفق ما ذكرت (مايا مرمرياشي) في كتابها (بيت عقاد) غالباً ما يعبر عن الأعمدة والستائر ، التي تشكل إطاراً لمناظر طبيعية متعددة عبرت عن روما وفينيسيا والمدينة وبعض المشاهد الخيالية عن الجنة ، وباريس ، وذلك كما في الديكور الداخلي لبيت البارودي الذي ما زال محافظاً فيه على تاريخ الكتابة وهو عام (١٩٠٧ م).

أدى تعزيز لاعتقالية العمارة إلى أن الواجهة لم تعد (تحدث) عما يوجد داخل المبنى ، بل على العكس حجبت المبنى وأصبحت مزخرفة ، أما الفراغ الداخلي فشكل بروعته وحجمه وأبعاده الاستثنائية دهشة للناظرين ، اعتمد الحساب على عنصر المفاجأة والتباين وعدم توقع الانطباع.

شكلت غرابة الواجهات ديكوراً معيناً. في هذه الفترة ظهرت في العمارة الدمشقية أشكال بيضوية للنوافذ والنوافير.

الميزة الأهم في العمارة الباروكية يمكن تحديدها كنزعة لتغيير البداية البنيوية بالأتكتونية ، والنحتية بالتشكيلية ، والنفسية بالتصويرية ، يتميز فن الباروك (برهاب الفراغ) كمبدأ للتشكيل والتصويرية التي تختفي فيها حدود الإنشاءات المعمارية والديكور النحتي والمجسم والتصويري ، مثل هذه الأساليب للدمج المتعمد لوظائف التأطير والتعبئة ، وعدم الانتظام ، و(الخروج عن الإطار) ، وهذا ما يطلق عليه في الأدب: عدم انتظام الأشكال (كلمة لاتينية - غير متتالي - مخالف للقواعد).

الوسيلة الإضافية المسماة (تقوية التصويرية) تتجلى في اللعب بالنور والظل ، المتدفقين في كل مكان من مصادر غير متوقعة وباتجاهات متباينة ، فلم تعد الأعمدة والجدران تبدو على أنها دعائم تفصل الفراغ الداخلي عن العالم الخارجي.



تتميز الجدران بطيفها اللوني الجذاب في هذا العهد ، حيث أصبح اللون باهتاً ومبهماً ومتناسباً وممزوجاً ومعقداً أكثر من حيث المزيج . غالباً ما استخدم في الديكور الداخلي اللون الأخضر مع الأبيض (كما في بيت البارودي) ، والأبيض مع السماوي (كما في بيت عقاد الأول) ، وزمردي مع ذهبي (كما في بيت نظام) ، ووردي أو رمادي ، إحدى مزايا الباروك هو أن الجدار يبدو أقل قيمة بصرياً ، وأصبح ستاراً وهمياً ، وجانباً زاهياً في إطار مزخرف بسخاء . الأعمدة بشكلها الكورنثي وإفريزها المتموج ، وحجوم بارزة تارة ومنحرفة تارة أخرى ، ومعالجة للضوء والعتمة لتعزيز التأثير كل ذلك سويًا خلق شعوراً بالغموض

الأشكال المتشكلة في العمارة كالأعمدة والأقواس والقبب قد صغرت وأصبحت عناصر لتزيين الأثاث والمنتجات المصنعة من النحاس والرخام والخشب ، الدعائم ، والتجديدات التزيينية ، والإطارات المزخرفة كلها مجتمعة تشكل عناصر مساعدة (لغمر الفراغ). لقد أدى مزج العديد من وسائل التشكيل الفني المسمى (الانتقائية مع الأشكال الباروكية) إلى التحول من الخارج إلى الداخل ، ومن الديكور الخارجي إلى الديكور الداخلي ، ومن الأفقي إلى الشاقولي ، وبدلاً عن الأسقف الخشبية حلت الأسقف المزركشة والمزخرفة باللوحات الزيتية ، كما المدخل الخارجي لحرمك بيت البارودي .

كما تبدل شكل نوافير الفناءات الداخلية : فبدلاً عن النوافير مثمثة الأضلاع ومسدسة الأضلاع ، حلت النوافير ذات الشكل البيضوي وأحياناً البيضوي المعقد ، مثل هذه النوافير يمكن أن نجدها أيضاً في الديكور الداخلي . وأصبحت المرايا جزءاً لا يتجزأ من الديكور الداخلي ، وتحت المرايا طاولات ذات شكل باروكي . تبدلت أيضاً ملامح الأثاث الناعم فأصبحت أكثر رشاقة وأناقة .

في هذه الفترة أصبح بالإمكان وجود غرف المطابخ في الطابق الثاني ، كما في مثال بيت البارودي ، بالقرب من الصالونات الصغيرة للسيدات وغرف النوم ، وهذا لم يكن ليحصل في مباني العهد العثماني ، حيث كانت مثل هذه الأماكن موجودة بصرامة على مستوى واحد مع غرف الضيوف .

ومن المهم أيضاً التوقف عند الأواني المنزلية بما فيها البلورية والمصابيح التي توضع على الطاولات في تلك الفترة ، حيث تذكر بالآنيات الزجاجية البوهيمية ، فهي مميزة لأسلوب الباروك (بالألوان نفسها - الأحمر والأزرق أو الأبيض مع الذهب). وبالنسبة للفناءات الداخلية فقد بقيت الخضرة والنوافير سائدة كما كان في السابق . ويمكن ألا يكون هناك الرصف نفسه (المقلم) اختفت الأروقة المقنطرة . جميع واجهات الفناء الداخلي ذات إفريز أو طنف واحد ذي أشكال أنيقة جداً ، وهذا أيضاً لم يكن ميزة من مزايا أبنية العهد

العثماني . يمكننا مشاهدة ذلك في بيوت البارودي وتشيرازي والقوتلي وجبري وغيرها .

تتجلى دراماتيكية الباروك الدمشقي في تضارب الموقف الوثني والشعور والشرح النفسي من نوع خاص ، الذي ظهر في مزايا التكوين والنحت والرسم واللون . فكرة الباروك سعيًا لإيجاد جو لاعقلاني روحاني وفي الوقت نفسه جعله ملموساً ومادياً (كي يصبح بالإمكان لمسها باليدين) ، واستناداً إلى ماكتبه باحثون تشيكيون فإنه يعكس اللغة المعمارية للباروك الدمشقي : يتبنى الباروك تقنية البناء السابقة . وغالباً ما يستخدم الآجر (وفي حالتنا الطوب) والتجصيص . كانت الجدران الضخمة المبنية من الطوب والحجر تغطي غالباً بطبقة من الجص .

أما سطوح الجدران من الداخل والخارج فكانت مزينة بشكل مسرف بعناصر معمارية معدة من المادة نفسها . . يطلق على الباروك أحياناً تسمية (العمارة الجصية) وتصبح القنطرة أهم وسيلة لتنظيم الفراغ . يمكن بلوغ التأثير على المشاهد من خلال تتالي الخطوط والسطوح المقعرة والمحدبة ، ومن خلال إنشاء لعبة الضوء والعتمة الغنية بالتباين الزهري والاستخدام الفعال للتصوير الزيتي والنحت ، إنه خداع حركة الفراغ .

جميع الدلائل المذكورة آنفاً موجودة في عمارة القصور الدمشقية في نهاية القرن التاسع عشر - بداية القرن العشرين . ترك الباروك الدمشقي مساهمة كبيرة في تاريخ العمارة السورية . وهذه الفترة لم تدرس إلا قليلاً ولكن تحتوي على إمكانيات عظيمة للدراسة المعمقة . من الصعب تحديد أين يبدأ أسلوب الباروك في المباني السكنية الدمشقية وأين ينتهي ؟ .

من الممكن فقط تحديد المبادئ الأساسية والقوانين الموضوعية للتشكيل ونزعات تطوره التاريخية . الأول في سلسلة هذه المباني السكنية هو بيت البارودي ؛ عائلة البارودي هي إحدى أغنى وأقدم العائلات الدمشقية ، تعود جذورها إلى أقدم ممثل لهذه السلالة وهو الشيخ ظاهر العمر والجد حسان آغا . بني هذا القصر بالطراز الدمشقي النموذجي من قبل التاجر الثري فخري بيك

البارودي ، خارج حدود سور مدينة دمشق في عام (١٨٨٩ م) على شارع القنوت ، حيث عاش في هذا الحي أصحاب النفوذ في المدينة ، الذين توقف عليهم الكثير ، فهم كانوا الواعظين ومؤسسي التشريع ، بما فيه تشريع الأسلوب في العمارة والفن . حتى الوقت الأخير لم يخضع هذا المبنى للدراسة .

أما في الوقت الحاضر فإن جزءاً من هذا البيت وهو الحرمك يتبع لكلية الهندسة المعمارية في جامعة دمشق ، حيث يمكن للطلبة دراسة هذا المبنى إضافة إلى رسمه وإجراء القياسات وترميمه لاحقاً ، حيث افتتح في هذه الكلية قسم حديث للترميم .

في الحل الحجمي - التخطيطي لهذا المبنى توجد ثلاثة فئات مختلفة من حيث مهمتها الوظيفية . المبنى ضخم بأبعاده ، وقد قسم في الوقت الحاضر إلى ثلاثة أجزاء لمالكين مختلفين ، جرى ترميم أحد هذه الأجزاء . يمكن تعقب تأثير العمارة الغربية عند المدخل الرئيسي الكائن في شمالي المبنى . تعلو فتحة الباب العالية المبنية من الرخام عنصر تزييني (ديكوري) ذو نقش بارز من أوراق الأقنأ ، وفي وسطه تم التعبير عن كتاب وسط إطار مزخرف . وبتجاوز فراغ الاستجمام الكبير نصل إلى فناء داخلي كبير وهو حرمك هذا المبنى . تقع وسط هذا الفناء نافورة كبيرة ذات شكل بيضوي معقد بالشكل الباروكي . نشاهد هنا مثلاً على الفناء الدمشقي بلا ليوان ورواق مقنطر . دور الليوان في هذا الفناء الداخلي تلعبه قاعة الاستقبال الكبيرة الواقعة في الجزء الجنوبي من الفناء والتي تتجه شمالاً مقابل النافورة .

نلاحظ أن هذا النوع من القاعات بلا توزور - التناظر - هو أساس تشكيل هذا المبنى . في وسط القاعة توجد نافورة بيضوية الشكل ، وفي الجهة المقابلة لها مرآة عالية منفذة برهافة مع طاولة رخامية تحتها .

وبشكل متناظر بالنسبة للمرآة تقع اللوحات الجدارية ، تكرر من حيث الشكل فتحات النوافذ في إطارات رخامية . السقف والجدران مغطاة بزخرفة حجمية ومناظر طبيعية ما زال محافظاً عليها بشكل رائع حتى وقتنا الحالي . هذه

الزخارف ذات ألوان أربعة وهي الأخضر والذهبي والوردي والسماوي . أرضية القاعة مبلطة بالرخام كما هو الحال في أرضيات الفناء بالكامل . في تشكيل الأبواب والمرايا نشاهد نحتاً ونقوشاً بارزة من الرخام .

التنفيذ نصف الدائري لنوافذ وأبواب الطابقين الأول والثاني ذو عنصر تزييني من نوع خاص متأصل أو ملازم ، ليس فقط لهذا المبنى بل لجميع المباني العائدة لتلك الفترة الزمنية . تزين هذه النوافذ شبكات خشبية منقوشة . وعلى الواجهة الشرقية للفناء الداخلي وفوق نوافذ الطابق الأول توجد فتحات نوافذ صغيرة بيضوية الشكل تكرر شكل النافورة . لا وجود لعناصر العمارة العثمانية في التشكيل الديكوري لهذا الفناء . كل شيء هنا يتحدث عن تأثير العمارة الأوروبية الغربية .

هذا التأثير يمكن بكل جلاء تعقبه في تشكيل الديكور الداخلي . من الممتع والمهم هنا التخطيط الوظيفي للأماكن والغرف المحيطة بهذا الفناء :

غرفة الطعام فسيحة في الطابق الثاني ، في الجزء الشمالي من المبنى ، يمكن الوصول إلى غرفة الطعام بعد الصعود على درج داخلي موجود في الجهة الشرقية من الواجهة الداخلية عبر المرور خلال جناح الغرف . يمكن أن نسمي غرفة الطعام في بيت البارودي (الغرفة الفيروزية) من حيث ألوان الجدران والسقف المزخرف بأسلوب التشكيل الديكوري ، توجد في غرفة الطعام العديد من الخزن المبنية في الجدران للأواني المنزلية مع سقف مزخرف بشكل أنيق .

سقف وجدران غرف الطابق الثاني مزخرفة بالتصوير الجصي ، كما هو الحال في الطابق الأول تسود فيه الزخرفة النباتية وتمثيل عواصم مشهورة في العالم (باريس ، روما ، استانبول) ، أو ببساطة من خيال الفنان حول موضوع معماري . مقابل القاعة المركزية في الجهة الشمالية من الفناء نشاهد غرفة يحتمل أن تكون غرفة نوم مع نهاية مثلثة تعلو فوق الإفريز الموحد للمبنى - وهذه تسمى عادة (الغرفة الطيارة) المستخدمة في مخططات البيوت في نهاية القرن التاسع عشر .

يربط الكوريدور المنعطف - الدهليز - فناءين من هذا المبنى وهو الحرم ملك والسلم ملك .

الفناء المكشوف الثاني المخصص للنصف الرجالي من قاطني هذا القصر السلم ملك ، عبارة عن فناء مع ليوان عابر قائم في الجزء الجنوبي من المبنى وله مدخل ثان مع شارع القنوات . هذا الفناء قد رمم في الوقت الحاضر ويتبع لمدرسة للأطفال المنغوليين . السلم ملك غني بالعناصر الديكورية الخاصة بعمارة العهد العثماني والباروك .

من الجدير بالذكر أن الليوان في هذا الفناء الداخلي له قيمة وظيفية مختلفة أكثر مما هو عليه الحال في البيوت الدمشقية الأخرى ، فهو ليس بمنطقة استجمام وراحة ، بل منطقة عبور يمكن الوصول إليه عبر النزول بدرج من شارع القنوات أدنى من منسوب الشارع . ومن الليوان يمكن أن نصل إلى قاعتين كبيرتين (تمثلان طراز قاعة مع توزور واحد) تقعان مقابل بعضهما البعض . القوس الذي يفصل بين الليوان والفناء الداخلي منفذ من الرخام مع زخرفة نباتية منقوشة تزيينه ، وتستند إلى أعمدة جدارية ذات تيجان كورنثية . أرضية الليوان مبلطة بالرخام الملون وتشكل دائرة مشكلة من العناصر النباتية والزهرية .

تشغل النافورة ذات الشكل مئمن الأضلاع المكان المركزي في الفناء ، وهذه خاصية العمارة في العهد العثماني ، أرضية الفناء مغطاة برسم هندسي مشكل من مزج البازلت الأسود والحجر البيجي . مقابل النافورة في الجزء الشمالي من الفناء توجد قاعة الضيوف الرئيسية التي تتجه جنوباً وتمثل طراز قاعة بطرزين ، تتميز جدرانها وسقفها بزخرفة غنية بالنقوش والفسيفساء الرخامية ، وشكل من الزخرفة النباتية (أوراق الأقنثا ودالية العنب والزهور) ، وقد رمت في الوقت الحاضر بلا خبرة على الإطلاق .

بدأت مدينة إستانبول موضوع زخرفة هذا المكان وهي محاطة بإطار بيضوي مشكلاً بأوراق الأقنثا المتشابكة وغيرها من العناصر النباتية . ألوان هذه الزخرفة : خلفية خضراء وإطار من مزيج البيج والبني والأخضر والسماعي . هذا المكان طلي (كلوحة شعبية رخصية) بدون دراسة وتحليل وحساب كما

كانت تبدو سابقاً ، ومن هنا يشعر المرء (بالحدائة). الطابق الأول من هذا المبنى ملبس بالحجر باستخدام أسلوب الأبلاك ، أما الطابق الثاني فهو نصف خشبي كالعادة ويمثل مزيجاً من الهيكل الخشبي والتجسيص . عملياً لاوجود لجدران في الطابق الثاني ، حيث استبدلت بفتحات النوافذ المتوضعة جنباً إلى جنب على كامل محيط الجدار .

الفناء المكشوف الثالث هو الخدملك ، وهو في الوقت الحاضر في حالة يرثى لها . هذا الفناء مزود بليون مغلق عادي ونافورة في وسطه ذات شكل هندسي مع مصابيح (مشكاة) متوضعة بشكل متناظر على جانبي الليوان للإنارة . فالخدملك أصغر بكثير وأكثر فقراً في ديكوراته ، وهذا الفناء مخصص للخدم ، وهنا توجد غرف نوم الخدم .

حتى الآن لم يدرس بيت البارودي عملياً ، لكن بالحكم عليه من خلال الصور فهو مهم ويحتوي على الكثير من مزايا العمارة الأوروبية التي لم تكن معروفة سابقاً في دمشق . واجهات الفناءات الداخلية كافة شيدت تحت إفريز (كورنيش) موحد . من الملفت تصميم النوافير وإطارات الأبواب والنوافذ والتيجان والشبكات . التغييرات في ديكور الفراغ الداخلي للقاعات الرئيسية والفناءات ، واستخدام الخشب المنقوش والرخام والتجسيص والزخرفة النباتية ، واستخدام المرايا وإطارات المناظر الطبيعية الخاصة بأسلوب الباروك تحثنا على التوصل إلى استنتاجات كثيرة حول ظهور أسلوب معماري جديد في العمارة السكنية الدمشقية .

بالقرب من بيت البارودي يوجد بيت موصللي ، حيث يتبع هذا المبنى حالياً لوزارة التربية وهو في حالة يرثى لها . هذا البيت بفناءيه الداخليين ومنهما الفناء المركزي المزود بليون مزين باللوحات بأسلوب الباروك في إطارات بيضوية (قياس ١ م) ، يطل ليوان هذا الفناء على قاعتين . وفي القسم الشمالي من الفناء توجد قاعة مع توزور ونافورة ، القاعتان الغربيتان لهذا الفناء مهدمتان في الوقت الحاضر ، فالبيت بحاجة مُلحّة للترميم . من حيث الأسلوب ولون اللوحات الجدارية يمكن التأكيد على أن الزخرفة قد نفذت في نهاية القرن

التاسع عشر على يد فنانين محترفين مدعويين من تركيا أو أوروبا. صمم ديكور غرفة الضيوف الشمالية بالأسلوب العثماني: الأبلاك على الجدران والزخرفة بأسلوب العجمي - على السقف والخزن الجدارية. صمم ديكور القاعة الغربية من هذا الفناء بأسلوب الباروك: زخرفة جدارية مطلية بالذهب ونحت ومرايا وتشكيلات ذات نقوش بارزة. للأسف لم يعد وجود لهذا المكان ، فهو موجود فقط على الصور التي التقطها مروان مسلماني .

مقابل بيت موصللي يوجد بيت سروجي ، فهو يجذبك من الشارع: إفريزات مزخرفة باللون الأخضر الخفيف ، شرفات مقوسة مع مشربيات خشبية. لا توجد أية معلومات حول هذا البيت ، سمح السكان المحليون بالدخول إلى فناء واحد فقط من هذا البيت. المبنى أيضاً في حالة سيئة ويتطلب ترميماً عاجلاً ، نصفه مهدم ، لكن في الوقت ذاته من خلال تلك العناصر التي بقيت محافظة على نفسها جزئياً يمكن الحكم بأن هذا المبنى كان في وقت من الأوقات مصمماً بديكور رائع ، كما هو الحال في بيت البارودي الواقع بالقرب منه. من ناحية الشارع يلفت انتباه الزائر الإفريز المزخرف والمشربية والألواح الخشبية السفلية المزخرفة أيضاً. فناء هذا البيت يمثل فناءً مع ليوان أصغر قياساً من الفناء الموجود في بيت البارودي وموصللي. كان الليوان سابقاً مزخرفاً بالرسوم الجدارية مع إطارات بيضوية الشكل بللورية على الأغلب ، مقابل الليوان نافورة بيضوية كانت يوماً ما مزخرفة بحواف من حديد الصب على شكل أسود ، ومقابل الليوان يوجد درج يقود إلى الطابق الثاني ، الجدار الذي يستند إليه الدرج كان سابقاً مزخرفاً كما جدران درج بيت مجلد. الطابق الثاني مزين برواق مقنطر تطل عليه الغرف السكنية.

المبنى الثاني الذي أردنا التوقف عنده هو بيت القوتلي ، وبدقة أكثر بيتا القوتلي ، البيت الأول هو بيت شكري القوتلي (ممثل عائلة دمشقية عريقة كان رئيساً للجمهورية العربية السورية مرتين) وهو على مقربة من بيت السباعي الذي بني على يد رجل ذي مركز كبير في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. الوضع السياسي والاجتماعي لصاحب هذا القصر أوجب تصميم ديكور إفرادي وفاخر

جداً لهذا القصر. عاش في هذا المبنى في نهاية القرن التاسع عشر قنصل إنكلترا. وبالطبع تميزت عناصره الديكورية بأسلوب الباروك:

السقوف المزخرفة الممتدة مع إطارات بلورية ، كسوة الجدران الداخلية بالمرايا وبالرسومات الجدارية أيضاً ، واجهات الفناء الداخلي كافة ذات إفريز موحد يمثل عنصراً معمارياً بارزاً في هذا المبنى. وعلى كامل المحيط نجد الإفريز مزيناً بعدة زناوير مزخرفة مكونة من ثلاثة أقسام:

في القسم العلوي كرائيش زخرفية جصية متوضعة بشكل متراص بعضها مع بعض ، توجد تحتها دعائم متوضعة على مسافة واحدة توجد بينها حلي معمارية وردية الشكل وحجمية. في الأسفل هنالك حزام زخرفي مكون من دالية عنب مجعدة مقرونة مع أوراق الأقتنا ، وتحت هذا الحزام توجد خطوط زخرفية مكونة من الإيونيات وتحتها الدعائم من جديد. الإفريز محمل بالعناصر الديكورية التي تذكر بعناصر مباني العهد الإغريقي - الروماني. تحت الإفريز نجد الجدار مزيناً بنوافذ ذات أبعاد كبيرة توجد بينها عمادات (أعمدة مستطيلة ذات تيجان وقواعد ناتئة بعض الشيء من جدار) من الطراز الإيوني ، توجد فوق تيجانها تراكيب منحوتة مع دالية عنب. شباك النوافذ يشبه من حيث شكله شباك بيت البارودي. في هذا المبنى تشعر بالعظمة والذوق في تصميم الديكور كما في بيت البارودي ومجلد وعقاد.

يتكون المبنى من فناء داخلي مستطيل الشكل مع ليوان ، له وظيفتا الحرملك والسلملك ، وحول هذا الفناء وقعت الغرف متعددة الأغراض ، مثال القاعة الشهيرة ذات النورين - وهي قاعة بلا توزور في القسم الشرقي من الفناء. توجد في القسم الغربي من الفناء قاعة بطزر واحد ، أما في قسمه الشمالي ، فهنالك قاعتان متناظرتان مفصولتان عن بعضهما البعض بدرج يقود إلى الطابق الثاني من المبنى. في القسم الجنوبي من المبنى توجد قاعتا الضيوف المتناظرتان بالنسبة لليوان توجد فيهما لوحات بالقياس الكبير (١٢٠ × ١٠٠ سم) تمثلان مدينة استانبول: جوامع وأقنية مضيق البوسفور مع السفن التجارية. اللوحة مصممة في إطار مزخرف بأوراق الأقتنا بأسلوب الباروك.

مقابل الليوان توجد نافورة على شكل مثنى أضلاع معقد. إن هذا البيت في الوقت الحاضر في حالة سيئة جداً ومغلق منذ ثمانية أعوام للترميم. تم خلال الترميم سحب السقوف ومن غير المعلوم هل (ستعود) إلى مكانها السابق ، مثل الكثير من العناصر التزيينية الكثيرة الأخرى التي لا تكرر لها في غير هذا المبنى ، من المحتمل أنها سرقت إلى الأبد! .

بيت نظام ، الواقع قرب بيت شكري القوتلي ، مكون من مبنيين مختلفين مدمجين ، يفصل بينهما جدار. الواجهات الخارجية كافة مطلة على شارع الأمين ، الجدران مطينة بلا زخرفة ديكورية ، وملبسة بالحجر على مستوى الطابق الأول ، أصحاب هذا البيت هم عائلة دمشقية عريقة من سلالة ملك سعيد محمد النظام. الجزء الغربي من البيت يتبع لناصيف باشا العظم وأصله من جنوبي لبنان واشتهر كتاجر للبضائع المنزلية. محمد علي نظام الذي سلم ميراثه للدولة أعاد بناء هذا البيت في عام (١٨٧٠ م). في هذا البيت نجد مزيجاً لعناصر العمارة العثمانية والباروكية .

يتكون المبنى من ثلاثة فناءات داخلية: الفناء الأول الموجود عند المدخل في القسم الغربي من المبنى - السلملك ، وهو فناء مع ثلاثة ليوانات - وهي ظاهرة نادرة نوعاً ما في البيوت السكنية الدمشقية: الأول هو ليوان العبور حيث يلعب دور فسحة الدخول. ويوجد فيه درج للوصول إلى الطابق الثاني. الليوان الثاني موجود في الزاوية اليسرى لواجهة الفناء الداخلي الغربية ، أما الليوان الثالث فيطل على قاعتين مع طوزرات وغرفة سرية. صممت ديكورات الليوان وفق جميع قوانين العهد العثماني: العوارض السقفية مزخرفة بأسلوب العجمي ، والجدران ذات ديكورات تتجلى بتتالي الحجر الملون. في القطاع العرضي من الليوان توجد غرفة ذات باب خشبي وسقف خشبي مطلي تمثل قاعة مع عتبة وطزر وأرضية فسيفسائية رخامية. وكما كتبت فورونينا: القاعة - هي غرفة ضيوف اعتبرت من لوازم بيوت الأثرياء. ومقابل الليوان توجد نافورة مثمثة الأضلاع بقطر (٤ م). في هذا الفناء خمس بائعات للزهور مع أشجار وشجيرات متعددة. يتكون جزؤه الشمالي من غرفتين. وعبر دهليز ضيق يمكن

الوصول إلى فناء أوسع وأبهى - إنه الحرم لك الموجود في القسم الشرقي من البيت ، وتطل عليه خمس قاعات مختلفة من حيث الشكل والزخرفة .

وسط هذا الفناء توجد نافورة ملبسة بالرخام الأحمر والأسود ، والكثير من بائعات الزهور وأحواض الزهور ، كما توجد في القسم الشرقي من الفناء نافورة مثمثة الأضلاع ذات قياس صغير . في القسم الجنوبي من الفناء يوجد ليوان بديكورات بالأسلوب العثماني . جدران الليوان مكسوّة بصفوف من الحجر الملون مع كتابات عربية .

في القطاع العرضي من الليوان هنالك ثلاث كتيبات (خزن) وثلاثة نوافير جدارية - سلسبيلات . واجهة الفناء الداخلي لبيت نظام ليست منفذة تحت إفريز واحد ، وهذه ميزة من مزايا العمارة في العهد العثماني . بيت نظام ذو أهمية خاصة كون جميع واجهات الفناءات الداخلية مصممة بديكورات وفق الأسلوب العثماني ، أما الأماكن الداخلية فهي بأسلوب الباروك .

أهم قاعة ضيوف في هذا الفناء موجودة في الجانب الشمالي من الفناء مع طزر وعتبة . اشتهرت مثل هذه القاعات المعدة للضيوف بزخرفتها الجدارية ، وبنوعية وكمية العناصر الديكورية: السقوف ، الزخرفة ، والخزن الجدارية المزينة بتصاميم مختلفة والنوافير (الفسقيات) الرائعة من حيث الشكل والتنفيذ .

في الجزء العلوي من هذه القاعة توجد لوحات جدارية بارتفاع (٥ ، ١×١ م) . رسمت على هذه اللوحات أعمدة ومبان في منظر طبيعي وتعبير ثلاثي الأبعاد اكتملت بتكوينات معمارية ذات نقوش بارزة . ست لوحات وضعت على القطاعات العرضية للقاعة ، أما اللوحات الست الأخرى فقد وضعت على جانبها الطويل ، وهي تعبر عن القصور والمناظر الطبيعية . الألوان السائدة هي: الأزرق والأخضر والذهبي والبني . من حيث التقنية عبارة عن صور رسمت على الجدران على أساس كلسي ، ومن الملفت أيضاً السقوف ذات التصاميم الديكورية الممتدة مع الزخرفة في وسطها ، والمرايا وإطار على شكل شبكة بلورية ، كما استخدم هذا الأسلوب في ديكور أعمدة قاعة بيت مجلد .

الجدران والسقف مفصولان بإفريز ديكوري مع تصوير المناظر الطبيعية ،
في ديكور الغرفة استخدمت كمية كبيرة من العناصر للמاعة . كل خزانة جدارية
تمثل تحفة فنية . في تصميم ديكورات غرف الضيوف في بيت نظام والقصور
الدمشقية الأخرى عمل فنانون من الدرجة العالية كانوا قد استدعوا وقدموا من
تركيا أو من أوروبا .

على إحدى جدران هذا البيت بقيت كتابة تشير إلى تاريخ البناء وهو عام
(١٧٨٥ م) ، لكن من غير المعلوم كم عدد هذه الطبقات الثقافية في بناء هذا
المبنى ، فكل مبنى دمشقي قد أعيد تشكيله مرات عديدة واجتاز درباً تاريخياً
طويلاً . تعتبر (قاعة العنب) الواقعة في القسم الجنوبي من الفناء على يسار
الليوان أشهر غرفة في سورية ودمشق ، بعناصر ديكوراتها النادرة: النقش
العنبي البارز المطلي بالذهب مشكلاً إطار القسم العلوي من الخزن الجدارية .
حيث تعتبر فيها عناقيد العنب أساس التصميم الديكوري ، ومن هنا أطلقت
عليها هذه التسمية .

طلبت بالذهب عملياً جميع العناصر المعمارية التزيينية - الأعمدة والتيجان
والنقوش البارزة . المدخل إلى القاعة التي تمثل طراز قاعة مع عتبة وطرز واحد
واقع من جهة القطاع العرضي للغرفة .

الجدران فوق الباب الأمامي الذي يقود إلى عتبة هذه القاعة مزخرفة
باللوحات التي تعبر عن الديكور الداخلي لأحد أشهر جوامع استانبول التي أعيد
بناؤها من كنيسة (صوفيا) من قبل المعماري (انتيميوس إيسيدوري) . فهي ذات
تكوينات معمارية غاية في الجمال تذكر بالخيال المعماري (ليبرا نيزي) .
جدران الطرز أعلى من مستوى النوافذ والأبواب وهي مزينة بلوحات جدارية
تعتبر الأشهر في دمشق ، وذات قياس (١٠٠ × ٦٠ سم) تفصل بينها مسافة
قدرها (٥٠ سم) ، تمثل قصوراً في مناظر طبيعية مع أشجار السرو المفصولة
برسم منظوري يمثل سلسلة من الأعمدة الرائعة . نشاهد عملياً مثل هذه
اللوحات المحورية في الكثير من القصور الدمشقية الأخرى ، لكن في هذه
الأعمال تدهشك البراعة والتفصيلات في الرسم .

الديكور الداخلي لبيت نظام فاتن جداً ، فالى جانب التصوير الجصي وزخرفة الخزن الجدارية هنالك النقوش المنفذة ببراعة على الرخام والحجر مع إطارات المرايا. فناء الحرملك مزين بالأشجار والشجيرات ، وفي القسم الجنوبي الشرقي من هذا الفناء توجد نافورة صغيرة أضافت تشكياً خاصاً لتكوين الفناء .

توجد في هذا الفناء ثلاثة لواوين . أقام القنصل البريطاني (ريتشارد بيرتون) في هذا المبنى في نهاية القرن التاسع عشر ، ونظراً لوجوده في هذا المبنى جرت تعديلات على ديكور هذا البيت حيث دعا فنانين كباراً من إنكلترا ، لهذا تشاهد لوحات بنوعية مدهشة .

ما بين الحرملك والسلملك هناك المعبر الرابط الواقع في القسم الشمالي من المبنى ، ومن هناك يمكن الوصول إلى المطبخ . في هذه الحالة لا يدخل المطبخ ضمن مخطط الفناء الداخلي الثالث لبيت نظام - الحرملك ، الواقع أيضاً في القسم الشمالي من المبنى ، وهو فناء مع ليوان ونافورة ، لكنه صغير في أبعاده وتطل عليه غرف الخدم . زار هذا البيت الكثير من المشاهير مثل (جاك شيراك ، وبريماكوف) . وتصور فيه في الوقت الحاضر الأفلام والمسلسلات وتقام فيه الحفلات الموسيقية .

بيت القوتلي الثاني:

سعيد قوتلي (يقع في حي الكلاسة بالقرب من الجامع الأموي) أعيد بناؤه في عام (١٨٦٧ م) . فقد أصبح ملكاً لسعيد قوتلي في عام (١٨٤٠ م) ، المدخل من الشارع لا يثير الانتباه بأي شيء ، وبعد الدخول من الباب الرئيسي يوجد دهليز وهو عبارة عن كوريدور منعطف ضيق يقود إلى الفناء المركزي . في تصميم هذا البيت توجد ثلاثة فناءات داخلية بلا ليوان . الفناء المركزي الكبير - الحرملك ، المعد للنصف النسائي من البيت ، هذا الفناء يحتوي على إيوان - رواق مقنطر وذلك خلافاً لبيت البارودي . في وسط الفناء توجد نافورة كبيرة مستطيلة الشكل مع خزان ماء ذي طبقتين في الوسط . البيت مبني على

أساسات من العهد الروماني ، في الديكور الداخلي للغرف الإضافية يمكن مشاهدة الأقواس التي يحتمل أن تكون بقايا من مجرى مائي من العهد الروماني . توجد في هذا المبنى حمامات خاصة ، وهذا مالا تجده في كل بيت دمشقي ، بل فقط في بيوت الأثرياء جداً . الحمامات التقليدية المكونة من ثلاثة أماكن تقع على منسوب واحد مع الحرملك . وعلى مقربة مباشرة منه يوجد المطبخ .

لكن الشيء المهم جداً والمميز يكمن في القاعات الرئيسية التي تشكل مثلاً جلياً على التأثير المعماري الأوروبي : سقوف عالية ، ممتدة ومزخرفة بالقماش (وهي في الوقت الحاضر في حالة سيئة) . نوافذ بيضوية واقعة على منسوب الطابق الثاني ، ومنها تسقط أشعة الشمس على جدران مزخرفة بدرجات من اللون الأخضر . القاعة هي من طراز القاعة طزر واحد .

القوس الفاصل مابين العتبة والطزر في هذا المكان مزخرف بنقوش بارزة مع إطارات المرايا . الإفريز الذي يفصل السقف عن الجدران مزين بلوحات محورية تعبر عن مناظر طبيعية معمارية . الجزء العلوي من جدار العتبة مزين بأربع نوافذ بيضوية الشكل ، أما الجزء العلوي من الطزر فهو مزين بخمس نوافذ بيضوية الشكل . في هذا المكان تشغل لوحة ثلاثية الأجزاء (٢×٥ م) القسم العلوي من الجدار ، حيث يمثل الجزء المركزي من اللوحة مدينة إستانبول . هذه التحفة شبيهة باللوحة الجدارية الموجودة في بيت البارودي مع بعض الاختلافات فهي تتوضع شاقولياً ، أما في بيت البارودي فهي في وضعية أفقية . تفصل أشرطة مزخرفة مكونة من صفائر الزهور الحجمية ، الجزأين العلوي والسفلي من الجدار . كل هذه الروعة تجعلك تشعر بشيء خيالي وتمنحنا الحق بأن نعتبر أن هذا المبنى يدخل في عداد مباني عهد الباروك الدمشقي .

فناء بيت القوتلي زاهد وتقليدي من ناحية الديكورات المصممة : الطوابق الأولية مكسوّة بتتالي الحجر الملون ، أما الطوابق العلوية فهي هيكلية ، والواجهات ليست منفذة تحت إفريز واحد . في الغرف الغربية ظهرت نزعة حديثة ، إدخال لوحات محورية إلى حدود رسم بأسلوب العجمي .

في القاعة الواقعة في القسم الغربي من المبنى والتي يمكن الوصول إليها عبر صعود درج صغير توجد مكتبة واسعة تعود لصاحب البيت . جدران المكان مزينة بخزن مزخرفة بأسلوب العجمي ، وسقف هذه الغرفة مغطى بمثل هذه الزخارف .

الجزء الغربي من الفناء مزين بإيوان - رواق مقنطر صغير مكون من ثلاثة أقواس شبيهة بالإيوان المقنطر في بيت مجلد ، حيث يمكن من خلاله الوصول إلى الغرف السكنية .

نشاهد هنا مزيجاً من التقنية الأوروبية للتصوير الزيتي والمنمنمات الموروثة من العهود العربية اللاحقة والزخرفة التقليدية والحداقة الديكورية ودقة الرسم . على مدى آلاف السنين من تاريخ العمارة الدمشقية ، بدءاً من تأسيسها حتى وقتنا الراهن ، يمكننا بدقة تعقب مزايا تطور البيت الدمشقي التقليدي .

ما بين بيت سعيد قوتلي والجامع الأموي وفي الشمال الغربي من مكتب عنبر يوجد بيت جبري الواقع في حي القيمرية . تاريخ بناء هذا البيت يعود إلى النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي ، وهو واحد من أقدم البيوت الدمشقية ، يتكون هذا البيت من فناء تحيط به ثلاثة طوابق ، يجمع عدة وظائف : السلمك والحرمك والخدمة والقبو .

يتألف هذا المنزل من العناصر التالية :

- ١ - المدخل ، وهو عبارة عن دهليز على شكل T .
- ٢ - الفناء الداخلي ، مستطيل الشكل مع نافورة بيضوية في وسطه ، مزين بأحجار الرخام ذات الألوان المتعددة وأربعة أحواض للزهور .
- ٣ - الليوان ، تطل عليه قاعتان ، كل منهما بطرز واحد .
- ٤ - القاعة الرئيسية ، الواقعة في القسم الشمالي من الفناء تعلوها عتبة مع فسقية وثلاثة طزرات (القاعة على شكل حرف T) .
- ٥ - قاعتان بجانب بعضهما البعض مفصولتان بدرج داخلي في القسم

الغربي من الفناء أحد هاتين القاعتين بطزر واحد.

٦ - غرفتان سكنيتان في القسم الشرقي من الفناء مع مطبخ ومتنفعات.

٧ - غرف نوم في الطابق الثاني.

٨ - أروقة الطابق الثالث التي تحيط بالفناء الداخلي من ثلاث جهات (الغربية والشمالية والشرقية).

٩ - الغرفة الطيارة الواقعة فوق الرواق في الجهة الشمالية من المبنى.

من وجهة نظر ديكورية يتميز بيت جبري بأهمية من حيث تصميم ديكور اللوان والقاعة المطلة عليه. إضافة إلى تصميم ديكور القاعة الرئيسية. كذلك الأبواب ذات الشكل الباروكي لغرف الضيوف المطلة على اللوان والنوافذ فوقه وتصميم ديكور غرفة الضيوف المركزية. في الوقت الحاضر يشغل هذا البيت - وللأسف - مطعم (بيت جبري).

بيت مجلد:

الواقع في حي القيمرية بعد حي النوفرة (في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة القديمة). أطلق على هذا الحي سابقاً (الهند الصغيرة) ، لذلك اشتهر كحي بالتجارة المتطورة ورجال الأعمال. في هذا الحي يوجد شارع النوفرة مع مقهى النوفرة التي يجلس فيها ما يسمى الحكواتي ، الذي يلقي حكايا حول تاريخ دمشق ومن سِيرَ عنتره والوزير سالم ، والحكواتي اسم لمن يحفظ الحكايا ويحكيها عن ظهر قلب وأغلب أوقاته بعد المغرب وبعد العشاء.

هذا البيت كان ملكاً لعائلة ناما مصطفى مجلد ، وفيما بعد أصبح ملكاً لعائلة جون بلات في غضون قرنين من الزمن. في الوقت الحاضر هذا البيت مغلق بوجه الزوار بسبب أعمال الترميم ، فصاحبه الحالي مقيم في لبنان.

وهذا المبنى يتكون من طابقين حول فناء داخلي واحد كما في البيت السابق. بعد الفناء المربع والذي يمكن من خلاله الصعود إلى الطوابق العليا

نصل إلى الفناء الداخلي المركزي الذي يجمع وظيفتين وهما السلمك والحرملك.

يشكل فناء بيت مجلد مثلاً على الطراز التركيبي للفناء مع الليوان والرواق المقنطر وهو ذو شكل مستطيل. أرضية الفناء الداخلي والنافورة المركزية مكسوّة بالرخام الملون.

يتميز بيت مجلد بلونه السماوي الذي يشكل جوهره الباروك الدمشقي. فقد ورد في كتاب (زكريا كبريت) أن ليوان بيت مجلد مطلي باللون الأخضر، وهذا غير صحيح (الجزء الثاني من الكتاب ص ١٤٢). يكون الليوان عادة في الجزء الجنوبي من الفناء على علو صغير (على مستوى درجة واحدة ١٨ أو ٢٠ سم). ومنه يمكن الوصول إلى غرفتين. الليوان مغطى بقوس مدبب مزين بزخرفة نباتية. في القطاع العرضي من منطقة الاستجمام هذه توجد ثلاثة أقواس جدارية - مصبات، يوجد في القوس المركزي منها سلسبيل وهو عبارة عن نافورة جدارية، مزخرف بالرخام والصدف والطلاء الذهبي. جدران الليوان مزينة باللوحات بأسلوب الباروك، وهو لا يتوافق تماماً مع الدين الإسلامي الذي يمنع أي تصوير باستثناء الزخرفة النباتية والهندسية.

وهنا نرى للمرة الأولى ليواناً مزخرفاً بتصوير ثلاثي الأبعاد لعناصر معمارية: الأعمدة والتيجان والدعائم (الكبوليات) تمازجاً مع تصوير القصور وعلى الأغلب المباني الدينية العامة - الجوامع والمآذن. في هذه اللوحات الجدارية الفريسكية يمكن أن نرى بوضوح تأثير الثقافة المعمارية الأوروبية الغربية. اندماج الشرق والغرب هو الهدف الرئيسي لمثل هذا التعاون، وهذا ما لا ينطبق على الغرف المطلة عليه، فأحدى هذه الغرف ذات ديكور غني مع قوس مزخرف فوق مدخل الغرفة، وجدار مزين ومزخرف بأسلوب العجمي، كما في أبواب الخزن الجدارية، وفي تصميم ديكورات هذه القاعات توجد عناصر من العهد العثماني.

في الجزء الشمالي من الفناء توجد القاعة المركزية - غرفة الضيوف - التي زين مدخلها بإطار حجري على أعمدة رخامية تسمى (السقيفة الحجرية)،

المنفذة بأسلوب الطرق الستوك فوق باب مكون من مصراعين مزخرف بأسلوب الأرابيسك مع حواشٍ بلورية. نافذتان مزدوجتان صغيرتان تتوضعان فوق الباب وعلى جانبي الباب نافذتان تنيران العتبة. طراز قاعة مكونة من توزورين يتوضعان بشكل متناظر بالنسبة للعتبة التي تتوسطها نافورة دائرية. في الجهة الأمامية من العتبة توجد ثلاث نوافير جدارية مزينة بالنقوش.

جدران هذين الطزيرين الواقعين على يمين وعلى يسار العتبة مزينان بغنى وفيهما خزن جدارية مبيتة مفتوحة ومغلقة: اليوك والدولاب والخرستانات المزخرفة بمناظر طبيعية تمثل الجسور المحاطة بالأشجار. هذه الخزن مفصولة بأصداف نصف دائرية مزخرفة بشبكة ذهبية مع تيجان تقليدية منقوشة رائعة يتوجها إفريز مع حواشي مرايا.

ديكور السقف على شكل نجمة مع مرايا مدمجة فيها الأقواس ، التي تفصل الطزرات عن العتبة ، مغطاة بنقوش بارزة ذات طابع نباتي مع حواشي مرايا. المرايا كانت في كل مكان ، مشكلة شعوراً خيالياً وأسطورياً يشكل سمة من أسلوب الباروك.

وخلف الجدار الأمامي لهذه القاعة توجد غرفة سرية يمكن الوصول إليها بشكل غير ملحوظ من أجزاء أخرى من المبنى.

الجدران عند مستوى أعلى من نوافذ وخزن هذه القاعة مزينة باثنتي عشرة لوحة؛ حيث كل ثلاث لوحات على جدار ، وعلى الجهة الطويلة من الغرفة توجد أربع لوحات وواحدة كبيرة في الوسط تمثل إستانبول. على الجانب الطويل من الغرفة المطلة على الفناء الداخلي لوجود عملياً لأية لوحة ، نظراً إلى أنه توجد على هذا الجانب نوافذ طابقيين عاليين تنير المكان ، وهي مزينة بالمصاريح والمشربيات. لوحات هذه القاعة مفصولة بأعمدة نصف دائرية محدبة وتمثل مناظر طبيعية معمارية متكررة (قصور تحيط بها أشجار السرو وأشجار الأوكالبتوس). اللوحات من الأعلى والأسفل محددة بإفريز ذي نقش بارز منفذ بأسلوب الباروك مع حواشٍ مرايا بيضوية صغيرة. اللوحات مزخرفة

بتقنية التصوير الجصي على الجدران. الخزن الجدارية مزخرفة بطريقة مختلفة عن الجدران.

الألوان الغالبة هي: الأزرق ، الأخضر ، والذهبي كما في بيت نظام.

في القسم الغربي من الفناء توجد أربعة أبواب مزخرفة بأقواس مع نقش نباتي بارز وتقود إلى غرف الخدمة والدرج الداخلي. في هذا البيت لابد من الإشارة إلى (غرفة العروس الوردية) الواقعة في القسم الغربي من الفناء في الطابق الثاني ، والمزخرفة بلوحات جدارية بطيف لون وردي تعبر عن مناظر طبيعية. كامل الطريق ، وبدقة أكثر: جدران الدرج الداخلي الذي يقود إلى الطابق الثاني مزخرفة أيضاً بلوحات جدارية مع مناظر طبيعية.

الجزء الشرقي من الفناء مكون من رواق مقنطر رخامي (مكون من أربعة أعمدة تستند إليها أربعة أقواس) وقاعة استقبال ذات نورين تقع خلفها.

الرواق المقنطر مزخرف بسقوف ممتدة وأعمدة متناسقة ذات تيجان كورنثية وأقواس شائكة. ما بين النوافذ المزينة بالمشربيات ذات الزخرفة النباتية والمنيرة للقاعة رسمت أعمدة وتيجان ، وهذا أصبح مميزاً لفترة الباروك. قاعة الاستقبال في بيت مجلد ذات ديكور شبيه بهذا الأسلوب ومزينة بلوحات محورية تتوجهها سقوف مزخرفة ممتدة ، والجدران مزينة بمرايا ونوافذ كبيرة ذات مصاريع بزخرفة باروكية.

توجد على مستوى الطابق الأول (١٧) نافذة وخمس خزن جدارية ، أما على مستوى الطابق الثاني فتوجد (٢٤) نافذة تزين الجدران.

على كامل محيط الفناء عند مستوى أعلى من النوافذ وجدت لوحات جدارية. وعلى مقربة مباشرة من القاعة الرئيسية هنالك مطبخ وغرف إضافية تشكل جزءاً من هذا القصر مخصصاً للخدم. في الطابق الأرضي توجد حمامات. وفي الطابق الثاني فوق الرواق المقنطر توجد غرفة مكسوة بطبقة رقيقة صقيلة تتجه غرباً ، يمكن الوصول إليها عبر الدرج الداخلي والخارجي مباشرة من الفناء الداخلي. فهذه الغرفة بهوٌ منارٌ من خلال النوافذ المطلة على

الفناء الداخلي من جهة ، ومن جهة أخرى فإن النوافذ المقابلة تنير القاعة الرئيسية . إنه بناء مدهش لم يسلط عليه الضوء في المراجع التاريخية والفنية والمعمارية ، كما هو الحال بالنسبة للمباني الأخرى واللاحقة .

لم يسمح سابقاً ولاحتى الآن لأي شخص بالدخول إلى هذا المبنى ، وتجري فيه في الوقت الحاضر أعمال ترميم .

من الجهة الغربية لبيت مجلد وعلى مقربة مباشرة منه يقع بيت طحيني . هذا المبنى غير مشهور تماماً وغير مدروس ، حيث توجد فيه لوحة جدارية كبيرة المقاس في القاعة الرئيسية تمثل بانوراما مدينة دمشق ، وهذا شيء مهم جداً (قياسها ٢×٤ م) . ظهر على هذه اللوحة الجامع الأموي والتكية السليمانية محاطة ببساتين الزيتون . هذه اللوحة رسمها فنانون اعتماداً على خارطة دمشق التي تعود للقرن الثامن عشر وقد نفذت بمهنية كافية . من المهم أن دمشق أصبحت موضوع اللوحة ، في الوقت الذي استخدمت في البيوت الأخرى مواضيع غربية أو مجموع مواضيع من البلدان المجاورة كالمملكة العربية السعودية وتركيا . فيما بعد تم تزيين غرف هذا البيت وخاصة غرف الطابق الثاني بلوحات دمشقية تقليدية تمثل شوارع دمشق القديمة ، لكن هذه اللوحات قد رسمت من قبل فنان غير محترف مما أخل بالتوازن الديكوري في البيت ، ما بين حي باب توما وحارة اليهود توجد ثلاثة بيوت رائعة من حيث تصميم الديكور وهي : بيت نبادو ، وبيت شامايا ، وبيت ليزبونا ، حيث سنتطرق الآن للحديث عنها .

في بيتين منها يقيم في الوقت الحاضر أصحابها ، أما بيت شامايا فقد تم ترميمه وحُوّل إلى مطعم .

يقع حي الأمين ما بين شارع مدحت باشا وشارع الأمين (يلي شارع مكتب عنبر من جهة اليمين) . من البديهي أن هذا لايعني بأنه لا يقطن في الحي سوى اليهود ، أو أن اليهود ليس بمقدورهم السكن في أماكن أخرى من دمشق . التسمية تحمل في الوقت الحاضر إلى حد معين طابعاً تاريخياً ولها علاقة بتقسيم المدينة حسب المعتقد الديني :

فاليهود سكنوا فعلياً في الجزأين الشرقي والجنوبي الشرقي من المدينة ،
والمسيحيون في الجزء الشرقي والشمالي الشرقي ، أما المسلمون فسكنوا في
الجزء الشمالي والشمالي الغربي ، مثل هذا التقسيم للمدينة قائم حتى الآن
حسب الانتماء الديني .

أول مباني حارة اليهود الذي أردنا التوقف عنده هو بيت نيا دو ، الذي يمثل
بيتاً مع فناء واحد ، يشتمل على ثلاث وظائف شاقولياً: السملك والحرملك
والخدملك . فناء داخلي كبير مع ليوان ونافورة كبيرة في وسطه . جدران الطابق
الأول مكسوّة بصفوف من الحجر الملون بأسلوب الأبلاك .

أشكال النوافذ والفسيفساء فوقها ، وأشكال الأبواب وتصميم ديكورها ،
وكوَى مصابيح الإنارة (المشكاة) ذات المقرنصات - كل ذلك يشكل شواهد
على العمارة الدمشقية التي تعود للعهد العثماني . فوق نوافذ الطابق الأول يمتد
شريط زخرفي يشكل فاصلاً لأسلوبين مع حواشٍ ديكورية لمناظر طبيعية
وزهرية ، وفيما بينها طنوف برسم منظوري . فوق هذا الشريط التزييني تبدأ
النوافذ الكبيرة للطابق الثاني المفصولة فيما بينها بأعمدة جدارية صقيلة مع
تيجان وحواشٍ مزخرفة ، يتوضع فوقها إفريز موجي . واجهات هذا المبنى كافة
مبنية بارتفاع واحد ومتحدة بإفريز موحد . يشكل (بطاقة زيارة) لبيت نيا دو .
فوق الإفريز ركبت شبكة تشجيرية القوام تنتهي بتركيب جدران الفناء الداخلي .

ليوان هذا البناء مزخرف بمرايا كبيرة موضوعة في إطارات رخامية للنوافذ
يوجد فوقها شريط زخرفي ملبس بالرخام . في وقت مبكر من العهد العثماني
كانت جدران الليوان ملساء ومجصصة ، حيث فقط في نهاية القرن التاسع عشر
جرت زخرفتها بالمرايا .

تزين الجزء العلوي من الجدار لوحات جدارية تعبر عن قصور المدن
الأوروبية ، في مناظر طبيعية حول قوس الليوان وبشكل متناظر بالنسبة
لمحوره ، وعلى حلاها المتدلية وضعت إطارات مزخرفة مع رسم على شكل
أوراق الأقتنا المتجعدة . وعلى مستوى التيجان الكورنثية التي يستند إليها قوس

الليوان ، أما المَعْلَم المعماري الوحيد الذي كُتِبَ عنه الكثير فهو مكتب عنبر ؛
لكونه خضع للتأميم .

في كتاب مروان مسلماني يمكن أن نشاهد صوراً ضوئية التقطت في بيت
نيادو ، وبالمناسبة يقطن فيه حتى الآن أصحاب هذا البيت ، وبالنسبة للنجمة
في هذه الصور مغطاة ببلطخة سوداء ؛ كي لا يحزر أحد لمن يعود هذا المبنى .
أرضية الليوان مزخرفة بمهارة بالرخام كما هو الحال في أرضية ليوان الحرملك
في بيت البارودي ، وبموجب دلائل كثيرة يمكن التأكيد على أن تنفيذ ديكور
هذا البيت قد تم في الوقت نفسه الذي نفذ فيه ديكور بيت البارودي والقوتلي
ولزبونا وأسطواني ، وغيرها من البيوت التي تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر .

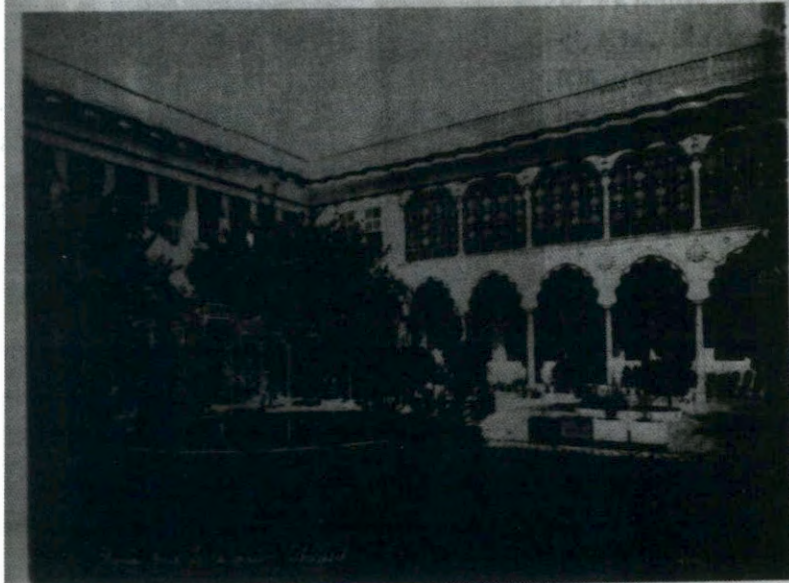
من ليوان هذا القصر يمكن الوصول إلى قاعتين واقعتين بشكل متناظر
بالنسبة إليه ، حيث تمثل كل منهما طراز قاعة بطزر واحد . أما بالنسبة للقاعة
الواقعة في الجزء الشرقي من القصر وهي القاعة الرئيسية فمكونة من العتبة
وطزرين متناظرين . التناظر موجود في كل شيء . يمكن تعقب التأثيرات
الأوروبية في تنفيذ ديكور القاعة في الواجهة الغربية من الفناء ، التي تمثل قاعة
مع طزر واحد ، العنصر الديكوري البارز لقاعة الضيوف هذه يتمثل في الخزن
الجدارية المفتوحة ؛ وهي مزينة بالطبيعة الصامته ، والمغلقة ؛ تزينها الأبواب
بأسلوب الباروك والتدرجات اللونية . غرف النوم وغرف النساء موجودة في
الطابق الثاني ، حتى هناك يمكن تعقب التيارات الأوروبية : سقف ممتد ،
صاحب هذا المبنى حريص على ما يملكه حيث يسعى بكل قواه لترميم ما يحتاج
في هذا المكان . البناء قديم ونرى فيه مزيج أسلوبيين من العمارة الدمشقية :
الأسلوب العثماني وأسلوب الباروك ، أو كما يقولون في دمشق : (الروكوكو
العثماني) . ويقدر ما أن هذين الأسلوبين مختلفان لكنهما يمتزجان ويكملان
بعضهما البعض .

المبنى الثاني الواقع في هذا الحي هو بيت جبران شامية الواقع في باب توما
وتلة القبة ، حيث تم بناؤه قبل مئتي عام من قبل أنطوان أفندي شامي ، وهو من
عائلة دمشقية عريقة . أعيد تشكيله التزييني في عام (١٨٦٦ م) بأسلوب

الباروك . هذا المبنى مشهور أيضاً بقاعاته المعدة للاستقبال ، حيث في إحداها سقف رائع مدهش بزخرفته وجدرانه ذات الزخرفة الجصية .



دار (جبران شامية) بين باب توما
وطالع القبة بعدسة (بونليس)
في النصف الثاني من القرن
التاسع عشر



بيت آخر يحمل كنية مشابهة هو بيت شامايا الواقع في حي شارع الأمين ،
تاريخ البناء (١٨٦٥/١٨٧٢). المبنى ذو فناء داخلي كبير ، يستوعب ثلاث
وظائف: السلمك والحرملك والخدملك ، مع رواق مقنطر في الطابقين الأول
والثاني وليوان ونافورة في المنتصف وأحواض زهور. يشغل هذا المبنى الآن
مطعم.

لا بد من القول: إن هذا البيت يشكل مثلاً على الترميم بقواعد سليمة وتم
إعداده وتكييفه للاستخدام في الظروف المعاصرة ، وهو بحالة رائعة يمكن أن
يخدم لفترة طويلة ويشكل دعاية لتاريخ دمشق.

هذا مبنى مشهور في دمشق من خلال تصاميم الديكور المختلفة لقاعاته.
فإحدى هذه القاعات المسماة (قاعة المرايا الذهبية) الواقعة في القسم الجنوبي
من الفناء ، التي تمثل قاعة مع عتبة وطزر واحد. في وسط العتبة توجد نافورة
رخامية - فسقية على شكل زهرة بأشكال باروكية مع ثلاثة أحواض لتجميع
المياه ، وثلاثة أسود رخامية تحمل الوردة - وهذه واحدة من الفسقيات النادرة
في دمشق. أرضية العتبة مكسوّة ببلاطات فسيفسائية رخامية ، تحمل ملامح
تذكر بشكل نافورة. جدران الطابق الأول للعتبة والطزر مكونة من نوافذ ومرايا
في إطارات رخامية ، وفوقها جزء من الجدار مغطى بنقوش بارزة رخامية تزيينية
مع حزام مطلي بالذهب ، وفوق هذا الحزام سلسلة من النوافذ العالية وحواشي
مرايا تقلد شبكات النوافذ. كل هذه الروعة متوجة بإفريز بمناظر طبيعية ذات
مواضيع فنية وسقف مزركش مع حواش مرايا.

المبنى الأخير في حي الأمين الواقع بالقرب من الكنيس الكبير في دمشق
والذي أردنا التوقف عنده هو بيت ليزبونا (الذي تم بناؤه خلال الفترة من عام
١٨٦٥ حتى عام ١٨٧٢). ويتجاوز الباب الرئيسي نصل إلى موزع كبير تطل
عليه أماكن الخدمة ، ومنه نصل إلى الفناء الداخلي المربع مع اللوان. وهو
فسيح جداً مع نافورة كبيرة قطرها أربعة أمتار ، وتطل على هذا الفناء الداخلي
جميع الغرف السكنية وغرف الضيوف.

الليوان واقع في القسم الجنوبي من الفناء تطل عليه عادة قاعتان مع طزرات وفسقية مشبعة بالعناصر الباروكية. عناصر الديكور ممثلة في منطقة الاستحمام هذه منفذة من مواد مختلفة: الحجر والرخام والفسيفساء والحفر ، وتغطي فتحات النوافذ العالية. سقف من الليوان مزين بالزخارف ، وفي الجزء العلوي من السقف توجد نوافذ لإنارة القاعة؛ حيث تقع القاعة الرئيسية في القسم الشرقي من الليوان.

الباب الأمامي ذو المصراعين مزين بالفسيفساء الصدفية صمم ديكوره بقوسين ، يستندان إلى ثلاثة أعمدة دمشقية من الرخام. يزيد طول القاعة عن عشرة أمتار وفيها قوس طوله خمسة أمتار ، تشغل النافورة نصف العتبة. اتجاه غرف الضيوف: شمالي جنوبي ، في قسمها العلوي نوافذ عالية ، الجدران مزينة بالتصوير الجصي و النقوش على الحجر الذي يعود لعهود مختلفة ، السقوف مزخرفة بلون سماوي مع زخارف نباتية أنيقة. في الجهة المقابلة من الليوان توجد غرفة مربعة الشكل مزينة بسقف خشبي وتصوير جصي جداري ، وفي الجدارين الآخرين توجد النوافذ ، كما توجد الخزن الجدارية - الكتبية على الجدران الأخرى. في القسم الشمالي من البيت توجد غرفتان يتوسطهما أقواس كبيرة حاملة مزينة بمثل هذه الزخارف. في الجزء الغربي من البيت توجد ثلاث غرف يوجد فيما بينها درج داخلي ذو ميلان كبير يقود إلى الطابق الثاني.

في القسم الشرقي توجد غرف سكنية ومطبخ ومنتفعات. الغرف السكنية مزينة بالخزن الجدارية المزخرفة. في هذا القسم من البيت يوجد درج بشكل متناظر مع القسم الغربي ، وهو أيضاً ذو ميلان شديد ويقود إلى الطابق الثاني. من المهم والممتع تلك العناصر الديكورية من هذا البيت: النقش على الجص والرخام ، النقوش البارزة على الجدران والخزن.

بيت خالد العظم الواقع خارج سور المدينة في حي سوق ساروجة ، الذي تم بناؤه في عام (١٨٢٤ م) تبلغ مساحته ٣١٣٦ م^٢ يتكون هذا البيت من ثلاثة أجزاء:

١ - الجزء الخارجي من البيت : يطل على الشارع الرئيسي ، حيث يوجد المدخل من الباب الأمامي .

٢ - الجزء الأوسط من البيت : وهو الأقدم وذو علاقة بالدهليز . فهنا توجد قاعة قديمة من القرن الثامن عشر مع توزور واحد . السقف مغطى بزخارف مطلية بالذهب ، وهذا كان نادراً في دمشق في ذلك العهد . في عتبة هذه الغرفة المعدة للضيوف يوجد سلسييلان رخاميان (نافورتان جداريتان) ، مزينتان بقوس نصف دائري مع مقرنصات وفسيفساء رخامية . التوزور مزين بألواح خشبية مزخرفة بالألوان مع طلاء ذهبي وحواش ذات مواضيع تعبر عن مبانٍ أوروبية مختلفة ، ذات إطارات مزخرفة بأسلوب العجمي . في هذا الجزء من الفناء توجد غرف سكنية وغرف ملحقة إضافة إلى وجود درج يقود إلى الطابق الثاني .

٣ - الجزء الداخلي من البيت مكون من :

- الفناء : الداخلي المتجه من الشرق نحو الغرب مع نافورة في وسطه .

- ليوان قديم - وهو منطقة الاستجمام من الفناء .

- القاعة الرئيسية - وهو المكان المركزي المعد للضيوف .

- المطبخ والأماكن الملحقة به .

- الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني .

الليوان كالعادة يقع في الجزء الجنوبي من الفناء مع أربع قاعات قديمة ، اثنتان منها تطل عليه ، واثنتان تطلان على الفناء الداخلي . القوس مزين بالحجر الملون ؛ الأبلاك . السقف مزين بزخارف مطلية بالذهب . الجدار الشرقي من الليوان ينتهي بنافذتين مزينتين بأنصاف دوائر مع زخارف لنقوش بارزة . في هذا الليوان يوجد باب معبري يقود إلى المخرج . القاعة الجنوبية الغربية هي عبارة عن غرفة صغيرة مع تربيعات خزفية . القاعة الجنوبية الشرقية ذات طزر واحد ، ذات ديكورات بأسلوب حديث . السقف الخشبي مزخرف مع حواشي مرايا مطلية بالذهب ، هذا العنصر الديكوري يدلنا على أن الغرفة التي يعود بناؤها

إلى القرن الثامن عشر الميلادي قد تبدلت ونفذ ديكورها في فترة لاحقة - في نهاية القرن التاسع عشر - فترة الباروك الدمشقي. العتبة والفسقية تتميزان بتكوين رخامي دقيق جداً.

القاعة الرئيسية (الشمالية) - هي أكبر غرفة مع ثلاثة طزرات ، العتبة والغرف الإضافية فيها أربعة سقوف أساسية مع نوافذ تحتها ، الجدران مزخرفة بأسلوب الأبلق وبأحزمة ذات زخارف نباتية. القاعة الشمالية الغربية أخاذاً أيضاً بتكوينها الرخامي للفسقية والعتبة. في القطاع العرضي من الطزر توجد لوحة فسيفسائية مجمعة من الحجر وتعبر عن مبنيين على ضفاف نهر بردى مع ذكر تاريخ إنجازها وهو عام (١٨٦٨ م) ، ومن خلال هذا التاريخ يمكننا تحديد زمن إعادة ديكور هذه الغرفة المعدة للضيوف.

في هذه الغرفة هنالك سقفان ، أحدهما فوق الطزر ويبدو أكثر حداثة ، أما السقف الآخر الواقع فوق العتبة فإنه أكثر قدماً ، وهو أحد أشهر الأسقف الدمشقية من حيث المادة والتكوين والتنفيذ (الأصبغة والرسم). جدران العتبة من صفوف الحجر الملون ، وفي وسطها توجد فسقية وعلى أحد الجدران يوجد سلسيل. في الجزء الشمالي من الفناء توجد غرفة ذات جدران رائعة أيضاً على مستوى دمشق.

هذا البيت القديم اتخذ شكله عبر مئة عام منذ القرن الثامن عشر حتى القرن التاسع عشر ، ويمكن في مراحلها اللاحقة تعقب تأثير العمارة بأسلوب الباروك.

في هذا الحي أيضاً يوجد بيت الحبوباتي الذي تمّ بناؤه في عام (١٨٨٩ م) ، وفيه تبدو ملامح الأسلوب الأوروبي: تناظر خريطة المبنى والواجهات المطلة على الشارع بالشرفات البارزة والنوافذ الكبيرة والقوشرات (المثلثات في أعلى واجهة المبنى).

بيت نعسان الذي يتميز بوجود قاعة مع نافورة بيضوية وعناصر باروكية في تصميم ديكور الجدران: المرايا ، والنقوش ، القشور الخشبية التزيينية ، مواد البناء هي من حجر البازلت ، حيث بلغت سماكة الجدران (٥٠ - ٧٠ سم)

الجدران الداخلية مغطاة بالواح خشبية مزخرفة. يمكن أن نشاهد مثل هذه العناصر في بيوت: اليوسفي ، الأسطواني ، والكزبري ، والكسار ، ونعمان ، وغيرها.

البيت التالي الذي أردنا التوقف عنده هو بيت مردم بيك الذي جدد في عام (١٨٧١ م) ، الشيء المهم في هذا البيت لا ينحصر في الفناء الداخلي مع الليوان فحسب ، بل في القاعة الشمالية المتجهة جنوباً. تبلغ أبعاد العتبة (المدخل إلى هذه القاعة): (٤٦ ، ٤٤×٢٤ ، ٥٥م) مع فسقية صغيرة. ويمكن من خلال العتبة الصعود إلى ثلاثة أماكن للراحة - طزر تبلغ أبعاده (٢٩ ، ٥٥×٩٤ ، ٤٤ م). إن للقاعة شكل حرف T . تنار العتبة من خلال نوافذ على مستوى الطابق الثاني ، أما الواجهة الشمالية فإنها مزخرفة بتتالي الحجر الأسود والأبيض بأسلوب الأبلاك ، وعلى واجهة العتبة تتوضع نافورتان جداريتان متناظرتان (سلسيلان) مزخرفتان بقبة ذات مقرنصات . ونجد مثل هذه الزخرفة فوق باب القاعة .

الأقواس التي تفصل العتبة عن الطزرات مزخرفة أيضاً بتتالي الحجر الملون ، أما الجدران فهي مزينة بخزن جدارية من جانب واحد ، وبنوافذ ذات شبكيات وحواشٍ من الجانب الآخر. التوزور الرئيسي الذي تبلغ أبعاده (٨٠ ، ٥٥×٥٠ ، ٥٥ م) مزخرف بكتابات بالخط العربي (وهنا يمكن قراءة ما كتب). المدفأة في قاعة الضيوف ذات ديكورات غنية .

في بيت مردم بيك نجد عناصر الباروك في الليوان فقط : في القطاع العرضي من الليوان توجد المصبات - وهي عبارة عن أقواس تزيينية مزخرفة بالنقوش البارزة .

المباني الأخيرة التي أردنا التوقف عندها هي بيتا عقاد الأول والثاني . بيت عقاد الأول الواقع على شارع موازٍ لشارع مدحت باشا ، وهو حالياً المركز الثقافي الدنمركي ، فهنا يقطن القنصل الدنمركي . كان هذا البيت ملكاً لمصطفى عقاد ويقع في حي الشاغور ، سوق الحبالين ، وقد أطلقوا سابقاً على هذا المكان (سوق الخياطين).

الواجهة الخارجية الأساسية - الشمالية - ليست جديدة بالملاحظة ، فهي مغطاة بطلاء كلسي ، وهنا يوجد باب المدخل . باب الدخول الرئيسي مطل على دهليز عميق يقود إلى فسحة التوزيع . ومنها يمكن الوصول مباشرة إلى الفناء الداخلي أو إلى الطابق الثاني عبر الصعود على سلم خشبي ، وهناك توجد (غرفة الضيوف الزرقاء السماوية) ، حيث نجد أن بابها قد طلي باللون الأزرق السماوي مع زخارف نباتية .

في هذا البيت كسائر المباني السابقة لا يتبدل أسلوب تصميم ديكور البيت بالإجمال ، بل يتبدل فقط ديكور بعض الغرف حسب استخدامها في نهاية القرن التاسع عشر (التخطيط والتوزيع وعناصر الديكور) . مثال على ذلك نجده في استبدال الديكور المستعمل بالأسلوب العثماني بأسلوب الباروك الدمشقي ، أو ما يسمى في دمشق (الروكوكو العثماني) في (الغرفة السماوية) المعدة للضيوف في بيت عقاد المشهور بفضلها والواقعة في الطابق الثاني ، ولاتحمل هذه الغرفة الطابع الاعتيادي ، حيث يمكن الصعود إلى هذه الغرفة مباشرة من فسحة التوزيع التي تلي الدهليز ، وليس من الفناء الداخلي . صمم ديكور هذه الغرفة بأسلوب الباروك : جدران ملساء مطلية بصباغ سماوي اللون ، وخزن جدارية مبنية مزخرفة بمناظر طبيعية وأقواس ذات نقش بارز مطلية بالذهب . الكورنيش الواصل ما بين الجدران والسقف مزخرف بمناظر طبيعية متكررة . تسود الألوان التالية في الطيف اللوني : الأزرق ، الأخضر ، الأبيض ، والذهبي .





البيت الدمشقي

(ليس في الشرق - بل في العالم كله - بلدة تضاهي مدينة دمشق في حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها وحسن صور ساكنيها).

هذا ما ذكره ابن بطوطة في كتابه بعد أن وطئت قدماه دمشق .

هنا الياسمين الرقيق المصفى	نجي العذارى وسرُّ صباها
وهذه الدوالي عناقيد قطر	تُعرّش جذلي على مشتهاها
تباركت يا ربُّ لم يبق حسنٌ	ولا ثوبٌ حسناء إلا كساها
عروسُ المدائن بنتُ الخلود	ومعجزةُ الشرق لما تباها
دمشقُ ، دمشقُ أحبُّ دمشقَ	وأهلَ دمشق وسحر بهاها
أحبّوا دمشق ولا تتركوها	لمعول جهلٍ يُدكُّ رؤاها
دمشق هويةٌ كلّ غيورٍ	رعى الله باللفظ من قد رعاها

الشاعر محمد مروان مراد

لقد كانت دمشق ولم تزل أم المدائن ، ومصنعاً لحضارات الأمم الغابرة واللاحقة على السواء ، قامت بتوليد حضارات تلو حضارات ، لا تزال شامخة ، وستظل كذلك مرفوعة الجبين بأبنائها وشعبها تعطي وتعطي دون حساب .

ومما يلفت النظر في أحياء دمشق القديمة تعرّج الأزقة وضيقها ، وذلك تسهيلاً لانسياب المياه من بيت إلى بيت وتوجيه البيوت نحو القبلة ؛ ليسمح للشمس أن تدخل إلى البيوت وصدر الغرف شتاءً ، كما أن البيوتات الدمشقية تتعانق من الأعلى ويتصل البيت بالآخر بالشفرة التي تلاصق الشرفة المقابلة ،

وماتحتتهما من طريق يكون مغطى ويسمى بالسيباط ، كما في حي العمارة - سبع طوالع - أو بعض أحياء الخضيرية مثلاً ، وعلى ذلك فإن بناء البيوتات الدمشقية يتباين حجماً واتساعاً وغنىً وفقراً. فمنها ما كان يبنى بالحجارة الكلسية أو البازلتية السوداء ، ومنها ما بني من الكلس والتراب الذي يعقد مع الحجارة ، ومنها ما بني باللبن والطين وهو المسمى بالذك .

وكانت البيوت الكبيرة تحتوي على عدد من الإيوانات والمربعات والمطابخ والحمامات ، وتطل نوافذها على الساحة الداخلية (أرض الديار). وتوافرت المياه فيها من طوالع خاصة بها بحق معلوم ، جُلبت إليها من فروع بردى والقنوات ويزيد وبانياس ، وهذه الأحياء كانت شبه مغلقة على أهلها فالناس يعرفون بعضهم بعضاً ، وكانت بعض الحارات الصغيرة لا منفذ منها وتسمى — (الدخلات) لها أبواب ضخمة من الخارج تغلق الدخلة بكاملها. وتعبّر عن مجموعة من الزوارب والأقواس الحجرية ، والجدران العالية والشبابيك المزخرفة والخصائص المعلقة ، والأبواب الخشبية التي لم يزلها التقادم إلا شموخاً ومهابة ، حيث البيوت العتيقة متكئة على بعضها البعض ، وكأنها تروي علامات أهل دمشق الأصلية والجميلة والحميمة.

وعند الدخول إلى البيت الدمشقي لابد من الانحناء للدخول من باب البيت الصغير والذي يتكون عادة من مصراع واحد ، حيث أبدع الفنان الدمشقي في التفنن بزخرفته سواء كانت هذه الزخرفة منفذة بالخشب أو الحديد ، وتُعد فتحة الباب في أعلاه بقوس مستقيمة وهي الأكثر شيوعاً ، ثم لابد من المسير عبر دهليز ضيق وطويل يقودك إلى الجنة الغناء القابعة بين أسوار البيت ، وعند الدخول إلى الباحة الواسعة (الفناء - أرض الديار) فالحياة في هذه الفسحة السماوية الرحبة - والتي تُشعر المرء بهدوء الأعصاب وتهيئ له النظر والتمعن في إبداع الخالق عز وجل - هي نعمة كبيرة ، إذ تقع عينك على أحواض (الشمشمر) التي يحيط بها زناز من الخضرة وقناديل القرطاسية الملونة المدلاة على أحواض الفل والورد الجوري والشب الظريف ، وعرائش الياسمين الأصفر والبنفسج والياسمين العراتلي ، وأشجار الليمون ثم النارج وبعبدها

الكباد والبرتقال ، والبوملي واليوسف أفندي تهب جميعها من سباتها تعلن عن حياة جديدة ، وهنا لا أستطيع أن أصف جمال هذه الروائح الفواحة والعطرة ، فرائحتها لاتفوح في المنزل وتبهج أهل البيت فقط ، بل تعبق في الحي كله .

ولا تكتمل هذه الصورة الأخاذة إلا بالتمتع بالياسمين الأزرق الذي يحاكي السماء بلونه الهادئ ، وينعش القلوب ويبهج النفوس المكتئبة ، وعندما يزهر النارنج والكباد والليمون والبوملي والبرتقال ، فحدّث ولا حرج عن العطر الذي يزكم الأنفاس بروعته ، الذي لا يضاهيه أي عطر يباع في الأسواق المحلية أو الخارجية . أما الرمان والسفرجل فلهما خاصية أخرى من المتعة الكبيرة بالنظر إلى زهرهما القرمزي البديع ، وكأن الله عز وجل جعل الجمال والعظمة فيهما ، ولا يمكن لأي امرئ ينظر لهذه البدع الربانية إلا أن يشكر صانعها بامتنان . أما عناقيد العنب والأكيدنيا التي تتدلى من أغصانها ككُثرات تلمع من ندى الصباح الذي قبّل خدودها . وماذا أخبركم عن جمال الياسمين الخالص البياض ، والورد الجوري الأحمر الفتان التي اشتهرت به دمشق ، والفل والزنبق البلدي التي تنشر مظلاتها على الباحة وتتستر من ضوء الشمس خيوطاً رقيقة تلثم العيون والوجنات ، ولا يجب أن أنسى أن أشير إلى ظاهرتين هامتين تتميز بهما البيوت الدمشقية الأصيلة ، وتشاهدها في فناء البيت (أرض الديار) الأصيلة :

الأولى : ظاهرة القطط الشامية المدللة التي كانت تزيد من نبض الحياة في هذه البيوت .

أما الظاهرة الثانية : فهي ظاهرة الإمام وهو ما يسميه الدماشقة بالعامية (الستيتيات) اللواتي كن يتفنن في بناء أعشاشهن بإبداع ، مستخدمات العيدان والأغصان الصغيرة ، بل وحتى الأسلاك المعدنية أحياناً ، وهي تهوى السكن في باحات البيت الدمشقي . حيث توجد (البحرة الكبيرة) الفسقية في الوسط تكسو جدرانها الخارجية ألواح من الرخام مختلفة الألوان مترعة إلى الحواف بمائها الصافي ، تستقبل بصفحتها الرائعة رذاذ النافورة الأنيقة الراقصة في الهواء على وقع زقزقة العصافير المختبئة في الأشجار ، وفي فناء البيت يتربع

الإيوان (الليوان) ، وهو مكان الشرف والصالون الطبيعي مع مقصوراته وزخارفه المتعددة الألوان ، تحت إحدى القناطر بين غرفتين مواجهتين ويكون عادة على مستوى أعلى من الفناء :

أنشودة الياسمين

شعر : زياد مصطفى الجزائري

إليك حبيبتى دمشق
أذكرك كلما شمنت الياسمين
وكلما فاح بقلبي عطر الرياحين
وفي عبق الوردة الجورية الحمراء
في كل ورقة منها ترسمين
يا أنشودة حب تغنيها العصفير
على أوتار قلبي موسيقى تلحنين
ماذا أكتب عنك وقلبي ملؤه حنين
لغوطتك لحدائقك لحاراتك للساتين

ويعتبر البيت الدمشقي القديم بمثابة متحف روائع الفنون اليدوية التقليدية ، التي أبدعتها أيدي أولئك الفنانين والصناع الفنيين المتميزين بالمواهب الفنية والخبرات المهنية والمهارات اليدوية ، ويعود إليها فضل الإسهام في إغناء التراث الفني والحضاري .

لقد أضاف الدمشقي إلى بيته لمسات فنية تضيفي الجمال عليه ، وتزيده روعة وجمالاً ، وتجعله جميلاً كالعروس الجميلة . مما يجعل مبنى الدار كحديقة غناء وارفة الظلال تبعث الفرح والسرور . وللمرأة الدمشقية اهتمام خاص بالورود والأزهار المختلفة والحرص عليها ورعايتها وسقايتها .

كانت أحياء دمشق القديمة مؤلفة من حارات ذات طرق ضيقة ، تتجاوز

مبانيها وتلاصق ببعضها ، مما يعطي للمدينة وأحيائها طابع الألفة والتآلف الاجتماعي . والجدير بالذكر أن أبواب البيوت الدمشقية ليست متقابلة ؛ وذلك لئلا تنكشف على بعضها أثناء الخروج منها والدخول إليها .

كانت المرأة الدمشقية ترتدي الحجاب خارج بيتها ، وتخلعه داخل بيتها ، وقد وصف البيت الدمشقي القديم بالمرأة الجميلة المحجبة . يتوافر في مبنى البيت الدمشقي القديم الهدوء والجمال المعماري ، وجمال الورد والأزهار مما يجعل هذا المبنى بمثابة جنة ، وكانت قرقة الققباب الخشبي على أحجار الأرضية كإيقاعات موسيقية تعبر عن جمالية الحياة والحيوية ، تجعل الإنسان يشكر خالقه بأجمل عبارات الشكر ، ويردد قائلاً : (تبارك الخالق الخلاق فيما خلق ..) .

وكان لهذا كله صدهاء وأثره في الإحساس بأهمية التراث ووجوب المحافظة عليه للأجيال الصاعدة . كان يقيم في البيت الدمشقي القديم أسرة دمشقية كبيرة تتألف غالباً من الجد والجدة ، والأبناء وزوجاتهم ، والأحفاد من ذكور وإناث من مختلف الأعمار . يسكنون في حي يقيم فيه الأقرباء والأصدقاء ، متعاونين متضامنين متحابين وكان عدد دور دمشق بالتقرير الرسمي سنة (١٨٧١ م) الموافق سنة (١٢٨٨ هـ) نحو (١٤٦٩٦) داراً لكل الطوائف وغيرها من البيوت التي كانت تعرضت للتصدع والحرائق ، فأعيد ترميمها وإحالتها إلى متاحف يزورها المهتمون .

يتوافر في مبنى البيت الدمشقي القديم الهدوء والجمال المعماري وجمال الورود والأزهار مما يجعل هذا المبنى بمثابة جنة ، فيها المياه الجارية والورود والأزهار الجميلة الألوان والأشكال . . والغرفة الواسعة .

فالبيوت الدمشقية القديمة تبدو كمجمع فنون ابتكرتها الأجيال المتعاقبة ، وأسهمت في إغنائها بالروائع الجميلة ، وإذا كان بعضهم أساء التصرف بها ، فإن انتشار الوعي الحضاري تطلب اتخاذ كل الإجراءات اللازمة للمحافظة عليها ، وإذا كانت دمشق قد فقدت كثيراً من مبانيها الجميلة ، فإن هناك اهتماماً

كبيراً بمباني البيوت الدمشقية القديمة ، وهناك دور جميلة اتخذت مسكناً
للقناصل في العصر العثماني كدار قنصل فرنسا .

إن هذا كله هو التراث الذي نعبر عنه دائماً بالتقدير ، وفي القول الشعبي
المأثور:

«من لا ماضي له ، لا حاضر له» .

ويجدر بنا الاعتراف بالجميل لأجدادنا الذين أبدعوا لنا هذا التراث ،
ويجب علينا المحافظة عليه والاستمرار فيه .

وإذا كانت الأحياء القديمة ومبانيها المختلفة تتميز بالهدوء ، فإن الحياة
الحديثة المعاصرة وصخبها وضجيجها ، مما يجعل الإنسان المعاصر يتذكر
ذلك الهدوء وجمالية الحياة والمساكن ، وما فيها من صور جنات النعيم من
روائع العمارة السكنية وباحاتها وبحراتها ونباتاتها وأثاثها .

إن جمالية البيت الدمشقي القديم بسعته وباحته وبحرته وإيوانه وغير ذلك
كثير . . تثير السرور الجمالي في نفس المرأة وأفراد أسرتها ، وتحررهم من
الملل ، ووصفت الدار الدمشقية في الأمثال الشعبية أجمل وصف كقولهم :

«دار ودّار وطيور تناغي الواحد القهار» .

إن جمال البيت الدمشقي القديم جعل الشعراء يتغنون بجماله وبباحته
وقاعاته ووروده وأزهاره وأشجاره ، وزخارفه وبحرة مائه . . بل وبكل مافيه .

قال الشاعر العمري في فوارة ماء بقربها الثريا المصنوعة من القناديل :

انظر إلى فوّارة قد أبدعتْ رقصاً حلا بين النسائم تهصرُ
فكأنما هي والثريا جنبها تومي للثم خدودها إذ تخطرُ
حسناء تاهت بالدلال فكلّما قربت من الصبّ المتيم تنظرُ

وتكون هذه البحرة مربعة أو مستطيلة أو مضلعة أو مستديرة ، وفي وسطها
نافورة المياه ، وقد كسيت سطوح هذه البحرة بألواح الرخام المجزع والمشقف
كفسيفساء رخامية جميلة التكوين والتشكيل والألوان المنسجمة ، وتبدو جمالية
خطوط زخارفها الهندسية الفنية والمنحنية على جوانبها ، وكثيراً ما تكون البحرة

مقابل واجهة الإيوان ، وتتدفق مياه هذه البحرة من أربعة أنابيب ذات أشكال مختلفة واتجاهات متنوعة تسهم في تقوية حركة جريان المياه في البحرة .

وهناك مظلة معدنية مثمثة الشكل مثبتة بفرع شجرة في باحة الدار تتدلى فوق البحرة ، وتدعى (الكبك) توضع عليها صحن الطعام في الصيف ؛ وذلك لحفظها من الفساد بسبب حرارة الصيف ، مما يجعلها تقوم مقام (البراد) في عصرنا ، وذلك لحفظ الطعام بعيداً عن حشرات الأرض والهررة ، وغالباً مايكون لهذه المظلة غطاء من المنخل له شكل قبة .

ومهما يكن من أمر ، فإننا نستطيع أن نقول : إن صحن البيت يبدو بمثابة عالم آخر جميل يختلف عن البيئة الخارجية ، ويحجب عن أفراد الأسرة مختلف العوامل الطبيعية الخارجية ، ويترك لهم حرية التمتع بجمالية السماء ورطوبة الفضاء ، وإيقاعات رقصات المياه . وإن زيارة البيوت الدمشقية القديمة والتأمل في جمالية أشجارها وورودها وأزهارها تترك في نفس الزائر ذكريات لايمحوها مرور الأيام ، لكل منها اسمه العلمي والشعبي مثل :

أحمد بيك ، أرطاسية ، أصابع البوبو ، أم كلثوم ، حسن اليوسف ، البنفسج ، حلق المحبوب ، خد بنت الملك ، خد العروس ، الخميسة ، الدادا ، دعة القطعة ، راخي شعره ، الريحان ، الساعة ، السبع بحرات ، السجادة ، السمكة ، السيم ، الشب الظريف ، الشكرية ، الخبيزة ، المسكة ، الشمعة ، الشمشير ، شم النسيم ، الضراير ، العطرة ، الفل ، الفليفة ، الزينة ، القناديل ، المضعف ، المجنونة ، المنثور ، النرجس ، النعنوقة ، الهرجانية ، الهوا الناعم ، المكحلة ، القرنفل ، الهوا الخشن ، ياسمين عراتلي ، ياسمين أبيض بلدي ، ياسمين أصفر ، البكونيا ، الليلكة ، البوري ، الزلف ، البنفشة ، المستحية ، المحكمة ، لسان الحماية ، الكولونيا ، الشاب الظريف .

وكثيراً ما تصف أصص الورود والأزهار والرياحين على حافة بحرة مياه صحن الدار ، وتسهم في إضفاء ظل ظليل ولطيف في باحة الدار .

تتألف البيوت الدمشقية القديمة من ثلاثة أقسام هي :

- قسم السلملك للرجال .

- قسم الحرملك للنساء .

- قسم الخدم .

ويتألف البيت الدمشقي القديم من قسم خارجي (برّاني) وقسم داخلي للأسرة ، وتتميز هذه البيوت الدمشقية القديمة بزخارفها الفنية الجميلة التي تدل على مكانة أصحابها الاقتصادية .

ولهذه البيوت (منشر غسيل) يعرف باسم (المشرقة) ، يشبه الفسحة السماوية . يتألف المبنى من طابق واحد ، وإذا كان هناك مبنى أعلى من هذا الطابق فإن هناك غرفة تعرف باسم (الطيارة) .

وتجدر الإشارة إلى أن الغرف العلوية المسماة (فرنكات) تتخذ للمبيت فيها في فصل الشتاء البارد ، ويفصل ملكية البناء في الأسطح جدار بسيط وخفيف الوزن ، مُصنَّع على النموذج البغدادي المكسو بقوالب اللبن أو الآجر ومطلي بالكلس العربي الأبيض اللون ، ويسمى هذا الجدار الفاصل بين سطوح المباني المتجاورة باسم (الطبلّة) .

وفي المطبخ المدخنة والوجاق والموقد والكندوش مكان خزن الحبوب ، وبيت المونة (المؤونة) (السقيفة) .

تتميز البيوت الدمشقية القديمة ببوابة ضخمة تتمفصل مع ساقف الباب ونعلته (بزعرور) ، أي مفصل أسطواني من صلب خشب الباب ، وهو مصفح بالصاج السميك لحمايته من التآكل بسبب الاحتكاك ، وله (الساقط) أي الدقر الخشبي الداخلي .

يؤدي هذا الباب الضخم إلى دهليز يوصل إلى باحة الدار السماوية (أرض الديار) ، وكثيراً ما يزين هذا المكان بالأثاث وبخاصة (القنصلية) ذات المرأة الجدارية ، وطاولة بيضوية الشكل .

وقد وصف الباحثون البيوت الدمشقية القديمة أجمل وصف كقولهم : «إن

البيوت في دمشق ، بترتيب بنائها بأجمل طراز معماري ، وترتيب هندسي وفني ليس لها نظير في جميع البلدان الأخرى» .

ويحيط بباحة الدار غرف وقاعات كبيرة ، تزين جدرانها زخارف شرقية وتعلوها غرف جميلة ، وفي القاعات (بركة ماء) فسقية تسهم في تبريد الجو أيام حر الصيف ، وما يفيض من مياه البحرة يجري ضمن قساطل إلى الحمامات ، الذي يقذف بأقذارها في قناة مخصصة لها تحت الأرض إلى (السياق العام) المخصص في كل حي ، ويصب في (نهر قليط) الذي تصل مياهه إلى بساتين (ثمن الشاغور) و(ثمن الميدان) .

أما قسم الخدمات في البيت الدمشقي القديم ، فإنه يتألف من المطبخ الذي يوجد دائماً في الطابق الأرضي ، ويطل على صحن الدار ، ويكون واسعاً ، وأرضه مفروشة بالحجر الأسمر الداكن ، وإلى جانبه بحرة صغيرة يصب فيها الماء من على جوانبها ، وتستعمل لتنظيف الصحن وأواني المطبخ وذلك بعد جليها ، ثم توضع على رف جانب البحرة لتنشف من الماء .

وفي صدر المطبخ (أوجاق) أي مكان الموقد حيث يوضع فيه الحطب ويشعل ، وفوقه منصب خاص لطهي الطعام ضمن أوانٍ نحاسية مبيضة ، إنه العنصر الأكثر أهمية في المطبخ ، ويكون مبنياً من القرميد ، توضع عليه الطنجرة أو القدر للطبخ ، ويتسع لأكثر من طنجرة ، وقد بني هذا الموقد بشكل يصعد الدخان والبخار في فوهة تتصل بمدخنة تمتد حتى السطح ، وإلى جانب البحرة مصرف للمياه .

وكانوا يستعملون (الصفوة) أي الرماد المتبقي من الخشب بعد حرقه ، وذلك للتنظيف ، وكان يستعمل أيضاً (الأشنان) للتنظيف أيضاً ، وهو مسحوق نباتي ، وتوجد أيضاً في المطبخ خزانة (نملية) ذات جدران من شبك (المنخل الناعم) وذلك لحفظ الطعام ، ومنع الحشرات من الوصول إليه .

وكان يبرد الماء بالإبريق (أو الشربة) الإناء المصنوع من الفخار .

وأيضاً هناك (المعجن) وهو طبق نحاسي كبير مبيّض ، يوضع فيه الخبز

البيتي المشروح ويستعمل أيضاً لعجن الطحين . وكان على الكانون القدر وفيه (الكفكير والكبجاية وملاعق الخشب) ، وفي زاوية المطبخ يوجد (الكوندوش) وهو عبارة عن خزانة خشبية مغلقة تماماً توجد فيها فتحتان إحداهما علوية في سقفه ، والأخرى في أسفله ، ولهما (مغاليق) . ويستعمل هذا الكوندوش لحفظ الحنطة المستخدمة في صناعة الخبز وفي المطبخ . وهناك ممر يؤدي إلى (الحمام) ، ولم يكن الحمام موجوداً في كل بيت دمشقي ؛ لأن السكان كانوا يغتسلون في (حمام السوق) .

وقد كثر عدد الحمامات في دمشق وتزايد عددها في القرن الثامن عشر حتى وصل عددها إلى مئة وعشرين حماماً في مختلف أحياء دمشق ، ولم يبقَ منها في عصرنا سوى نحو عشرين حماماً .

وللحق إن مدينة دمشق طافحة بالمنجزات الكفيلة بإشباع رغبة المرء في المتعة الفنية ، أو بما يستجيب لها على نحو قوي ، وحسب المرء أن يبحث عن تلك المنجزات في أحياء دمشق القديمة ، فهي متحف كبير قائم بذاته ليشهد على أصالتها وعراقتها وغابر أمجادها ، لماذا لا نحافظ على خصائص البيت الدمشقي في عمارتنا مع الاستجابة للتطورات المعمارية الحديثة؟ .

رغم أنني لا أسكن البيت الدمشقي القديم لكنه بشدة يسكنني ، واجهاته السوداء من الحجر البازلتي تستنفر أحلامي ، لماذا نجري وراء كل ماهو مغاير لفنوننا وعاداتنا وأثاث بيوتنا ، وعمارتنا ، ومفاهيمنا أيضاً؟ البيت القديم تقليدي ، هكذا يقولون ، ولكنه بيت قديم حديث وسيبقى معاصراً؛ لأن أنفاس أجدادنا القدماء فيه أنفاسهم وبصماتهم وحركاتهم ورائحة الياسمين فيه لن تتغير هو الحنين إلى الأجداد؛ لتؤكد للأجيال القادمة أن دمشق هي عروس الحضارات ومهد الديانات وموطن التاريخ ولاعجب في ذلك لأن الإنسان ابن بيئته ، قال أسامة بن منقذ:

احذر من الدنيا ولا	تغتر بالعمر القصير
وانظر إلى آثار من	صرعته منا بالغرور
عمروا وشادوا ماترا	ه من منازل والقصور

وتحولوا من بعد سكنها إلى سكن القبور
ففي البيت الدمشقي القديم كل متطلبات الإنسان الحياتية والأمنية
والرفاهية ، إنه قصر الجمال والأحلام تعجز عن وصفه الأقلام .

من الأمثال الدمشقية مايلي :

«بيت الإنسان فردوسه ، وفردوس الإنسان بيته» ما يفسر مدى اهتمام
الإنسان بعمارة بيته وجمالياته .

وإذا فقدنا الكثير من البيوت الدمشقية القديمة ، فإن ماتبقى منها يدل على
جمالية تلك البيوت ، ويتطلب منا جميعاً المحافظة على ماتبقى منها للأجيال
الصاعدة ، في عصر أصبح فيه الاهتمام بالتراث والمحافظة عليه من أهم معايير
رقي الأمم وتقدمها ووعيها الحضاري .

أتذكر البيوت الدمشقية

بمقابض أبوابها النحاسية

وسقوفها المطرزة بالقيشاني

وباحاتها الجوانية

التي تذكرك بأوصاف الجنة . .

البيت الدمشقي

خارج عن نص الفن المعماري

هندسة البيوت عندنا . .

تقوم على أساس عاطفي .

فكل بيت يسند خاصرة الآخر

وكل شرفة

تحديدها للشرفة المقابلة . .

البيوت الدمشقية بيوت عاشقة

فهي تسلم على بعضها صباحاً
وتتبادل الزيارات . .
- في السر - ليلاً .
أحواض الشمشير . . والليلك . . والقرطاسيا . .
البركة الوسطى ، عين الدار الزرقاء
الياسمين الزاحف على أكتاف المخادع . .
وعلى أكتافنا . .
النافورة الذهبية - طفلة البيت المدللة .
التي لا تنشف لها حنجرة
والقاعات الظليلة ، أواني الرطوبة . . ومخبؤها .

* * *

دمشق العريقة

دمشق القديمة معلّمٌ حيّ للثقافة العريقة بالآثار التي تحتويها وبتقاليد الحياة الحضرية فيها ، وهي أقدم مدينة مأهولة في التاريخ ومستمرة فيها الحياة ، ومن هنا قيمتها التي جعلت المنظمة الدولية للتربية والثقافة والفنون (اليونسكو) تدرجها ضمن قائمة التراث العالمي منذ عام (١٩٧٩ م) ، ودمشق القديمة ضمن أول عشرين مدينة عالمية تدخل في قائمة التراث العالمي ، بينما مدينة جنوة الإيطالية مثلاً دخلت قائمة التراث العالمي منذ سبع سنوات فقط ، وما يُقدم لدمشق القديمة قليل جداً جداً أمام مكانتها التاريخية والأثرية .

وتمثلت فوائد إدراجها على قائمة التراث العالمي ، إذ جعلتها معروفة عالمياً أكدت هوية البلد الحضارية العريقة .

وهي سجلت متكاملة على قائمة التراث العالمي بمجمل نسيجها المعماري (بيوت - حارات - سور - ترب - جوامع - خانات - سبل - مدارس - أسواق - بيمارستانات . . . إلخ) . وتوجد في دمشق القديمة آثار مهمة جداً ، ومبانٍ ذات قيمة فنية عالية ، وكذلك توجد فيها البيوت الخشبية البسيطة وفيها بيوت جديدة بالذكر (بيت العقاد - بيت السباعي - بيت القوتلي) وبيوت أخرى لعائلات دمشقية عريقة ومعروفة وبرز منها شخصيات سياسية وعسكرية أدّت أدواراً مهمة في تاريخ سورية . .

دمشق القديمة اليوم أبرز معالمها أنها مطعم كبير ومزدحمة بالسيارات والضجيج !

الظاهرة المعمارية الحديثة التي ظهرت من أوروبا وأصبحت نتيجة للتقنيات الحديثة في تصميم ديكورات الغرف :

- السقوف المزخرفة الطويلة .

- السقوف الخشبية الملساء .

- استخدام المرايا في ديكور السقوف والجدران والأبواب .

- الزخرفة الجصية للسقوف .

- عناصر النقش البارز .

- تقنيات جديدة في معالجة الحجر والرخام .

أصبح تصميم الديكورات الداخلية وواجهات المباني معاصراً ، مثلما استخدم في تركيا لتزيين المباني في القرن السابع عشر الميلادي ، وهذا ما يسمح لنا بالحكم على أسباب ونتائج ظهور أسلوب معماري حديث هو (ما بعد العثماني) أو (الباروك الدمشقي) . إن مزج الأسلوبين المحلي والتقنية الأوروبية في تصميم ديكور البيت الدمشقي السكني لم ينشأ اصطناعياً ، ولم يتم جلبه من الخارج بلا سبب ، فهو نتيجة تطور العمارة السكنية الدمشقية على مدى قرون كثيرة .

في عام (١٧٧٠ م) تم تصميم ديكورات بيت عقاد وبالأسلوب العثماني الصرف ، نظراً إلى أن الزخارف الملساء على الألواح أو العوارض الخشبية قد بطل استعمالها في تلك الفترة وأصبحت من الطراز القديم ، فظهرت عناصر وأساليب معمارية حديثة ، مثل الزخرفة العجمية أو تتالي الحجر الملون على الواجهات - الأبلاك .

في عام (١٨٢٠ م) حتى عام (١٨٣٠ م) ظهرت في بيت عقاد زخارف خشبية ونقوش بارزة أكثر حداثة في (الغرفة السماوية) وقماش ممتد على السقف وإفريزات مزخرفة .

تتكون القاعة الواقعة في القسم الشمالي من الفناء من عتبة وطرز ، أما في منتصف العتبة فتوجد نافورة فسقية مكسوّة بالرخام ، العوارض الخشبية لكلا السقفين جميلة جداً مغطاة بزخارف بأسلوب العجمي . في هذا الطرز يوجد يوك

وهو عبارة عن خزانة جدارية مع أبواب مزخرفة بأسلوب العجمي مع حواشٍ محورية ذات مواضيع ، وست كتيبات وهي خزائن جدارية مفتوحة .

يتكون القسم الجنوبي من الفناء الداخلي من ليوان وقاعتين تطلان عليه ، يمكن الصعود إلى واحدة منهما عبر أربع درجات . القاعة الواقعة إلى اليمين تعود لفترة سابقة ، وهي مكونة من العتبة والطرز . أما القاعة الواقعة في الجهة اليسرى فإنها تعود لفترة لاحقة ، ويطلق عليها تسمية (غرفة الضيوف الحمراء) في بيت عقاد .

يتكون الجزء الغربي من غرف تعود لفترة لاحقة ، يمكن الصعود إليها عبر الدرج ، فأحدى هذه الغرف قد زينت في عام (١٧٦٢ م) بكتابات عربية تمثل آيات من القرآن الكريم ، وسلسلة هذه الغرفة مزخرف بالرخام .

القسم الشرقي من الفناء الذي يضم المطبخ ونافورة نصف دائرية من البازلت مع درج يقود إلى القبو .

الفناء الداخلي الذي يحتوي على نافورة كبيرة مبلطة بالرخام كما هو الحال بالنسبة لأرضية الليوان في هذا البيت ، واجهتان رئيسيتان هما الواجهة الشمالية والواجهة الجنوبية ، المكسوتان بالحجر الملون والزخارف الهندسية التي تعود لعهد المماليك . قوس الجزء الجنوبي من الفناء التابع لليوان يشكل إحدى المكونات الثمينة لهذا البيت ، واجهتا الفناء لا تتوافقان مع الأجزاء الأخرى من البيت : نصف الواجهة الشمالية من الجهة الشرقية أكثر قدماً من الواجهة الجنوبية . وبعد دراسة البنية الحجمية - التخطيطية ومواد البناء والإنشاءات ، إضافة إلى عناصر الديكور تم التوصل إلى استنتاجات تفيد بأن بيت عقاد ينتمي إلى أربعة عهود تاريخية :

١ - العهد الروماني - حيث إن مقاطع من بناء جدار الواجهة الشمالية للفناء الداخلي تعود إلى هذا العهد ، إضافة إلى أن هذا البيت قد بني في مكان مسرح روماني .

٢ - عهد المماليك - الزخرفة الهندسية على الجدار الشمالي تتوافق مع الأسلوب السائد في عهد المماليك (ومثل هذه الزخارف الهندسية يمكننا مشاهدتها في زخرفة المساجد والمآذن التي تعود لعهد المماليك).

٣ - العهد العثماني في منتصف القرن الثامن عشر - صممت ديكورات جدران الفناء الداخلي بأسلوب الأتليق ، والنافورة ذات شكل هندسي ، وتصميم ديكور (غرفة الضيوف الحمراء) مع الطزر.

٤ - عهد الباروك الدمشقي في نهاية القرن التاسع عشر حتى بداية القرن العشرين - تصميم ديكور (غرفة الضيوف السماوية).

لا بد من التوقف عند بيت عقاد الثاني - بيت صفوح عقاد الواقع جنوب الجامع الأموي (من جهة حي النوفرة) الذي توجد فيه أروع لوحات باقية من العهد الباروكي. هذا البيت في الوقت الحاضر مقسم إلى جزأين ، الجزء الأول كان مخصصاً لحرمك هذا البيت ، أما الآن فهو عبارة عن محل تجاري لبيع الأشياء الأثرية (العاديات) ، وهنا على الأخص مازالت رسوم على الجدران بحالة جيدة.

الجزء الآخر من المبنى هو السلمك وقد تم بيعه. في الوقت الحاضر يتبع هذا الفناء لمالك آخر ، صاحب مطعم خاص. جرت في هذا المبنى أعمال ترميم بشكل غير واع ، فوق الزخارف الجدارية وضعت بلاطات رخامية تقلد أسلوب الأتليق ، وبالنسبة للسقوف فقد تم إخفاء السقوف المزخرفة بعوارض خشبية مزخرفة بأسلوب العجمي ، الشيء الوحيد الذي يذكر بانتمائه إلى أسلوب الباروك هو زخرفة القوس المتبقية ، ذلك القوس الذي يفصل التوزور عن عتبة هذا الفناء.

استخدم (مبدأ الترميم نفسه) في مبنى آخر ، كان سابقاً بيتاً سكنياً ، أما الآن فهو مدرسة المحسنية.

يشغل قاعة الحرمك محل تجاري ، وتوجد في الجزء العلوي من القاعة ثمان لوحات جدارية قياس (٨٠×٦٠ سم) و(٣٠٠×٢٠٠ سم). وتعتبر هذه

اللوحات عن مواضيع مختلفة : (مكة المكرمة) ، (الكعبة) ، وهما من الأماكن المقدسة الإسلامية ، واستانبول مع مضيق البوسفور ، الذي نشاهده في العديد من البيوت الدمشقية ، ومناظر طبيعية بحرية مع البواخر؛ أي بكلمات أخرى تعبر عن مواضيع تمثل طرق القوافل التجارية والدينية وأماكن حج الدمشقيين .

في غضون أربعة عقود حصل تأثير متبادل ما بين إستانبول ودمشق . وفي هذه الفترة ظهر أسلوب حديثة كنتيجة لذوق جديد للسكان ، ونتيجة واحدة لهذا التأثير تمثلت في الطبيعة الصامتة مع الفواكه التي ظهرت في ديكور المطعم في بيت عقاد ، وهي غرفة أحمد الثالث الواقعة في قاعة الطابق الأول المطلّة على الفناء الداخلي . الخزن الداخلية التي زينت طرز قاعة الضيوف هذه تحمل ديكور طبيعة صامتة مع عناصر بحرية داخل إطار مزخرف بأسلوب العجمي ، كما في بيت سعيد قوتلي . غرفة الضيوف الحمراء تعبر بجلاء عن العمارة العثمانية .

في العهد العثماني في منتصف القرن الثامن عشر أثر فن الغرب على إستانبول ، وهذا الفن بدوره أثر على فن دمشق ، حتى بعد انقضاء مئة عام لانشاهد في المدن السورية الكبيرة ظواهر بارزة للفن الأوروبي الغربي ، حيث ظهرت عناصر الباروك فيها في فترة لاحقة متأخرة جداً وليست بارزة كما هو الحال في دمشق .

ظهرت أول لوحات مزخرفة مثبتة على السقف في بيت ساروجة الواقع بالقرب من بيت البارودي في عام (١٨١٩ - ١٨٢٠م) . أكدت هذه التواريخ للمرة الأولى الباحثة في العمارة الدمشقية (مايا مرمر باشا) ، استخدمت هذه الزخارف لغاية العشرينيات من القرن العشرين . في الستينيات من القرن التاسع عشر تم إعادة ديكور عدد كبير من القصور الدمشقية ، حيث نجد لوحات كبيرة تزيينية عبرت عن استانبول وباريس ومكة وروما ومدن أخرى ، أو مواضيع معمارية مختلفة .

أمثلة على مثل هذه الصور يمكن أن تكون اللوحات الجدارية في بيت البارودي (في الجزء الجنوبي من البيت) ، وفي بيت تشيرازي ، وفي الغرف العلوية من بيت مجلد ، وبيت عقاد والبيوت الأخرى . وفي ليوان بيت مجلد ، حيث تم إبراز مواضيع من الحياة اليومية الدمشقية .

وبغض النظر عن الإطارات الزمنية المختلفة لإنشاء المعالم المعمارية الدمشقية ، التي خضعت للبحث والدراسة ، هنالك ميزة عامة يجمعها تتجلى في تأثير العمارة الأوروبية الغربية وخاصة الفرنسية على الحل الديكوري والتنظيمي لهذه المباني .

التأثيرات الأوروبية الغربية المتأصلة في فن العمارة الدمشقية في نهاية القرن التاسع عشر - بداية القرن العشرين ، راحت الطبقة البرجوازية تغادر المدينة القديمة وتبني بيوتاً في أحياء حديثة في الضواحي ، وبدقة أكثر خارج حدود سور القلعة (مثل شارع القنوات ، وحي الصالحية ، وحي الميدان وغيرها) ، وهذا أدى إلى تغييرات هامة معمارية وتخطيطية ووظيفية وفراغية وديكورية وهندسية ، أصبح التناظر ميزة بارزة ، فالواجهات ومخططات المباني أصبحت متناظرة . الواجهة الرئيسية للمبنى ليست متجهة نحو الفناء الداخلي بل إلى الخارج ، وتم اختراق الواجهات بنوافذ واسعة كبيرة ، وظهرت الشرفات البارزة أو البلاكين المفتوحة ، وبرز بجلاء التعداد الطابقي للبيوت ، وهذا مآدى إلى تغييرات في التكوين الحجمي والفراغي للمباني السكنية . وبهذا الخصوص يمكن اختيار عدة مبانٍ سكنية من حي الصالحية لها تاريخ عريق .

في القرن الحادي عشر سكن هذا الحي الواقع خارج سور القلعة لاجئون من فلسطين كانوا قد نجوا من حروب الصليبيين وبالنسبة هدمت بيوتهم السكنية . في مكان هذه المباني كانت قد اقتلعت بساتين وبدأ فيها البناء في عام (١٩٠٣ م) وفي عام (١٩٢١ م) ، نظراً للمخطط التنظيمي لمدينة دمشق جرت أعمال إعادة إنشاء هذا الحي ، وأعيد تنظيم بعض البيوت ، والكثير منها أعيد بناؤها من جديد ، حي الصالحية يفصل دمشق القديمة عن حي المهاجرين ، وأصبح مكان سكن الصفوة الدمشقية .

أشهر بناء هو المستشفى العسكري الواقع بالقرب من البرلمان ، وقد تم بناؤه في عام (١٨٦٥ م). المبنى متناظر في مخططة وجمع بين أساليب العمارة الأوروبية والعثمانية .

نادي ضباط فرنسا الواقع شمالي المستشفى كان قد بني في مكان بيت صبحي بركات ، وتبدو بجلاء العناصر المعمارية الفرنسية: تناظر الواجهة ومخطط المبنى. نوافذ كبيرة على الواجهة ، مع مدخل متسم بالأبهة.

المستشفى الإيطالي الذي تم بناؤه في عام (١٩٢٧ م) متناظر في مخططة ، مع واجهات متناظرة ومزخرف بالأعمدة الجدارية والتيجان الكورنثية ما بين صفوف النوافذ.

تعرض شارع القنوات المحاط بحي القنوات لتطور عاصف في نهاية القرن التاسع عشر - بداية القرن العشرين ؛ حيث عاشت في هذا الحي الطبقة الأرستقراطية الدمشقية. توجد على هذا الشارع سلسلة كاملة من المباني السكنية المميزة للعمارة الدمشقية في العهد ما بعد العثماني ، مثل بيت قنوات. تطور بناء مدينة دمشق خلال الفترة الانتقالية.

الفترة من بداية القرن العشرين حتى عام (١٩٤٣ م) ، عندما وقعت سورية تحت الحكم الاستعماري الفرنسي يمكن تسميتها الفترة الانتقالية من تطور بناء مدينة دمشق. في العشرينيات حتى الأربعينيات من القرن العشرين عندما كانت سورية تحت الحكم الاستعماري الفرنسي ، حيث ساد الأسلوب (العالمي) في القرن العشرين وبدأت إعادة بناء المدن السورية وفق مخططات المهندسين المعماريين الفرنسيين. نرى في المباني تمازجاً رائعاً لعناصر أوروبية غربية بارزة مع عناصر موروثة من المنمنمات العربية المتأخرة والتركية والزخرفة التقليدية.

شيدت بعد ذلك أحياء حديثة بطابع أوروبي مع مبانٍ بأسلوب البنائية (نظرية جمالية ظهرت عام (١٩٢٠ م) لتحل في موضع النحت التقليدي نحتاً مفرغاً مكتنفاً بتشابك من الخطوط والسطوح) الفرنسية إلى جانب المباني التقليدية ،

وبنتيجة ذلك تشكل طابع مميز للشرق المستعمر تجلى في تقسيم المدينة إلى قديمة وحديثة .

وتم تحت إشراف المعماريين الفرنسيين إعداد مخطط تنظيمي عام للمدينة . في العشرينيات من القرن العشرين جرى بناء محطة الحجاز للسكك الحديدية وفق مخطط مهندس معماري أوروبي ، بأسلوب أوروبي . وبدأت تظهر بيوت متعددة الطوابق .

وسعيّاً لإعطاء المباني صبغة محلية أدخل المعماريون إلى ديكورها الخارجي عناصر من العمارة والزخرفة العربية الإسلامية ، محافظين بذلك كلياً على البنية الوظيفية التخطيطية للبيت السكني التقليدي ، واخترقت الواجهات بنوافذ عريضة كبيرة ، وبرز بجلاء التناظر والتعداد الطابقي .

الحقبة الزمنية التالية من تطور دمشق هي الثلاثينيات حتى الأربعينيات من القرن العشرين ، عندما تنامت حركة التحرير الوطني لسورية . حصل تغير جذري في العمارة السورية بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية ، وعندما أصبحت سورية تحت حكم الانتداب الفرنسي (١٩٢٠ - ١٩٤٣) اكتسبت العمارة السكنية الدمشقية طابعاً جديداً من تطورها بعد حصول سورية على الاستقلال .

في ١٧ نيسان عام (١٩٤٦ م) حصلت سورية على الاستقلال ووقفت على درب جديد من التطور ، لكن العمارة احتفظت بتوجهها نحو الطرز الأوروبية ، في الستينيات حتى السبعينيات أصبحت العمارة الدمشقية تلبي جميع احتياجات المجتمع المعاصر . وتلقى المهندسون المعماريون تعليمهم في الخارج . واليوم يعمل في البلاد جنباً إلى جنب معماريون سوريون وأجانب ، وتشاد مجمعات تجارية حديثة ومؤسسات تعليمية ومكتبات ومسارح . وتبنى أحياء حديثة منظمة وفيلات وبيوت متعددة الطوابق ، وتظهر الحداثق والمشافي الكبيرة المتخصصة والفنادق والملاعب الرياضية ، وتتطور البنية التحتية للمدينة . وهناك خطة شق مترو الأنفاق والترامواي السريع ، كما تستصلح أراض جديدة .

وبغض النظر عن توسيع رقعة دمشق وتجهيز أراضٍ جديدة فإن الاهتمام بالمدينة القديمة يتضاءل ، لكن الاهتمام يظهر من خلال سعي مجموعة من الموظفين للشراء على حساب خسارة ثقافة شعب كامل ، وعلى حساب تهديم المباني القديمة وبناء محلها (أهوال) متعددة الطوابق .

في الوقت الحاضر يوجد مشروع لدى محافظة دمشق شبيه بهذا التوجه يهدف إلى إعادة بناء المدينة القديمة؛ في هذا المشروع تم الإعلان عن (تنظيف) الشارع المستقيم من حي باب توما حتى القلعة (باب السلام) ، حي شارع الملك فيصل ، وفي مكان البيوت القديمة بناء ناطحات سحاب زجاجية . بني هذا الحي في عهد الأيوبيين (القرن الثاني عشر - القرن الثالث عشر) وفي عهد المماليك (القرن الثالث عشر - القرن السادس عشر) . يوجد فيه سوق كبير للفن الدمشقي التطبيقي التقليدي ، وهو مكان يحبه السكان المحليون وضيوف دمشق .

فالمشروع غير معقول على الإطلاق من وجهة نظر التفكير السليم؛ فهو يهدم التقاليد العريقة: الاجتماعية والمادية والثقافية ، ويمكن أن يشكل كارثة للمدينة . ولهذا المشروع تأسست في دمشق لجنة ضمت خبراء محليين وأجانب تجمع الرأي العام ولجنة من الخبراء الاختصاصيين بمجالات مختلفة . وبالنتيجة تم استلام كتاب ، بل على وجه أدق أمر من المدير العام لمنظمة اليونسكو بإيقافه . وتحت إشراف هذه المنظمة تم تشكيل فريق عمل ، ونتيجة عمل هذه اللجنة أصبح المشروع المضاد يهدف إلى إعادة إحياء وترميم ودعم مركز المدينة القديمة تحت اسم: (دمشق ٢٠٢٠ نظرة إلى التطوير العمراني للمدينة ودراسة حي شارع الملك فيصل) . كم نتمنى تبني مثل هذا المشروع من قبل السلطات ، وعدم السماح بتهديم المدينة وزوال هذه الكنوز العالمية .

في بحث الأطروحة تم إعداد مجموعة من المعايير التي يمكن على أساسها تحديد نظام تقييم البيوت السكنية الدمشقية التقليدية ، ذات القيمة التاريخية والمعمارية والتي تملي تصحيح البنية المعمارية - التنظيمية للمدينة القديمة .

يتطلب التنظيم العمراني للمدينة على المستوى التشريعي اعتماد نظام القيود المعيارية ذات الصلة بتطور البناء ، والحد من البناء العشوائي ، وتحقيق نظام وتدابير المراقبة الحكومية ، التي تلزم المؤسسات والأفراد بالمحافظة على المواقع الطبيعية الثمينة والعمارة التقليدية الكائنة في نطاق انتفاعهم منها .

من المهم متابعة الدراسة التفصيلية للمباني التي لم تخضع للدراسة سابقاً والتي تعود إلى هذه الحقبة الزمنية ليس في المجال التاريخي - الثقافي فحسب ، بل بغية إبراز التقاليد المتقدمة لاستخدامها في التطبيق المعاصر لتصميم الأبنية السكنية أو العامة المعاصرة .

سبل تحسين النوعية المعمارية - الفنية للبناء السكني وإعادة توجيه بناء دمشق القديمة بما يتوافق مع الشروط والمتطلبات الحديثة .

ختاماً ، أود القول : إنه في الوقت الحاضر تجري في كامل دمشق أعمال ترميم . الكثير من رجال الأعمال يريدون تحقيق أرباح دون التفكير على الإطلاق بالماضي العريق لمدينتهم ، ترميم شبه عشوائي ينعكس سلباً على المباني السكنية الدمشقية . يمكن تعداد القليل من المباني التي جرت فيها أعمال الترميم بشكل واع ، وتمت فيها المحافظة على معالم الزخرفة الجدارية . الأسهل بالطبع هو إكساء الجدار بصفوف من الحجر أو الرخام الملون ، والتخلص من السقف المزخرف ، وأن توضع مكانه ألواح خشبية مزخرفة بأسلوب العجمي من أن نستأجر فنانين معماريين محترفين في مجال الترميم ، وتنفيذ البناء بشكل لائق .

مثال على شبه الترميم هذا نجده في إعادة توجيه عدد من البيوت الدمشقية ، من بينها بيت عقاد الثاني (القريب من الجامع الأموي) ، حيث تمت تغطية جميع الزخارف الجدارية والسقفية بصفوف من الحجر الملون ، وسدت (النوافذ غير اللازمة) ، وحفرت الأقنية لزيادة مساحة الفناء .

ومثال آخر على مثل هذا الترميم : مدرسة المحسنية ، التي كانت بيتاً سكنياً ، بل بالأحرى قصرأ ، إن أخذنا بعين الاعتبار المساحة والنوعية وكمية

العناصر التزيينية (الديكورية بالأسلوب الأوروبي الغربي). كان ليوان هذا المبنى عابراً وكبيراً في مساحته وكان يقود إلى قاعتين ، إحدى هاتين القاعتين هو مكتب مدير المدرسة ، وكما في المباني السابقة تم تغطية جميع الجدران المزخرفة بصفوف من الحجر الملون ، أما السقف فبالواح بأسلوب العجمي .

القاعة الواقعة في الجهة المقابلة لم تلمس ، واحتفظت بزخارف رائعة تعود لنهاية القرن التاسع عشر ، لكنها بحاجة إلى ترميم عاجل .

يمكن على سبيل المثال تعقب كيف جرت أعمال الترميم بشكل صحيح في بيت عقاد الأول (المركز الثقافي الدنمركي) تمت فيه المحافظة وترميم كل سنتيمتر مربع ، ومن حيث تاريخ تشكيلها فإن تلك الغرف التي تعود لفترة الباروك ، والتي لم تمثل قيمة فنية خاصة جرى تنظيفها حتى أقدم طبقة ، أما تلك التي تمثل قيمة تاريخية فقد رمت بدقة متناهية ، مثل (غرفة الضيوف السماوية) و(الغرفة الحمراء) .

في عام (١٩٩٤ م) نفذت جامعة دمشق تطبيقات عملية بالترميم بمشاركة علماء محليين وأجانب ونشروا نتائج أبحاثهم للعديد من المباني . وما يمكن اعتباره تقدماً كبيراً هو حيازة كلية الهندسة المعمارية في دمشق لإحدى فناءات بيت البارودي بمثابة ورشة عمل خاصة بها ، حيث يرسمون ويدرسون ويرممون ، وبذلك يتعلم طلابها الكثير .

تميزت الحقبة الزمنية من النصف الثاني للقرن التاسع عشر حتى بداية القرن العشرين ، باقتباس مواضيع وعناصر من العمارة الأوروبية قريبة من طابع وأسلوب الباروك ، يطلق على هذه الحقبة الزمنية (الباروك الدمشقي) .

فيما بعد ، في الفترة التي تلت العشرينيات والأربعينيات ساد في العمارة الدمشقية الأسلوب (المعاصر) ، وتم تحت إشراف معماريين فرنسيين وضع مخطط تنظيمي للمدينة ، وظهرت البيوت متعددة الطوابق .

يمكن اعتبار (الباروك الدمشقي) فترة تحول من العمارة العربية العثمانية إلى العمارة (المعاصرة) في العمارة (الجديدة) لقي الأسلوب التقليدي انعكاساً في بعض عناصر الواجهات والديكورات الداخلية . ومع ذلك ، بغية الاستخدام

الصحيح للعناصر التقليدية في العمارة فإن (الباروك الدمشقي) بحاجة لدراسة
معمقة مع المحافظة على معالم هذه الحقبة الزمنية ، والقيام بأعمال الترميم
السليمة.

* * *

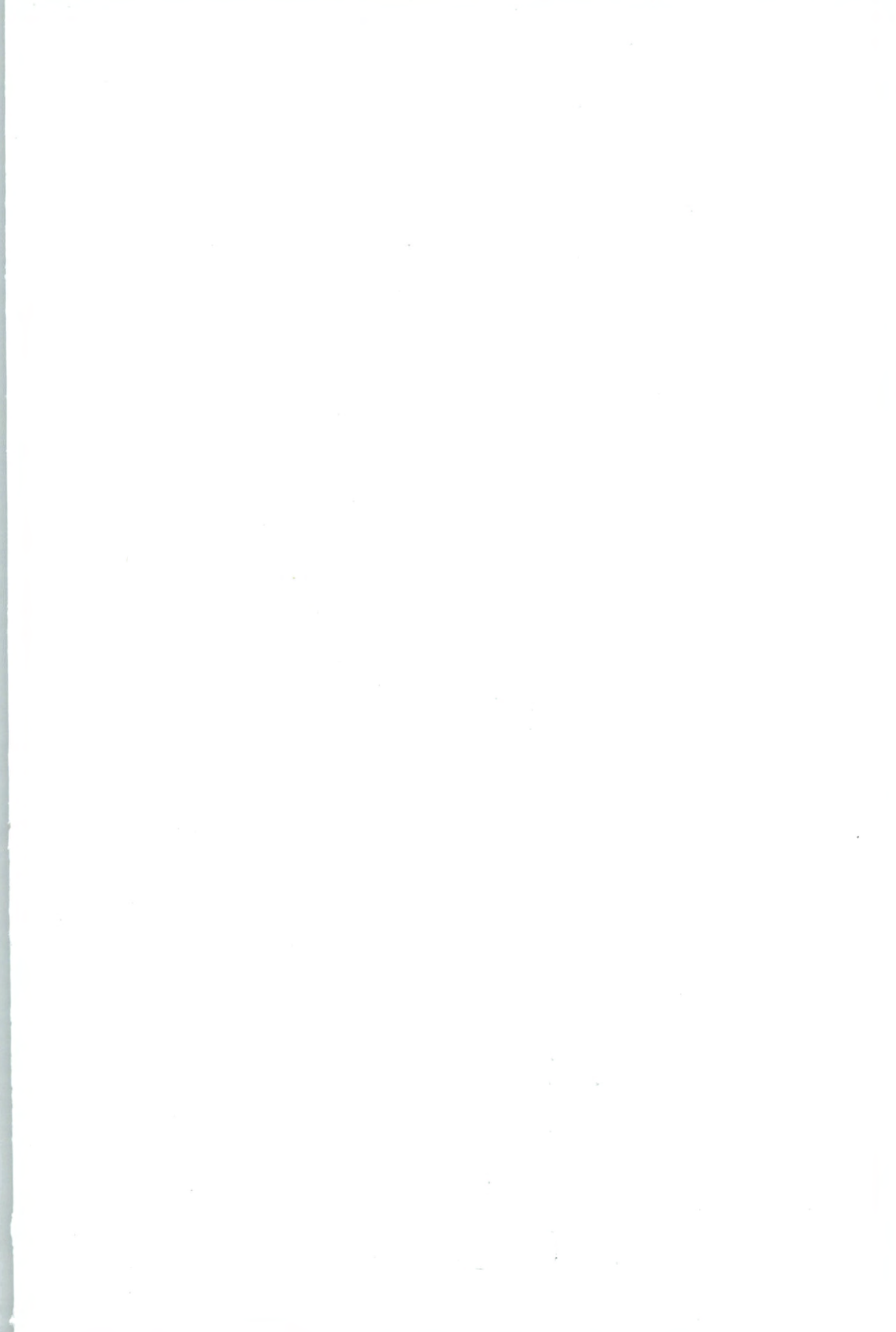
المراجع

- ١ - قصور وبيوت في دمشق في القرن الـ ١٨ ، د. قتيبة الشهابي .
- ٢ - زخارف العمارة الإسلامية في دمشق ، د. قتيبة الشهابي .
- ٣ - جولة تاريخية في عمارة البيت العربي والتركي ، م. محمود زين العابدين .
- ٤ - الإنشاء المعماري ، د. غسان الحلبوني .
- ٥ - دمشق - مصايفها ومنتزهاتها ، د. علي موسى .
- ٦ - دمشق تاريخ وصور ، د. قتيبة الشهابي .
- ٧ - البيت الدمشقي ، زكريا محمد كبريت .
- ٨ - مشيدات دمشق ذوات الأضرحة ، د. قتيبة الشهابي .
- ٩ - آثار سورية القديمة ، هورست كلينكل ، ترجمة: قاسم طوير .
- ١٠ - دمشق الشام ، تعريب: فؤاد البستاني .
- ١١ - حي الميدان في عصر الرومان ، د. بريجيت مارينو ، ترجمة: ماهر الشريف .
- ١٢ - دمشق من العالم العربي ، عفيف البهنسي .
- ١٣ - كنوز العمارة الدمشقية ، الباحثة د. فلاداميلنيك .
- ١٤ - معالم دمشق التاريخية ، للإيش والشهابي .
- ١٥ - تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر .
- ١٦ - خطط دمشق ، أكرم العليبي .
- ١٧ - دمشق بين الماضي والحاضر ، محمد بسام العش .

- ١٨ - في رحاب دمشق ، دهمان .
- ١٩ - دمشق عبر التاريخ ، فاضل السباعي .
- ٢٠ - ذيل تاريخ دمشق ، ابن القلانسي .
- ٢١ - البحث عن دمشق ، شوقي بغدادي .
- ٢٢ - البيوت الدمشقية القديمة ، فرج العش .
- ٢٣ - دمشق صور من جمالها ، للشيخ علي الطنطاوي .
- ٢٤ - دمشق عبر العصور ، الأستاذ هاني المبارك .
- ٢٥ - دمشق مدينة السحر والشعر ، محمد كرد علي .
- ٢٦ - الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية ، محمد عز الدين عربي كاتبي .
- ٢٧ - الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، نعمان قساطلي .
- ٢٨ - العمارة العربية الإسلامية ، د. عبد القادر ربحاوي .
- ٢٩ - فضائل الشام ، للحافظ أبي سعد السمعاني .
- ٣٠ - فضائل الشام ، للحافظ محمد بن عبد الهادي .
- ٣١ - فضائل الشام ودمشق ، لأبي الحسن بن عبد الرزاق الدمشقي .
- ٣٢ - في رحاب دمشق ، محمد أحمد دهمان .
- ٣٣ - مرآة دمشق ، عبد العزيز العظمة .
- ٣٤ - معجم دمشق التاريخي ، د. قتيبة الشهابي .
- ٣٥ - وصف دمشق ، من مذكرات الرحالة فارس دارفيو ، ترجمة: أحمد إيش .
- ٣٦ - وصف دمشق ، لذكريا القزويني .
- ٣٧ - دمشق في مطلع القرن العشرين ، أحمد خلعي العلاف .

- ٣٨- روائع التراث في دمشق ، د. عبد القادر ربحاوي .
٣٩- دمشق الشام أقدم مدينة في العالم ، أيوب سعدية .
٤٠- منتخبات من تاريخ دمشق ، للحصني .

* * *



المحتوى

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
فن عمارة البيت السكني الدمشقي التقليدي	٧
- المشربية	١٠
- غرف الضيوف	١٥
- المطبخ	١٧
- الحمامات	١٨
- النوافذ	٢١
- تعدد أشكال الأعمدة	٢٤
- الأقواس	٢٥
- الأدراج	٢٦
- السقوف	٢٩
- طرائق بناء الجدران	٣٠
- السقف	٣٤
- الأعمدة	٣٨
- المدافئ	٤٠
- المضياف	٤٠
- الأرضيات	٤٠

٤٢	 -المحراب
٤٢	 -الزخرفة
٤٧	 -أنواع الزخرفة
٤٨	 -المقرنصات
٤٨	 -الأرابيسك
٥٥	 قصر العظم
٦٩	 مستقبل مدينة دمشق
٩١	 تطور دمشق عبر العصور التاريخية
١٠٥	 التطور العمراني لمدينة دمشق في العصر العربي
١١٧	 تطور العمارة السكنية الدمشقية في العهدين العثماني وما بعد العثماني
١٢٧	 تأثير البيت الدمشقي بالثقافة المعمارية الأوروبية الغربية
١٣١	 العوامل الجغرافية المؤثرة على نشوء الأسلوب الحديث في دمشق
١٣٣	 العوامل الاجتماعية والاقتصادية والدينية المؤثرة على العمارة الدمشقية
١٣٩	 الباروك الدمشقي
١٥٣	 بيت القوتلي الثاني
١٥٦	 بيت مجلد
١٧١	 البيت الدمشقي
١٨٣	 دمشق العريقة
١٩٥	 المراجع
١٩٩	 المحتوى

* * *